الدكتور عبد الله مصطفى

معالم الطريق
في
عمل الرّوح الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ٧٧٨ / ١٠ / ١٩٩٣م
رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية : ١١٢٢ / ١٠ / ١٩٩٣م

٢١٤
عبد عبد الله مصطفى
معالم الطريق في عمل الروح الاسلامي / عبد الله
مصطفى . - عمان : (د . ن) ، ١٩٩٣
(٣٣٦) ص
ر . أ (١١٢٢ / ١٠ / ١٩٩٣)
١ - الاسلام - عقيدة أ - العنـــوان

(تمت الفهرسة من قبل المكتبة الوطنية)

بسم الله الرحمن الرحيم

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ

لله

الحمد من قبل ومن بعد

والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد

وآله وأصحابه وأتباعه أجمعين.

المقدمة

هذا كتاب ينفع المؤمنين والمؤمنات. يوضّح لهم حقائق عمل الروح في الإسلام ببيان جزل وكلام سهل. ويرشدهم إلى مبادئه ومقاصده كما هدى إليها القرآن المجيد في آياته المحكمات وفصلتها السنن النبوية المبينات.

إنه كتاب لهؤلاء الذين واللائي استوعبت عقولهم الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فليس هو بكتاب فلسفة يختص بقضايا «ما وراء الطبيعة» وبراهين وجود الله تعالى وصفاته. ولقد انتهينا من هذه في كتاب «الرفيق الأعلى» فمن شاء فليراجع له «مجمع الأشتات».

ولا هو بكتاب يضيّع الجهد والوقت بتفصيلات ما قيل في كون ألفاظ التصوف والصوفي والمتصوف مشتقة من الوصف أو الصفو أو الصفاء في أصلها. لقد كفانا المشقة في هذه أن قواعد الاشتقاق اللغوي تأباها ولا تساعد عليها. وأبعد من هذه عن الصواب ما قيل في استعارتها من لفظة «سوفي» الأوروبية، إذ أن حقائق التصوف الإسلامي ومصادره وتأريخ تطوره وتأريخ رجاله ـ كل ذلك يأبى وينقض هذه القيلة.

وإنما نحن معنيون في هذا الكتاب بحقائق أعمال الروح في الإسلام،

فينبغي ألا تضلّل بنا تلكم الأقاويل وتبعدنا عن غايتنا.

فيكفينا هنا في شأن «التصوف» و «الصوفي» العلم بأن الكلمتين (اشتقاق فعل للأولى ونسبة للثانية) هما من الصوف الذي يغزل وينسج منه الملابس؛ وأن الزهاد من سلف المسلمين فضلوا ألبسة الصوف على ألبسة الحرير والكتان والقطن لما كان من غلاء أثمان الأخيرين ولكون الحرير محرماً على الرجال لباسه؛ وأن لقب «صوفي» و «متصوف» (ومن ثم «التصوف») إنما ابتدعهما أعداء الزهاد وخصومهم من المبتدعة قدحاً فيهم لا مدحاً، واستصغاراً لشأنهم لا تكريماً، فذهبت هذه الكلمات على الألسن في القرن الهجري الثاني فاستعملها الزهاد أنفسهم مترفعين غير عابئين بما عيب عليهم من لبس الصوف؛ وأن المؤمنين الذين كانوا يزهدون في متاع الحياة الدنيا ويستعدون لدار القرار إنما عرفوا خلال القرن الهجري الأول باسم «الزاهد» الوارد في القرآن المجيد بمعنى المعرض عما يزهد فيه.

وليس هذا الكتاب مخصوصاً بالزهد والزهاد لنقول فيهما هٰهنا في المقدمة أكثر مما قلنا. فنحن معنيون فيه بالعمل الروحي في الإسلام، وهذا العمل يعم الزهاد وغير الزهاد من عباد الله المؤمنين.

فاعلم أن العمل الروحي في الإسلام معتمد على أربعة أركان راسخة واضحة هي التالية ذكراً: ـ

الركن الأول: الاعتصام بالشريعة الغراء.

الركن الثاني: العلم النافع.

الركن الثالث: الجهاد في سبيل الله تعالى.

الركن الرابع: العمل الصالح.

وحول هذه الأركان تدور جملة ما بين دفتي الكتاب الذي بين يديك. فهو مقسم على الأربعة الأركان، وكل ركن على فصول، والفصول تتلاحق في تسلسل غير منقطع إلى آخر الكتاب.

والاعتصام فيه بالقرآن المجيد والسنة السنية لاستنباط الأحكام. وما أكثر ما اشتمل النص الواحد منهما على عدد من أحكام الشريعة. فآثرنا تكرار النص من القرآن عند الاقتضاء، ترجيحاً لراحة القارىء المجدّ على تعب مراحه في الفصول بين ما مرّ وما سيأتي. أما السنة فيروى نصها بتمامه سنداً ومتناً في موضع واحد، ويكتفى عند تعدد الاستدلال بها بتكرار المتن وحده أو جزء منه أو بمجرد الإشارة إليه حسب اقتضاء الاستنباط في ثنايا الكتاب.

فأسأل اللّه البرّ الرّحيم أن ينفع به المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وأن يجعله من الباقيات الصالحات.

بغداد ـ حي الجامعة: ٢١ ربيع الأول ١٤١٣هـ.

الركن الأول

«الاعتصام بالشريعة الغراء»

الفصل الأول: آساس الاعتقاد.

الفصل الثاني: النبوة والرسالة.

الفصل الثالث: الروح وقواه وخلوده.

الفصل الرابع: الالتزام بالأحكام.

الفصل الأول
اساس الاعتقاد

ما دمنا نتكلم في عمل الإسلام الروحي فإن ما ينبغي أن ننتبه إليه على البداهة أن هذا العمل لا بد أن يكون من الإسلام لا غريباً عنه متصلاً به لا منفصلا عنه موافقاً له لا مناقضاً ولا معارضاً. فإذا كان عمل روحاني مناقضاً لأحكام الإسلام أو معارضاً أو مختلفاً عنه فهو لا محالة غير إسلامي وإن اعتبر عملاً روحانياً.

وكما وجد في الناس قبل ظهور الإسلام أديان وشرائع فكذلك وجد فيهم العمل الروحاني. ثم ظهر الإسلام فعّمنا ديناً وقانوناً وعملاً روحانياً ومنهاجاً للحياة الدنيا وللحياة الآخرة. فلأجل أن نحسن فهم العمل الروحي في الإسلام ينبغي أن نفهم بادئاً ما هو الإسلام وما هي مقوماته، لننتقل من هذا الفهم إلى ما هو من الإسلام عمل روحاني.

مقومات الإسلام هي الشريعة الغراء. فهذه جملة وتفصيلاً هي الإسلام بعينه، والإسلام هو الشريعة بعينها. فيكاد اللفظان أن يكونا مترادفين. وإنما نقول «يكاد» لأن كلاً منهما له مفهومه في اللغة، لكن مدلولات كل واحد منهما هي عين مدلولات الآخر. فالشرع والإسلام شيء واحد.

وللشريعة الغراء خصائص يهمنا منها الآن ثنتان هما فيصل التمييز بينها وبين ما سواها من الشرائع .

إحـداهما: العموم والشمول: فأحكام هذه الشريعة تستغرق شؤون الإنسان كلها الفردية والجماعية، الدنيوية والأخروية، وتبدأ مع الإنسان مذ هو جنين إلى أن يبارح الدنيا، وتمتد إلى حياته الأخروية منذ حياته الدنيوية، فهي عامة للناس جميعاً، شاملة أحوالهم جمعاء .

والأخـرى: التجـدد الذاتي: فإن لها مدارك أحكام منوعة ترجع إلى القرآن المجيد والسنة السَّنية، وتعمل في الوقت نفسه كمولدات أحكام داخل الشـريعة ذاتها فتمدها بأحكام جديدة لكل الوقائع المستجدة في كل زمان ومكان. فهي بذلك شريعة صالحة خالدة .

ولعلنـا أدركنا الآن أن الشريعة الغراء مشتملة على أسس العقيدة من الإسلام اشتمالها على أحكامه القانونية. فلننظر إلى هذه الأسس التي يصبح الإنسان باعتناقها مسلماً، ولنوجزها هنا إيجاز اختزال. هي أن يشهد: ـ

١ ـ أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، الحي القيوم العالم القادر الخـالق السميع البصير المريد المتكلم المحيي المميت، بديع السماوات والأرضين بعد عدم محض، ليس كمثله شيء لا ذاتياً ولا صفة ولا فعلاً .

٢ ـ وأن محمداً رسول الله خاتم النبيين نزل إليه الروح الأمين برسالة رب العالمين إلى الناس أجمعين ـ ومعجزته القرآن المبين .

٣ ـ وأن البعث والحســاب، والنعيم والعقـاب، وخلود الـروح بعـد الممات، والقدر خيره وشرّه، والملائكة والإسراء والمعراج، كل أولئك حق .

٤ ـ وأن الإسلام الذي أكمله اللّه تعالى وارتضاه موجَّه إلى العالمين كافة، وشريعته ملزمة، وأنها واجبة التطبيق في دار الإسلام.

٥ ـ وأن الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد فرائض واجبة الأداء.

تلك هي أساس العقيدة في الإسلام، فأين هو العمل الروحي المتصل بهذه الآساس؟ الفقرات الخمس التي وضعناها أمامك تستطيع أنت أن تقرأها بناظريك وأن تتلوها بصوتك. ومهما قرأتها أو تلوتها فقد قمت بأعمال تارة بعينيك عند القراءة، وأخرى بعضلات جهازك الصوتي وأوتاره حين التلاوة. لكن هذه الأعمال إنما هي مادية جسمانية. فما لم تقترن عندك باليقين القاطع والإيمان بأن معاني هذه الفقرات هي الحق الصدق اليقين فإنك لن تصبح مسلماً. ألا ترى أن الكافر بدين الإسلام يستطيع كما استطعت أن يقرأ الفقرات ويتلوها. فإذا أردفت تلكم الأعمال المادية العضلية بإيمانك وتصديقك، وهذا إنما هو عمل روحي، فقد غدوت مسلماً مؤمناً بأساس العقيدة في الإسلام.

أما إذا تلا زيد من الناس تلكم الفقرات كلها، وقال إنه مؤمن بها مصدق إياها حق التصديق والإيمان، لكنه إنما كان كاذباً في قوله غير محصّل الجانب الروحي من عمله، فإنه لا يصبح بذلك مسلماً بل يمسي منافقاً. ففقدان العمل الروحي هنا أكسبه النفاق، ولم يغنه العمل العضلي بالإيمان في هذا الأمر. وهكذا كان شأن المنافقين في عصر رسول الله ﷺ. «**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . . .**» (المائدة: ٤١).

وإليك صورة أخرى موضحة. خذ أنت أيها المسلم المؤمن آلة لتسجيل

الصوت، واتل فقرات العقيدة المتقدمة كلها، ثم دع الآلة تعيد إلى المسامع صوتك. ففي حالك وأنت تتلو كانت تلاوتك مقرونة بعملك الروحي وهو الإيمان والتصديق. وفي حال الآلة وهي تعيد أصواتك المسجلة ليس يوجد أي شيء من ذلك العمل الروحي. فالآلة عاطلة عن الروح، قائمة بعمل فيزيائي غير روحي وغير إرادي. فأنت وحدك الذي نهضت باليقين وبالإرادة - وكلاهما من أعمال الروح. وستوافيك الفصول التالية بصنوف من أعماله.

ولعلك انتبهت مما تقدم إلى الصلة بين الإيمان والإرادة. الإيمان عمل إرادي روحي. فإذا علمت آساس العقيدة ووجهت إرادتك إلى التصديق بما تعلم وفقك اللّه سبحانه إلى الإيمان بما تعلم. وإذا علمتها علماً تاماً وأعرضت عن التصديق بما تعلم على الرغم من تمام علمك وفقك اللّه تعالى إلى ما أردته. اللّه - جل جلاله - هوالغني، يوفق أعداءه كما يوفق أولياءه. و «**قد تبين الرشد من الغيّ**». «**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**».

وكم من «مستشرق» في مغرب الأرض درس علوم الإسلام وسيرة خاتم النبيين واستحصل العلم التام بأنه نبي مرسل موحى إليه وصرح بذلك، لكنه مع هذا كله ظل يصرف إرادته عن الإسلام والإيمان فمكث على دينه مناقضاً الإسلام والعلم الذي استحصله، بل عادى الإسلام والمسلمين.

فهذا رينولد نكلسن (١٨٦٨ - ١٩٤٥م) من مرموقي المستشرقين يقول في كتابه «ألتررى هيستوري أوف ذ أرابس» (ص١٧٩):

«وأكثر من أيّ رجل ممن مضوا، استطاع محمد أن يرتب مستقبل أمته؛ فعلى الرغم من أنهم ابتعدوا عن زمانه كلما مضوا في درب الحضارة، فإنهم ظلوا يتوجهون إليه وراءهم للهداية والحكم عند كل خطوة. وليس هذا هو

المكان الملائم لمحاولة تقييم شخصيته، هذه التي تعارضت فيها التقديرات. أما أنا فأجدني مقتنعاً بأنه لم يكن [كما قيل] رجلاً أفاكاً، ولا شاذاً مختل الأعصاب، ولا مصلحاً اجتماعياً، بل كان منذ البداية على أيّ حال صاحب دين متحمساً مخلصاً موحى إليه وحياً صادقاً صدق كل أنبياء العهد القديم».

إذن فهذا ما اقتنع به نكلسن وخالف به الأكثرين من إخوانه المستشرقين الذين خانوا التأريخ والعقل والعلم والضمير بما افتروا به على خاتم النبيين. إنه قد عده نبياً صادقاً صدق كل أنبياء «العهد القديم» (أي القسم الأول من كتاب النصارى المقدس)، وهو على الرغم من هذه القناعة العلمية لم يتوجه صوب الإيمان بهذا النبي الصادق واتّباعه. فأمر الإيمان مرتبط بإرادة الإنسان. ومثلما يتأتّى الزندقة أو الإيمان مع الجهل يتأتّى الإيمان أو الزندقة مع العلم ـ وأحياناً مع علم غزير.

وهذا في المسلمين كما في غير المسلمين. فلنتذكر هنا ما اشتهر عن العلامة ابن الراوندي من اعتراضات تتباين مع صفو الإيمان بصفات اللّه التامات وأقداره وعدله المطلق. يروى أنه لم ير العدالة في فقره المدقع مع فيض علمه والغنى الفائض عند بعض الجهلة جهلاً شائناً، وأنه عبّر عن حاله بقوله:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه
وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً
هذا الذي ترك الأوهام حائرة
وصيّر العالم النحرير زنديقاً.

وفي المسلمين علماء من طراز آخر. حدثني مصطفى بن أبي بكر بن

محمد الهرشمي ـ هو شيخي وأستاذي ووالدي طيّب اللّه ذكره وثراه ـ: أنه كان في مدينة كركوك عالم جليل مدقع الفقر اسمه ولقبه الأستاذ محمود المزناوي. وأنه يوم شتاء بارد مطير، وإذ هو مهموم لعجزه عن دفع البدل الشهري لإجارة مسكنه البائس، مرّ في طريقه إلى مسجده ومدرسته قريباً من قصر منيف لرجل مشتهر بالفسق والفجور يدعى «حَماوْ». فلما صار قبالة القصر المنيف عرضت على قلبه خاطرة مقارنةٍ بين بؤسه في مسكنه وبين قصر الرجل الفاجر؛ وما إن مرت الخاطرة في لبه حتى سمع صوتاً يأتيه من الفضاء مسمعاً يقول: «يا محمود هل تريد أن نعطيك قصراً ونصيّرك مثل حماو؟!» فما لبث الأستاذ أن ارتجّ عليه وسقط على الأرض في دربه الموحل وهو يصيح: «لا أريد القصر ولا حماو... لا أريد القصر ولا حماو...» فهرع الناس إليه من حوله ونقلوه إلى المسجد وهو لا يلوي على شيء. وإنما الصوت صدى قلبه المؤمن الطاهر الذاكر.

هذا هو صفاء الروح وإيمانه الكامل عند المزناوي. وقد أسلفنا لك مقال ابن الراوندي ومقال نكلسن. الثلاثة هم من كبار العلماء الذين ارتادوا علوم الإسلام وتأريخه، وشتان ما بينهم في عمل الروح ونقائه من الكدورات وتوجهه إلى بديع السماوات والأرض خالق الحياة الدنيا الفانية والحياة العليا الباقية.

كل علم تتصف به فهو من إدراك روحك بقطع النظر عن المصدر الذي تتلقاه منه. لكن إرادتك، وهي أيضاً من خصائص روحك، هي التي تصرفك إلى الإيمان أو عن الإيمان. فالإيمان عمل روحي إرادي ـ كما أسلفنا ـ وهو قابل لأن يضعف ويقوى ويفسد ويصلح ويزول وينشأ ـ وإن كان للفظة الإيمان

في شائع اللغة مزيد اختصاص بوجود معناها، وللكفر مزيد اختصاص بعدم الإيمان.

وما استشهادنا التصويري بمقال نكلسن لأنه كان مستشرقاً، بل لأنه كان غير مسلم. أما المستشرقون فهم في عامتهم ضعفاء العلم والدراية في موضوعات اختصاصهم (إلا الفهرسة فإنهم يجيدونها). والذي يعرفونه تراهم يشوهونه وينحون به غير مناحيه الصحيحة. يصنعون ذلك خدمة للاستعمار المقصود من الحضارة الأوروبية الحديثة، وانسياقاً مع خاصة الدجل التي تتميز بها هذه الحضارة. فأما المسلمون الممزقون في أوطانهم فهم سادرون. لكن هذه الصفحات ليست المكان الملائم للخوض في هذه الشؤون، فمن أرادها فليرجع إلى كتابنا «الحرية الجامعية».

ولقد اخترنا العلماء الثلاثة، ولنا ممن سواهم أيضاً شواهد حال، لتوزعهم في الزمان والانتماء الحضاري وتفرقهم بين الهدى والضلال. فالأستاذان المزناوي ونكلسن هما من علماء العصر الحديث، القرن الهجري الرابع عشر. لكنهما منتميان إلى حضارتين مختلفتين - أولهما إلى الحضارة الإسلامية المنحسرة اليوم، والثاني إلى الحضارة الأوروبية المسيطرة. وابن الراوندي متباين معهما زماناً (فهو من علماء القرن الهجري الثالث) لكنه متفق مع أولهما في الانتماء الحضاري (لاستظلاله بأولى الحضارتين) مختلف عنه في اختيار الهدى، ومختلف مع الثاني في الانتماء الحضاري متفق معه بعض الشيء في الابتعاد عن الهدى. والمزناوي (المتوفى حوالي سنة ١٣٥٣هـ) وابن الراوندي متفاوتان زماناً وإيماناً.

ولا تظن - أيها الرفيق القارىء - أني رويت لك ما رويت من أقوال

العلمـاء الثلاثة وأحوالهم على أنها أدلة لما أسلفت من آساس العقيدة في الإسـلام. حاش من ذلك منهجنا في هذا الكتاب المشتمل على أحكام من الشريعة الغراء. حكم الشرع إنما يثبت بأدلة الشرع لا بمجرد أقوال. ومدارك الشريعة وأصولها هي الموارد والمصادر لما نستنبطه في الكتاب. وسترى بعد قليل المدارك الجليلة التي منها استنبطنا آساس عقيدة الإسلام التي عرضناها عليك في أوائل الفصل.

وإذا كنت ممن يريدون الأدلة العقلية المحض فعليك بالأول من كتب «مجمع الأشتات».

فأما التي رويناها من الأحوال والأقوال فعلى أنها صور توضيحية تيسر فهم معاني الكفر والإيمان والإرادة وكون هذه من أعمال الروح. فالإيمان من أعمال القلوب، والكفر أيضاً من أعمال القلوب، والقلب إنما هو اللطيفة من قوى الروح ذكرها رب العالمين بقوله جلّ شأنه: «. . . **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**» (الحج: ٤٦).

وإليك الآن مدارك الأحكام لآساس عقيدة الإسلام بفقراتها الخمس:ـ

ـ «**اللّه لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السمٰوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيّه السمٰوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العليّ العظيم**».

(البقرة: **٢٥٥**).

ـ «**شهد اللّه أنه لا إله إلّا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط**

لا إله إلّا هو العزيز الحكيم».

(آل عمران: ١٨)

- «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

(الشورى: ١١).

- «بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون».

(البقرة: ١١٧).

- «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين».

(الأنعام: ٥٩).

- «وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين».

(النمل: ٧٥).

- «وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين».

(يونس: ٦١)

- «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إنّ ذلك على اللّه يسير».

(الحديد: ٢٢).

ـ «. . . وخلق كل شيء فقدره تقديرا» .

(الفرقان : ٢) .

ـ «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحيوٰة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور» .

(الملك: ١ ـ ٢) .

ـ «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم اللّهُ ورفع بعضهم درجات . . .» .

(البقرة: ٢٥٣) .

ـ «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النبيين وكان اللّه بكل شيء عليماً» .

(الأحزاب: ٤٠) .

ـ والنجم إذا هوى . ما ضلّ صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى» .

(النجم: ١ ـ ٥) .

ـ «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً . . .» .

(سبأ: ٢٨) .

ـ «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» .

(البقرة: ٢٨٥) .

- «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين».

(آل عمران: ٨٥).

- «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن اللّه سميع بصير».

(لقمان: ٢٨).

- «الذين كفروا وصدوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم. ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب اللّه للناس أمثالهم».

(محمد: ١ - ٣).

- «... ومن يكفر باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلاً ضلالاً بعيداً».

(النساء: ١٣٦).

- «فلا تحسبنّ اللّه مخلف وعده رسله إن اللّه عزيز ذو انتقام. يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات وبرزوا للّه الواحد القهار».

(إبراهيم: ٤٧ - ٤٨).

- «يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار. من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو

أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب».

(غافر: ٣٩ ـ ٤٠).

ـ «للّه ما في السمٰوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به اللّه فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير».

(البقرة: ٢٨٤).

ـ «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً. الـذي له ملك السمٰوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً».

(الفرقان: ١ ـ ٢).

ـ «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً».

(الإسراء: ٨٨).

ـ «سبحان الـذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الـذي باركنا حولـه لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير».

(الإسراء: ١).

ـ «ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما

طغى».

(النجم: ١٣ ـ ١٧)

ـ «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة...».

(البقرة: ١١٠).

ـ «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه...».

(البقرة: ١٨٥)

ـ «... ولله على الناس حِجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً...».

(آل عمران: ٩٧)

ـ «وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولٰيكم فنعم المولى ونعم النصير».

(الحج: ٧٨).

ـ «أم حسب الذين اجترحوا السيئآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون. وخلق الله السمٰوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون».

(الجاثية: ٢١ ـ ٢٢).

ـ **«ومـا هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون»**.

(العنكبوت : ٦٤).

هذه هي آسـاس العقيدة في الإسلام وأصولها ومداركها في الشريعة الغراء. وسنبحث في الفصل التالي رسالة الإسلام واختتام النبوة والرسالات.

الفصل الثاني
النبوة والرسالة

اهتدينا مما تقدم إلى أن الإيمان هو في جوهره عمل روحاني صرف، وإلى معرفة الأسس التي يتعلق بها الإيمان في الإسلام. ولنهتد في هذا الفصل إلى العلاقة بين الإنسان وبين ربنا بديع السماوات والأرضين، أي بين الخالق والمخلوق، فنسأل: ما هو السر الأعظم وراء هذا الخلق البديع العجيب الغريب؟ ماذا يريد منا ربنا نحن معاشر بني البشر؟ وما هو الطريق إلى معرفة ما يريد؟ وكيف السبيل إلى ذلك كله؟ وأنا أبدأ معك ـ أيها الرفيق القارىء ـ من السؤال الثاني. حتى إذا توضحت لنا أجوبة الأسئلة الثلاثة الأخيرة سهل علينا الفهم لجواب السر الأعظم في الخلق والإبداع ـ إبداع العالم بأسره.

فلأجل أن نعلم الذي يريد ربنا منا على وجه الإجمال، لنقرأ من كتاب الله المنزل على خاتم النبيين الآيات التاليات: ـ

ـ «**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه. . .**».

(الإسراء: ٢٣).

ـ «**قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون**».

(الزمر: ٦٤).

ـ «قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون» .

(الكافرون : ١ ـ ٢) .

ـ «وما ليَ لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون» .

(يسٓ : ٢٢) .

ـ «قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون اللّه لمّا جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين» .

(غافر: ٦٦) .

ـ «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» .

(الذاريات : ٥٦) .

ـ «وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم» .

(يسٓ : ٦١) .

ـ «إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» .

(الزخرف : ٦٤) .

فنحن معاشر المؤمنين آمنا باللّه وملائكته وكتبه ورسله ، ومقتضى هذا الإيمان أن نعبده دون ما سواه . وقد تبيّن لنا من الآيات المتلوات أن العبادة هي المرادة لربنا . بل الآية السادسة هنا صريحة في أن الله جل شأنه إنما خلقنا لنعبده . فما هي العبادة؟ وكيف نصل إلى معرفتها؟

نحن في عصر ضعفت فيه الثقافة الإسلامية عند كثير من المسلمين بسبب انجرافهم وراء تيار الحضارة الأوروبية الكافرة . فإن أخص خصائص الحضارة الإسلامية أنها حضارة إيمان . وإن أخص خصائص الحضارة

الأوروبية أنها حضارة وثنيةٍ في قديمها، وكفرٍ وابتعادٍ عن الهدى في حديثها. وأيّتهما اختار الفتى أصاب من خصائص ما اختار شيئاً. وإن من آثار ضعف الثقافة الإسلامية عند المسلمين عدم فهمهم معنى كلمة «العبادة» وعدم استيعابهم سعة نطاقها. أجل، يفهمون من «العبادة» أنها الإنصراف إلى الصلاة والصيام، والركون إلى مسجد أو «زاوية» أو «تكية»، والاعتزال عن شؤون الحياة الأخرى - اللّهم إلا المواظبة على حضور مجالس الفاتحة وما تستتبعة هذه المجالس التي لا يحسنون معرفة حكمها الشرعي. والذين يفهمون العبادة على هذا النحو منقسمون إلى فريقين: فريق يستكره منها ما عدا المجالس، غير راغب في مثل ذلك الانعزال والاعتزال؛ وفريق يستطيبها تاركا وراءه الكثير من واجبات العبادة غير عابىء بها أو غير مثقف بثقافتها - وإن كان بعض ما ترك واجباً وجوب الصلاة والصيام.

إذن فلنفهم «العبادة» فهماً صحيحاً مستحصلاً من الإسلام لا مما عدا الإسلام. عرفنا من الفصل السابق أن الشريعة الغراء هي الوعاء الكامل لأحكام الإسلام، وأن هذه الشريعة تتصف بخاصتي العموم والشمول، فتدور أحكامها في شؤون الإنسان والمجتمع كلها - لا فرق في ذلك بين الصلاة والبيع والرهن والإجارة والتجارة. هذه الأحكام منها: الآمرة تنشىء الوجوب، والمحبذة تنشىء الندب؛ ومنها الناهية تورث الحرمة، والمستكرهة تورث الكراهة؛ ومنها المبيحة تجعل بين جانبي الإقبال والامتناع مجال اختيار فسيح للإنسان. وهذه الأنواع من الأحكام تدور في أبواب الشريعة جميها - أي في جميع أنحاء الإسلام. وعبادة الله إنما هي إطاعة أحكامه في جميع القضايا التي يمتد إليها الإسلام. فلأن نقصر مفهوم العبادة على بعض

صنوفها دون بعض فذلك أمر مخالف للشريعة متعارض مع أصل اختصاصها بخاصة الشمول التي بيناها آنفاً.

وهنا يظهر جانب العمل الروحي المتعلق بالشريعة الغراء. فالمؤمن حق الإيمان تتوجه إرادته إلى الاعتقاد بوجوب تطبيق الأحكام جميعها والالتزام بها، لأنه قد آمن بالإسلام كله، وليس ببعضه دون بعض. والإرادة والاعتقاد والإيمان من جملة أعمال القلوب، كما رأينا في الفصل السابق. فأما حال الذهاب إلى الالتزام ببعض هذه الأحكام والعزوف عن بعضها فهي التي ينطبق عليها قول رب العزة لرسوله:

- «**وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل اللّه إليك فإن تولّوا فاعلم أنما يريد اللّه أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون**».

(المائدة: ٤٩).

أجل، قد لا يأتي زيد من الناس صنوفاً من الأعمال طوال حياته فلا تنطبق في حاله جملة من أحكام الشريعة. مثاله ألا يودع ولا يستودع مالاً، فلا تشمله أحكام الوديعة. وقد ينتهي إنسان مؤمن من صنوف أعماله في حياته وتدركه الشيخوخة فيصرف أوقاته في ملازمة المسجد والانشغال بالصلاة وقراءة القرآن وما إلى ذلك من الأعمال الحسنة في حقه. لكن هاتان الحالان شيء، والتّولي عن بعض أحكام الشريعة شيء آخر. فالتولي عن الشريعة الغراء إن كان مقروناً عند صاحبه بعدم الاعتقاد بلزوم اتباعها، وهذا الاعتقاد السلبي أيضاً من أعمال القلوب، ففي ذلك عين الإنسلاخ من ربقة الإسلام.

ويتضح لك من هذا الاعتقاد السلبي أن أعمال الروح يكون منها ما هو من قبيل الشر مثلما يكون منها ما هو من قبيل الخير. وصارف الإنسان إلى قبيل دون قبيل هو قوة الإرادة ـ وهي للقلب من جملة قوى الـروح. وسيأتيك مزيد علم بقوى الروح في الفصلين الثالث والخامس عشر ـ إن شاء الله جلّ جلاله.

وهنـالـك من التردد بين الخير والشر، بين مقتضى الإيمان ومقتضى فقدان الإيمان، أحوال هي أدهى وأمر. المؤمن يطمئن فور إيمانه. والكافر قد يستقر عند كفره. فأما المؤمن يساق إلى ما يناقض إيمانه فتلك حال شر وبيل. وهي حال المسلمين المؤمنين القاطنين خارج دولة الإسلام اليوم. فلنخصص لتـوضيح هذه الحال أسطراً، ولنستعمل كلمة «الدار» بمعنى «الدولة» لأنها تعنيها أولاً، وثانياً لأنها هي المصطلح العريق لهذا المعنى منذ صدر الإسلام.

قانون الإسلام يقسم الدول من حول الأرض إلى أربعة أصناف على وجه الإجمال: ـ

دار الإسلام: كالدولة الأولى بعد الهجرة.

دار السلم: وهي الدول التي تصالح دار الإسلام فتستديم حال الصلح والسلم.

دار الحرب: وهي الدولة أو الدول التي تحارب الإسلام ودولته.

دار إسلامية: أي تنتسب إلى الإسلام وليست هي بدار الإسلام.

الأولى: هي التي تتألف من الإسلام سدى ولحمة، وتطبق فيها الشريعة

الغـراء تطبيق شمول وعموم بحسب خواص هذه الشريعة ـ ابتداء من نظام الحكم وانتهاء بأبسط عمل من أعمال المسلمين. وهذه غير موجودة على وجه الأرض اليوم.

والثانية: دولة بينها وبين دار الإسلام سلم ومواثيق ومعاهدات. فهي تطبق قوانينهـا في شؤونهـا الـداخلية، وتلتـزم في شؤونها الخارجية بأحكام المعاهدات التي أبرمتها مع دار الإسلام. أو لمّا تبرم بينهما مواثيق، لكنها لا تناصب الإسلام ودار الإسلام عداء.

والثـالثـة: هن اللواتي يبغين العـداوة للإسلام ويحاربنه ديناً وعقيدة وشرعة وحضارة ووجوداً وشعوباً. وهذه كدول الحضارة الأوروبية المعاصرة. والسبب تناقض الحضارتين كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. فالأوروبية حضارة كفر ودجـل. وحضارة الإسلام مبنية على الصدق والإيمان ومساواة الناس. وإنّ تصـارع الحضـارات أمر معروف عند الواعين من بني البشر، مجهول عند المسلمين السادرين المستغلين في بلادهم وأوطانهم.

والـرابعة: هي الدولة التي تكون الكثرة الكاثرة من أبنائها مسلمين، وتكتب في دستـورهـا أن دين الدولة الإسلام، لكن حكومتها تشرع وتطبق قوانين وضعية في كل شيء (ما عدا قليلاً من أمور على سبيل الاستثناء)، وتتبع منهجاً تشبه على نحو أو آخر مناهج الحكم في دول الحضارة الأوروبية. فهذه دولة إسلامية تنتسب إلى الإسلام بكثرة مواطنيها المسلمين أو بسبب من تراثها التأريخي. لكنها ليست بدار الإسلام ـ كما لا يخفى.

وإن من حكـومـات هذا الصنف الـرابع ما تكون صريحة صادقة مع شعـوبها: فتعلن أن دولتها دنيوية تنتهج النظم والقوانين الوضعية، وأن دين

الدولة فقط هو الإسلام.

وإن منها حكومات تختار غاشية النفاق والدجل فتعلن أن دولتها هي دار الإسلام بعينها وأنها تطبق الشريعة الغراء تطبيقاً كاملاً شاملاً، فتظهر حكامها بمظاهر الصلاح والتقوى في بعض الأحوال، وتعلن تنفيذ بعض الحدود وفق الشريعة. فإذا صدفت أنت عن النفاق والغش المعلنين، وتمحصت وقائع الأوضاع والأحوال المتستر عليها، فستجد الشؤون الاقتصادية والمالية والتجارية ماضية وفق النظم والقوانين الأوروبية والأمريكية، وتجد نظام الحكم فيها بعيداً كل البعد عن قوانين الإسلام ومنهاجه، وتنتبه إلى أن الموالاة في الحكم والسياسة إنما هي لدول من دار الحرب لا دار الإسلام، ولا للدول الإسلامية أيضاً.

«أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من اللّه حكماً لقوم يوقنون».

«فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة. فعسى اللّه أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين».

«يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزُواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا اللّه إن كنتم مؤمنين».

(المائدة: ٥٠، ٥٢، ٥٧).

ولعلك تنتبه الآن إلى دولة كتركيا الحديثة نص في دستورها على أن الدولة لا دينية، فتسألني عن صنفها من الصنوف الأربعة. الكثرة الكاثرة من

شعوب تركيا هم من الترك والكرد. والأتراك والأكراد مسلمون، بل هم مسلمون روحاً ولباً. أما الحكومة التركية فإنها كافرة بل مرتدة. فيتسنى اعتبار الجمهورية التركية من الدول الإسلامية رعاية لشعوبها، ويتسنى اعتبارها دار حرب على حد معاداة حكومتها الإسلام. غير أن الإسلام مبني على التسامح والتيسير، فإذا تنازع حكمان شرعيان حادثة واحدة فالأصل في شريعته ترجيح أيسر الحكمين، فنقول بأن تركيا من الدول الإسلامية.

ومن يرد المزيد من العلم بالأوضاع والأحوال التي أحاطت شريعة الإسلام منذ عصرها الأول إلى عصرنا هذا فلا غنى له عن قراءة ما دوّناه في الفصل السادس (ولعله يقرأ الفصل الثالث أيضاً) من كتابنا «الحرية الجامعية».

المهم في ما نحن بصدده أن الشريعة الغراء قد أحاطت حال المسلم المستوطن خارج دار الإسلام بكثير من العطف واللطف والرعاية والتيسير. فهو من الأعمال الاختيارية يختار ما يوافق شريعته الغراء. وفي ما لا اختيار له فيه من الأعمال بمقتضى القوانين الوضعية الآمرة فإنه يتّبعها على أنه مكره وأن شريعته قد أعفته من المسؤولية حالة الإكراه. فقد شرع لنا رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وآله وأصحابه وسلم ـ أن قد «رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

والأهم من ذلك هو العمل الروحاني الذي ينبغي للمسلم ألا يغفل عنه في مثل هذه الأحوال. فهو في أحوال الإكراه يعود إلى قلبه يجدد فيه إيمانه العظيم بشريعته الغراء، ويزجي الشكر والعمار لرب العالمين الذي منحه هذا التيسير وصانه في حال المخالفة من تحمل المسؤولية وعبء الإثم، ويستعيد

في نفسه كراهية ما سيق إليه من اتباع حكم في قانون هو غير قانون الإسلام العظيم. هذه الحركات الوجدانية الجليلة كلها من أعمال القلوب. ولنتذكر هنا قول رسول الله ـ صلى اللّه وسلم عليه وآله وأصحابه ـ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم». وإذا أحببت تخريج الحديث الشريف سنداً ومتناً فاذهب إلى أواخر الفصل الرابعْ عشر من هذا الكتاب ـ النبذة المعنونة بعنوان «السمع والقلب».

الآن علمنا ماذا يريد منا ربنا، بل علمنا أيضاً أن المصدر الأوّل لهذا العلم هو كتابه المبين. فلنستزد علماً في مجال هذه المعرفة. يقول رب العالمين في كتابه المجيد: ـ

ـ «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور».

(الملك: ١ ـ ٢)

هذه فاتحة سورة الملك، وهي موجهة إلينا نحن بني الإنسان توجيهاً مباشراً. اللّه ـ جل جلاله ـ وحده الذي بيده الملك، ملك السماوات والأرضين، وهو الذي خلقنا وخلق لنا الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملاً. وارتباط امتحاننا هذا بخلقنا لغرض العبادة واضح جداً. فهّهنا الخلق والتكليف والاختيار والحساب ثم الجنة أو النار وفق الأعمال. لكنه تعالى بعد ذلك كله عزيز غفور. فأيّ الأعمال هي هذه التي خلقنا ليبلونا منها أيّنا أحسن عملاَ؟.

الجواب هو أن المراد كل عمل تتعلق به أحكام الشريعة الغراء. ذلك لأن الموضوع الكليّ للشريعة إنما هو «عمل المكلف»، ولأن الامتحان

والحساب لا يكونان إلا بعد التكليف: «**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**» (الإسراء: ١٥). وقد مرّ علينا أن الإيمان هو الصرح الذي تستند إليه أعمال الجوارح، وأنه في جوهره عمل روحي محض. ثم إن التكليف والامتحان والحساب كل ذلك لا يتأتّى ما لم يكن للمخلوق إرادة واختيار، وهما من أعمال الروح.

فأما أن لنا نحن معاشر بني الإنسان الإرادة والاختيار والإدراك العقلي فهذا كله بديهي غير محتاج إلى دليل. فأنت إذا أردت تؤمن وإذا أردت تكفر، وإذا أحببت الجلوس تجلس أو المشي تمشي، وهلم جرا في أعمال القلوب وأعمال الجوارح. ألا ترى أنه إذا طرأ عائق يمنعك من الاختيار، كالإكراه أو فقدان العقل، فإن الحكم الشرعي في حقك يتغير أو يرفع التكليف به. فلقوى أرواحنا سيطرة فائقة على عضلاتنا وجوارحنا، وهو ما يعلمه الإنسان في حركاته وسكناته اليومية المتتالية.

هذا هو المقصود من إرسال الرسل الكرام ليحصل البلاغ والتكليف والامتحان فالحساب والكتاب والجزاء والعقاب. وكل ذلك مرتبط بالموت والحياة ـ حياة في الدنيا وحياة في الآخرة. وليس يتصور المؤمن أسلوباً للبلاغ أتم وألطف من أن يرسل إليه رب العالمين إنساناً مثله يبلغه أمر ربه سهلاً ميسوراً مكتوباً في كتاب من رب العالمين. أما الذي لا يريد أن يؤمن فسبيل التحجج مفتوح أمامه وله الاختيار. فلننظر ماذا يقول ربنا في هذا الشأن: ـ

ـ «**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم**».

(التوبة: ١٢٨)

ـ «. . . وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً».

(النساء: ٧٩).

ـ «لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين».

(آل عمران: ١٦٤).

ـ «تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً».

ـ «قل أنزله الذي يعلم السّر في السمٰوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً».

ـ «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً. أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً».

ـ «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً».

ـ «يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجوراً».

ـ «أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً».

(الفرقان: ١، ٦، ٧ ـ ٩، ٢١ ـ ٢٢، ٢٤).

فإذا أحببنا إجمال ما نعيه مما تقدم وجدنا أن التكليف بالعبادة معتمد

على الحياة والعقل والعلم والإرادة. فإن فاقد هذه الحقائق لا تكليف عليه. أما الحياة والعقل فالأمر فيهما واضح. والإرادة المفقودة بالإكراه قد سلف بيانها. والمراد بالعلم هنا حصول البلاغ إلى المكلف بدين الإسلام. فالذي لم يبلغه الإسلام قط فهو غير مكلف باتباع أحكامه. وهٰهنا الحكمة في بعثة الرسل للبلاغ. والحياة والعقل والإرادة والعلم كل هذه من خواص الروح وأعماله، حتى إذا قبض عن الجسد سلبت منه، وهي ذات صلة وطيدة كما رأيت ببلاغ النبي الرسول. فعمل الرسل متصل قبل كل شيء بالروح وأعمال القلوب ـ وصلى اللّه وسلم عليهم وعلى المؤمنين بجميعهم أجمعين.

أظننا الآن ـ أيها الرفيق القارىء ـ قد عرفنا أجوبة الثلاث الأخيرة من مسائلنا المثارة في أوائل هذا الفصل. بقي السؤال الأول الأدق عن السّر الأعظم وراء خلق هذا الكون البديع العجيب. ولجوابه نحتاج إلى مزيد تمهيد.

إعلم أنك وأنت تقرأ هذا الكتاب وتفهمه أنك صاحب استعداد فطري للقراءة والفهم، وإلا لما قرأت ولا فهمت. هذا الاستعداد الفطري يخلق مع الروح، ويتفاوت في الخلق من روح إلى روح. ويبقى كامناً إلى أن يتهيأ له في عالم الأسباب ما يتوقف عليه ظهوره من أسباب. فأنا وأنت ورجل أميّ ما قرأ ولا كتب في يوم من الأيام نتساوى جميعاً في أننا منحنا الاستعداد الفطري للتعلم. لكن الأسباب قد غابت عنه وتجمعت لي ولك. ولربما كان استعداده الفطري الكامن أعظم قوة من استعدادك واستعدادي. فنحن الثلاثة يصح وصفنا بأننا ذوو استعداد للقراءة والكتابة.

لكن انظر إلى الفرق بين وصفنا ووصفه. هو صاحب استعداد الآن في

النظر دون التطبيق، وأنت صاحب استعداد في النظر وفي التطبيق. أنت كاتب قارىء في النظر والتطبيق، وهو كذلك لكن في النظر والاستعداد دون التطبيق. فوصفك أقرب وألطف ووصفه أبعد وأضعف.

إذا استوعبت هذه المعاني فلا تشوّشنّ عليك مصطلحات العلماء إذ تصادفها في كتب. فبعضهم يستعمل بدل النظر والتطبيق الشائعين مصطلحي «في الذهن» و «في الخارج» أي ما في الذهن وما في خارج الذهن، أو «ما في الذهن» و «ما في الواقع». وآخرون يفضلون مصطلحي «بالقوة» و «بالفعل» للمعنيين كليهما. فأنت على هذا النحو قارىء كاتب في النظر والتطبيق وفي الذهن والخارج وبالقوة وبالفعل. وصاحبنا الأميّ قارىء كاتب في النظر دون التطبيق وفي الذهن لا في الواقع وبالقوة لا بالفعل.

ولننتبه إلى أننا إنما خضنا في هذه المعاني والإدراكات الروحية لغرض التوصل إلى ما تساءلنا عنه من سرّ خلق الله تبارك وتعالى هذا الكون العجيب. وهذا الانتباه ينبغي أن يدفعنا إلى انتباه أقوى وألطف: لقد تكلمنا في الفرق بين تحقق صفاتنا نحن بني الإنسان بالقوة أو بالفعل؛ وسنتكلم هَهنا في صفة من صفات الله سبحانه لنصل إلى تصوّر لسرّ الخلق؛ ولسنا نملك في هذا المجال غير علمنا القاصر ولغتنا القاصرة؛ فكل ما نقوله في صفات البارىء مبني على التقريب للفهم مع العجز والقصور، وليس على التشبيه أو المماثلة. فاللّه ـ جل جلاله وعمّ نواله ـ قدوس منزه تنزيهاً تاماً ليس كمثله شيء لا ذاتاً ولا صفة ولا فعلاً ـ كما علمنا ذلك وآمنا به على النحو المذكور في الفصل الأول. وإذا أردت مزيداً من العلم بتنزيه صفات الباري وأسمائه الحسنى الوصفية فلك الرجوع إلى كتابنا «المقتضب في علم الوضع» وهو من

كتب «مجمع الأشتات» المذكور أنفاً. فلنقتصر على ما يتصل بمقصدنا هنا.

نعلم أن صفات الباريء تعالى كلها سرمدية أي أزلية أبدية. فلنتعبّد هنا بذكر صفة من صفاته في اسم من أسمائه الحسنى الوصفية هو اسم «الخالق». هو الخالق قبل أن يخلق الكون العجيب، وهو الخالق بعد أن خلق الكون العجيب. ووصف الخالقية قبل الخلق هو في إدراكنا من قبيل معنى «الخالق القادر على أن يخلق». ووصف الخالقية بعد الخلق هو في إدراكنا من قبيل معنى «الخالق قد خلق». وفي المعنيين نوع مشابهة مع الوصف في حقنا على مفهوم الاتصاف بالقوة والاتصاف بالفعل. وأسماء اللّه وصفاته سبحانه تامات كلها كاملات من جميع الوجوه بالإضافة له جل جلاله وبالنسبة إلينا وللكون كله. فاقتضى التمام والكمال في صفة «الخالق» أن يكون «قد خلَق»، فوجد الكون مخلوقاً موجوداً متطوراً.

ولأصحاب بصيرة الروح القوية إدراك لهذا الموضوع ذاته على نحو آخر هو أقرب إلى المشاهدة القلبية منه إلى ترتيب المقدمات والنتائج كما صنعنا نحن. فقد حدثني مصطفى بن أبي بكر بن محمد الهرشمي (هو شيخي وأستاذي ووالدي ـ أسكنه اللّه بلطفه الفردوس الأعلى وجزاه عني وعن كثير من المؤمنين خيراً) أن اللّه سبحانه وتعالى إذا اقتضت مشيئته خلق شيء تجلى بصفته المناسبة لذلك الشيء فيكون الشيء مخلوقاً فور التجلي.

ولننظر في مقال الشيخ الهمام إلى جانب انطباقه مع الشريعة الغراء لنملك ناصية الأخذ به من عدمه. قال ربّ العزة في آية الكرسي: «... **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**...» وتفسيره أن العلم كله للّه الحي القيوم، وأن علمنا من منحه وخلقه وأننا لا نحيط بشيء منه إلا بمشيئته وأننا إذا

شاء هو أحطنا بشيء من هذا الكل الذي هو له ـ جلّ جلاله. وقال تعالى جواباً لطلب سيدنا موسى الكليم ـ على خاتم النبيين وعليه أفضل الصلاة والتسليم ـ: «... **لن تراني. ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً**...» (الأعراف: ١٤٣). إذن فقد حصل الدك بالتجلي، والعلم كالدك يحصل بمشيئة اللّه جلت قدرته. فتارة ذكرت المشيئة وتارة ذكر الدك على الاكتفاء في المرتين، فالحكم المستنبط من الآيتين أن الرّب متى شاء تجلّى فتحقق ما أراد إيجاداً أو إعداماً. «**وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر**» (القمر: ٥٠). فإذا تجلى بصفة «العليم» وجد العلم حيث أراد، وإذا تجلّى بصفة «الماحي» حصل المحو حيث أراد ـ كحصول الدك الذي جعل النبي موسى يخرّ صعقاً ثم يستغفر اللّه العظيم حين أفاق. فبصيرة شيخنا في الأمر حق وكلامه حق بحكم مطابقتهما الشريعة الغراء، و«**يخلق اللّه ما يشاء إن اللّه على كل شيء قدير**» (النور: ٤٥).

في هذه الصورة لخلق العالم التي استنبطناها لك تجد الباريء العظيم السرمدي، وتجد صفة «الخالق» الذي اقتضى كماله الخلق بالفعل كما ندركه، وتجد الكون المخلوق الحادث، وتجد معرفتنا نحن معاشر بني الإنسان المتصلة بالمخلوق وبالخالق وبصفة الخالق وكمالها المقتضي الخلق والإيجاد. فنحسن الآن فهم التوكيد والمتابعة في القرآن المجيد لاستدلال الفكر إلى الصانع العظيم من الصنيع البديع في عالم من الكيمياء والفيزياء ومظاهر الطبيعة. لقد صيرّنا نعرفه بقوة عقلنا من جملة قوى روحنا الذي أكرمنا به الخلاق العظيم ـ جل جلاله وعمّ نواله. وهكذا ـ أيها الرفيق

الإنسان ـ جعل الله سبحانه للإنسان منزلة عليّة في مجمل السر المطوي في إبداعه الكون العجيب: «**ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**». (الإسراء: ٧٠). فهلاّ وعينا أنا وأنت المكرمة العلية، فأخذ بنا الحياء والخجل من تقصيرنا إلى التوبة من ذنوبنا والإنابة إلى ربنا وعبادته عن حبّ وإخلاص.

للّه في الكون خلق كثير لا نحصيهم. والملائكة والإنس والجن أنواع منحهم الباري أرواحاً عاقلة لها قوى العلم والإرادة والاختيار. فاقتضت الإرادة والاختيار التكليف. واقتضى التكليف البلاغ وارسال الرسل الكرام، فتعاقبوا في سلسلة مباركة ـ حتى اختتمت الرسالات واختتم المرسلون بدرّة صدفة الوجود صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود سيّد الأولين والآخرين الذي عبد ربه حتى أتاه اليقين محمد المصطفى الأمين: و«**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النبيين وكان اللّه بكل شيء عليماً**». (الأحزاب: ٤٠). اللّهم صلّ وسلّم عليهم أجمعين وعلى المهتدين بهدي خاتم النبيين إلى يوم الجزاء والدين.

تلك هي صورة الرسالة والنبوة والنبيين. أفلا يحق علينا الآن أن نخصص بضع صفحات لوصف خاتم الأنبياء والمرسلين باستجلاء منزلته وجاهه عند رب العالمين. وفي هذا يلزمنا أول ما يلزم أن نعرف معنى «الجاه»، لنمضي بعد ذلك على هدى وانتباه.

«الجاه» في اللغة معناه القدر والمنزلة والشرف. ومثله «الوجه» من جملة معانيه. ومن الوجه اشتق «الوجيه» بمعنى ذي الجاه أي: ذي القدر والمنزلة والشرف. وتدلنا أوجه اشتقاق الثلاثي والمزيد من اللفظين إلى أنهما في

الكلام العربي لفظ واحد أصله «وجه» فصار منه «جاه» بقلب المكان . فالمعلوم في «علم الصرف» أن «معتلّ الفاء» بالواو أو الياء قد يحصل فيه «قلب مكان» مع «العين» أو «الـلام» . وهٰهنا حصل القلب مع «العين» فانقلب «وجه» إلى «جوه» . عندئذ انطبقت قاعدة قلب الواو الساكنة المفتوح ما قبلها ألفاً ، فصار الجوه جاها . هذا كله من صميم علوم اللغة .

والذي يهمنا الآن اتحاد اللفظين في معنى «القدر والمنزلة والشرف» . وقد كان لخاتم النبيين ـ صلى اللّه وسلم عليه وآله وأصحابه ـ قدر وشرف ومنزلة بين الناس ـ حتى أعدائه الألدّاء . فلننظر هل كان له عند اللّه أيضاً ـ جل جلاله ـ قدر وشرف ومنزلة؟ فلننظر ماذا يقول رب العزة في هذا الشأن ، إذ ليس المجال مجال سفاهة بأهواء النفوس . فاعلم أولاً أن لفظ «الوجيه» هو من ألفاظ القرآن المجيد لعين المعنى الذي ذكرناه آنفاً . قال تعالى : ـ

ـ في شأن نبيه عيسى ابن مريم ، مخاطباً خاتم أنبيائه : «**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يا مريم إن اللّه يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين**» .
(آل عمران : **٤٤ ـ ٤٥**) .

ـ وفي نبيه موسى الكليم ، مخاطباً المؤمنين ، وقاصداً خاتم النبيين للتبليغ : «**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه اللّه مما قالوا وكان عند اللّه وجيهاً**» . (الأحزاب : ٦٩) .

ثم لنعلم أنه لو لم يأتنا القرآن المجيد إلا بهاتين الآيتين المبينتين كان ينبغي على المؤمنين الاستبصار منهما والاكتفاء في تحقق العلم بأن لرسول

الله «الجاه» في الدنيا وفي الآخرة عند رب العالمين. فإذ قد ثبت الجاه لهذين النبيين الكريمين فثبوت الجاه لخاتم النبيين مفهوم من النصّ من باب أولى. وهذا ما سمي في «علم أصول الفقه» «بالقياس الجليّ»، وهو أصل من أصول الشريعة الغراء، بل هو الأصل استعمله رسول الله بادىء دعوته إذ جمع الناس ووقف فيهم على جبل «الصفا» ينادي: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ. قالوا نعم ما جربنا عليك كذباً. قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد...» (راجع «نور اليقين» ص ٤٣). فيجب علينا ـ معاشر المؤمنين ـ ألا نؤذي رسول اللّه بنفي الجاه عنه وقد ثبت للنبي الكليم الذي لو كان حياً لما وسعه إلا اتباع خاتم النبيين ـ وقد نهتنا الآية الكريمة: «**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى...**»؛ ولا فرق بين الانتقاص من قدر رسول اللّه إذ كان في دار الدنيا والانتقاص منه وهو في دار المقامة عند «الرفيق الأعلى». اللهم صل وسلم على الأنبياء والمرسلين وخاتم النبيين وآله وأصحابه ومن والاه إلى يوم الدين.

بيد أن رحمة رب العالمين لم تتركنا عند هذا الحدّ من دلالة النص في الآيتين الكريمتين اللتين تلوناهما. لقد فصّل في آيات كثيرة من القرآن المجيد ما أنعم به على خاتم أنبيائه من عظيم الجاه والقدر والشرف والمنزلة. ولسنا نحصي هذه الأيات كلها في هذه الورقات بين أيدينا، فلنتعبد بذكر ما يتيسر لنا هنا من هذه الآيات:

ـ «**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً**».

(الفتح: ٢٨).

ـ «**لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد**» .

(البلد: ١ ـ ٢) .

ـ «**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**» .

(الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦) .

هذا هو جاهه الذي خصّه به رب العالمين إذ أقامه سراجاً منيراً، وخاتم النبيين أجمعين، ومُظهراً على الدين كله، وإذ جعل الكتاب المنزل إليه مهيمناً بنص قوله تعالى: «**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . . .**» . (المائدة: ٤٨)، فالذين مضوا من قبله لم يكن أحد منهم خاتم النبيين ومظهراً على الدين كله. بل وجد نبيّ ووجد في زمانه نبيّ آخر أيضاً. ويفهم من قوله تعالى: «**ليظهره على الدين كله**» أن كل ما لا يوافق دينه من الشرائع السابقة فهو منسوخ بما شرعه هو لأنه هو المظهر على الدين كله وشريعته هي العامة الشاملة ـ كما أسلفنا.

ولرسول اللّه ـ صلى الله وسلم عليه وعلى إخوانه الأنبياء ـ مقامات أخرى نراها في التاليات من الآيات:

ـ «**إن اللّه وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً**» .

ـ «**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم**» .

إن اللّه ـ جل جلاله ـ هو الذي يصلي على النبي فتصلي عليه ملائكته ويأمرنا بالتعبد بالصلاة عليه. فقد جعل الرب الصلاة على خاتم أنبيائه طاعة

للّه وعبادة ـ كما في الصلوات المكتوبات عند التشهد. وتتوالى الوجاهة التي قدر الله تعالى بلطفه وكرمه لخاتم أنبيائه إلى ما ترى في هذه الآيات البينات من مخاطبة الرب إياه بالثناء عليه ويذم شانئه: ـ

ـ **«وإنك لعلى خلق عظيم»**.

(القلم: ٤).

ـ **«إنا أعطيناك الكوثر... إن شانئك هو الأبتر»**.

(الكوثر: ١، ٣).

فشانىء رسول الله هو الأبتر أينما كان وفي أي عصر من العصور وبأي قبيحة من قبائح الشنآن.

فسبحان الذي خص حبيبه الأمين بمعراج من إخلاص العبودية والجاه والرفعة إلى حضرة قدسه، وخص عباده المؤمنين بالتربية والتعليم بما أوجب عليهم من الأدب والخشوع تجاه من اختاره هو لنعمى حبه وأنسه:

ـ **«يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون»**.

ـ **«إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم»**.

(الحجرات: ٢، ٣).

حدثني عبد اللّه الهريري (هو العالم العامل شيخ سهل هرير والجبال المجاورة، و «الملحوالي» أصلاً، ـ وهذه بقاع من كردستان العراق ـ) في

المقارنة بين الأولى من هتين الآيتين وبين آية قوله تعالى (في الأنعام: ٨٨)«**ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**». فقال: جعل الله تعالى الشرك به محبطاً للعمل وجعل الجهر بالقول لرسول الله محبطاً للعمل، فجعل أقل سوء أدب تجاه رسول الله - ﷺ - بمثابة الشرك في احباط عمل المكلف. هذا ما حدثني به الشيخ رحمه الله وجزاه خيراً. فكيف بمن يتجاسر في مساءة رسول الله حدّ نفي الجاه عنه والكرامة والمنزلة عند ربّه، معارضاً بذلك كل الآيات البينات التي تلوناها آنفاً؟!.

هذا هو الشأو سمى إليه رسول الله - ﷺ - وسمى به. وهو معراج ليس يُرقى عليه بالأيدي والأرجل والعضلات، بل يعرج عليه بقوة الروح والإخلاص والجهاد. وسنتحدث في الفصل التالي في شؤون الروح على وجه العموم، وعلى وجه الخصوص في شأن الروح العظيم الرسول الكريم صاحب الكوثر والشفاعة والجاه والتكريم - عليه وعلى آله وأصحابه والمهتدين بهديه أجمل الصلاة والتسليم.

الفصل الثالث

الروح وقواه وخلوده

لكلمة الروح عدة معان في اللغة. وقد استعملها القرآن المجيد في أربعة معاني متمايزة.

الأول: الكتاب والدين: «**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط اللّه الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض ألا إلى اللّه تصير الأمور**». (الشورى: ٥٢ ـ٥٣). «**رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق. يوم هم بارزون لا يخفى على اللّه منهم شيء لمن الملك اليوم للّه الواحد القهار**». (غافر: ١٥ ـ ١٦).

الثاني: الملك الكريم: «**قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين**». (النحل: ١٠٢). «**وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين**». (الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤).

الثالث: روح الإنسان: «**ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع**

والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون». (السجدة: ٩). «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً». (الإسراء: ٨٥).

الرابع: بصيرة القلب: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون». (المجادلة: ٢٢). «أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور». (الحج: ٤٦). «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين». (الزمر: ٢٢).

ونحن معنيون في هذا الفصل «بالروح» على المعنيين الأخيرين: روح الأنسان، وبصيرة قلبه. وسميت البصيرة نور القلب أيضاً لأنها تعلم جليل العلم والمعارف، والعلم يقال فيه إنه نور. ومن ثَمَّ فُسّر قوله تعالى في الآية المتلوة آنفاً «وأيّدهم بروح منه» أي بنور القلب، (راجع تفسير القاضي البيضاوي للآية أو مطولات التفاسير).

وقد يخطر ببالك هٰهنا أرواح الحيوانات. فاعلم أن مخلوقات الله تبارك وتعالى تنقسم إلى قسمين: مخلوقات ليس لها روح البتة؛ ومخلوقات لها أرواح. والمخلوقات ذوات الأرواح أيضاً تنقسم قسمة ثنائية بحسب أنواع الأرواح وكونها ناطقة أو غريزية. والمراد بالنطق الفكر والذكاء والعقل، وبالغريزي ما يبعث الحياة وكثيراً أو قليلاً من لوازمها ـ لكن لا يفي بالفكر

والـذكـاء والعقـل المستعـدّ لاستنباط المجهولات من المعلومات. فذوات الأرواح الغـريزية كالجـراثيم والخـلايا الحية وكـالبلبـل واليمام. وأصحاب الأرواح الذكية منهم الملائكة والإنس والجن.

الحياة كالممات هي في حقيقتها سرّ جعله اللّه تبارك وتعالى من أخفى الأسرار، وجعل من ظواهرها وآثارها ما هو من أجلى البديهيات. أنت حيّ تسمـع وتبصر وتشم وتلمس وتذوق، وتأكل وتعمل وتسعى وتتحرك. ثم إذا نظرت إلى جثمـان إنسان قد مات رأيته قد فقد تلكم السمات الظاهرات، وانقلب جسداً ليس يوجد فيه حياة، كلوح من خشب أو مرمر آيل إلى تراب أو رفات. فإن كنت لم تر قط ميتاً فاجتهد أن ترى ـ فليس من رأى كمن سمع، وإن كان السماع كما هنا بالعينين.

سرّ الحياة وباعثها هو الروح، وسر الممات انقطاع الروح عن البدن. فأي شيء هو الروح في حدّ ذاته يا ترى؟ إننا نستطيع أن نعرّفه بخاصته وقواه وآثـاره، وإن كنـا لا نملك تحليل ذاتـه إلى مركبات ـ لأنه بسيط وليس من المـركبـات أصلاً. أعلمنا بالروح خالق الروح في كتابه المجيـد إذ قـال: «**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**». هذا جواب تام، وليس منعاً من الجواب كما يتوهم بعض الناس. فإن اللّه ـ جلّت قدرته ـ يخلق على أنواع وأنماط. يخلق على نمط سلسلة طويلة من الأسباب والمسببات. ويخلق خلقاً مباشراً تنعدم فيه السلسلة الطويلة.

المخلوق على أول النمطين كقرص الخبز الذي تأكله وتتغذى منه: فمن حراثة الأرض وذرّ البذرة، وسقي الماء وتعاقب الأشعاعات والأضواء، ثم الحصاد والتنقيح والطحن وعمل الخبز إلى وضعه أمامك تأكله، كم من سبب

وسبب مما ذكرنا وما لم نذكر؟! لعمر الحق لا نحصي حلقات السلسلة في خلق الخبز وحده في كتاب في حجم الذي بين يديك. فكيف بسلاسل الخلق لسائر المخلوقات!

أما المخلوق على النمط الثاني فقريب العهد بالخالق من حيث انعدام السلسلة، ويعبّر عنه رب العالمين بالإضافة إلى ذاته ـ جلا جلاله وعم نواله. «**فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**». (الحجر: **٢٩**) «**ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه**...». (السجدة: **٩**). و«**قل الروح من أمر ربي**...» وهي الآية المتلوة بتمامها آنفاً التي تم فيها جواب السؤال ببيان خاصة الروح المميزة إياه وهي كونه من عالم الأمر، أي من عالم النمط الثاني. وتعريف الشيء بذكر خاصته المميزة أدق من التعريف بأعراضه العامة. وقد علمت قبل قليل أن الروح بسيط وليس من المركبات حتى يعرّف بذكر عناصر التركيب.

ها نحن علمنا خاصة الروح، وعلمنا آنفاً الظواهر البديهية من قواه الضعيفة المألوفة في جسم الإنسان كالسمع والبصر، وسنعلم في الفصل الخامس عشر قواه القوية وتفصيل آثارها. هذه ثلاث قوى عظيمة (وهي «الفكر» و«القلب» و«النفس») لها صنوف من التأثير الداخلي والتأثير الخارجي، أي التأثير المتبادل بينها في ذات الإنسان الفرد عينه والتأثير المتعدي إلى آخرين من بني الإنسان. والقلب والفكر قوتان جليلتان تتم بهما جلائل الأعمال، على ما سوف يأتي في الفصل الخامس عشر ـ إن شاء اللّه تعالى. وسنذكر آثار النفس السيئة في الفصل الثامن المخصوص بكشف علماء السوء وأعمال التخريب. فيكفي هنا أن نصور لك صورة مختزلة لبعض

هذه التأثيرات .

يوجـه إنسـان قوة الإرادة صوب هوى النفس الأمارة بالسوء في مجال الفكر وفي مجال الشهوات . فيترجح عنده الكفر على الإيمان والضلال على الهداية والانهماك في ملذات البطن والفرج حيثما أتت ، والأثرة في هذه وإن كانت السبـل إليهـا جرائم في حق أشخاص آخرين أو في حق المجتمع . ويوجه إنسان قوة الإرادة نحو تقوى القلب فيترجح عنده الإيمان على الكفر والهداية على الضلال والاعتدال في الملاذّ والإيثار على الأثرة ، ومن ثمّ نفع الآخرين فرادى أو جماعات . وإذا شئت فاقرأ قوله تعالى :

ـ «فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكّر الإنسان ما سعى .
وبُرِّزت الجحيم لمن يرى .
ـ فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى .
ـ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى» .

(النازعات : ٣٤ ـ ٤١) .

هذا هو روح الإنسان وهذه قواه . وتتفاوت الأرواح بمراتب قواها ، كما تجدها تتفاوت في قوة الفكر والاستعداد لتلقي العلوم . وإذا كان الناس هكذا بأرواحهم فكيف بأرواح الأنبياء والرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه . ثم كيف بالروح العظيم الذي اختير لختم النبوة والرسالات ! عِلمنا لا يستطيع يبلغ مبلغ الكشف عن مرتبته . فكشفها ربه الذي خلقه وأولاه منزلته وأمرنا باتباعه في كل شيء وبأنّ «من يطع الرسول فقد أطاع الله» . فلنتدّبر هذه الآيات من

كلام رب العالمين:

- «**وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علّمه شديد القوى . ذو مِرّة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى**» . .

- «**ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى**» .

(النجم : ٣ - ١٠ ، ١٣ - ١٨) .

يا لعظمة هذا الروح! يعرج إلى سدرة المنتهى ، ويرى الكبرى من آيات ربه ، ثم لا يزيغ منه البصر ولا يطغى - ولكم زاغت أبصار أو طغت في مقامات دون هذا المقام . بأبي أنت وأمي يا خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلى اللّه عليك وعلى آلك وأصحابك والمهتدين بهديك إلى يوم الدين .

«وبتّ ترقى إلى أن نلت منزلة
من «قاب قوسين» لم تدرك ولم ترم» .

ذلك كله في شأن الروح وقواه حال ارتباطه بالبدن الفاني في هذه الحياة الدنيا الفانية على هذه الأرض التي لا يبقى عليها أحد . فكيف شأن الروح وقواه بعد انفكاكه عن هذا الجسد الذي يموت ثم لا يبقى منه شيء - اللهم إلا التراب؟

هل يفنى الروح بالموت وتفنى معه كل قواه؟

أم هل يخلد الروح وتخلد معه كل قواه؟

الجواب في هذا التساؤل هو فيصل التفرقة بين الكفر والإيمان، بين المسلم والكافر، منذ زمان رسول اللّه إلى يومنا هذا. الكتاب والسنة صريحان كل الصراحة في خلود الروح وتعاظم قواه بعد الانتقال من دار الدنيا الفانية إلى دار الخلود الباقية. والكتاب والسنة صريحان كل الصراحة في أن جاحد هذه الحقيقة المصرح بها فيهما هو كافر لا محالة وليس بمسلم ـ فالأمر متردد بين الكفر أو الإيمان بالبعث والحياة الآخرة.

أجل، كان الإيمان بوحدانية اللّه سبحانه وبالبقاء بعد الموت أشد وأدعى مثير للعداوة والبغضاء أَججهما أساطين الكفر من قريش في وجه رسول الله وأصحابه المؤمنين ـ صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين. الآيات المكية ناطقة بهذا، ولكن تكفينا سورة «ق» وحدها لبيان ذلك كله.

ـ **«بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب»**.

ـ **أءِذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد»**.

ـ **«بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج»**.

(ق: ٢ ـ ٣، ٥).

لقد أنذرهم رسول اللّه أول ما أنذر بأن هناك بعد موت الجسد حياة أخرى وبعثاً وسؤالاً وحساباً وعقاباً وجنة وجحيماً. فأنكر الكفار ذلك كله وقالوا: أءِذا متنا وكنا تراباً؟ ذلك رجع بعيد! وبعد هذا المفتتح تتلو آيات تبين عظمة قدرة الخلاق العظيم الواضحة في خلق السماوات والأرض والجبال والسهول والأنهار والغيث والنبات والأشجار والثمار، كل ذلك ليعقلوا ويستدركوا بعد الكفر الإيمان بأن خالق كل ذلك قادر أيضاً على خلق العالم

الآخـر لما بعد الممات. وتعقب هذه الآيات تبصرةٌ لهم بأن أمماً خالية قد كفرت مثلهم بهذه الحقائق التي أنذر بها رسلهم فحق عليهم الوعيد. وأعقب هذه كلها قوله تبارك وتعالى:

- «**أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد**».

(ق: ١٥).

ويتسنى فهم هذه الآية الكريمة على تفسيرين مآلهما واحد. ومرجع التفسيرين إلى معنيين للفظة «**لبَس**».

أولهما: اللبس بمعنى اللباس: وتفسير الآية على ذلك أن الإنسان أي روحـه في الـدار الآخـرة إنما يكون في لبس أي بدن هو من خلق جديد. فللإنسان في دار الفناء جسمه الذي من الخلق الأول الذي ما عيي به الخالق. وللإنسان في دار البقاء جسم من خلق آخر جديد ليس يعيى به الخالق كما لم يعي بالخلق الأول.

وثانيهما: اللبس بمعنى الالتباس: وتفسير الآية على ذلك أن الكفار في إنكارهم الحياة الآخرة هم في التباس وخلط في شأن خلق جديد في دار البقاء هو غير الخلق الأول - والخالق ولم يعي بالأول فلن يعيى بالثاني.

أفهم الآية الكريمة على الأول من التفسيرين - وجمهور المفسرين على الثـاني. ويعضد تفسيري أن القرآن المجيد صريح في أن البدن الأخروي خلق جديد وأن البعث خلق جديد. «**وإن تعجب فعجب قولهم أءِذا كنا تراباً أءنـا لفي خلق جديـد**». (الـرعـد: ٥). «**وقالوا أءِذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً**». (الإسراء: ٤٩). والخلق الجديد يقتضي مخلوقاً جديداً، وإلا فأين الجدة في الخلق.

ويعضده كذلك أن البدن الدنيوي مستمر الفناء وغير خالد، وأن البدن الأخروي باق دائماً وخالد، فلا بدّ من المغايرة بينهما في أصل الخلق والصنع. والخلود في عالم البقاء أمر مصرح به في عشرات من آي الذكر الحكيم.

وأيضاً يتأيد التفسير الأول بأن واقع حال الكافرين يوم نزول الآية الكريمة، كواقع حال إخوانهم اليوم من منكري البعث والحشر والحساب، هو الجزم القاطع بعدم وجود ما أنكروه، وليس الخلط والالتباس. فانظر إلى النص على الجزم بالكفر: -

- **«وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين»**.

(الأنعام: ٢٩).

- **«وقالوا أءِذا ضللنا في الأرض أءنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون»**.

(السجدة: ١٠).

- **«وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبّئكم إذا مزّقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد»**.

(سبأ: ٧).

فإن قيل ورود «لبس» في الآية مجاز بمعنى الجزم، قلنا «اللبس» بمعنى البدن أيضاً مجاز ـ لكنه مجاز أقرب. وقد كثر في الأدب تشبيه بدن الإنسان بالثوب. ومنه ما أنشد الجاحظ في أواخر أيامه: -

«أترجو أن تكون وأنت شيخ
كما قد كنت أيام الشباب»

«لـقـد كذبـتـك نفـسـك ليس ثوب
دريس كالـجـديد من الـثياب»

(للبيتين وحياة الجاحظ راجع ياقوت الحموي، «معجم الأدباء»، ج ١٦ ص ١١٣).

ومن العلماء من استدل بهذه الآية على أن الجواهر أي الأعيان تتجدد كما تتجدد الأعراض. وليس في هذا القول إلى هذا الحد من بأس، إذ أن علمي الخلايا والكيمياء العضوية يخبراننا بأن كثيراً من خلايا جسم الإنسان تندثر وتحل محلها خلايا أخريات حتى إذا مات الإنسان أخذت الخلايا كلها تندثر وتؤول إلى تراب. والنصوص صريحة في أن جسم الإنسان فان.

لكنّ جرّ الاستدلال بأن الجواهر لا تبقى زمانين إلى ربطه بالقول المنكر المرفوض من مزاعم «وحدة الوجود»، هذا إغراق في أباطيل دحضتها نصوص صريحة من الكتاب والسنة. ولا يخفى أن الآية الكريمة التي فسرناها آنفا هي بمعزل عن هذا. وسنتكلم على «وحدة الوجود» في الفصل الرابع عشر إن شاء الله تعالى.

الآن قد صفا لنا من الأدلة المتقدمة أن من فواصل التفرقة بين الإيمان والكفر ما هو قائم في شأن الروح: فالمؤمنون موقنون ببقائه وخلوده بعد الموت المشهود عند الناس؛ والكافرون الملحدون يأبون الإيمان ببقائه وخلوده عقب الموت.

فأما قوى الروح فالذين ينكرون أصل خلود الروح ويزعمون فناءه فإنهم لا محالة منكرو بقائها من باب أولى. غير أن فيهم من ينكر وجود الروح للإنسان في هذه الحياة الدنيا أيضا، ويعتقد أن مظاهر الحياة التي هي موجودة

في الإنسان الحي إنما هي غرائز طبيعية تنتهي وتضمحل فور موت الجسد. أذكر أني قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة حاججت أستاذاً بكلية التجارة ببغداد من منتحلي هذا المعتقد فاستخلص هو صفوة دليله على رأيه بأن شخص الإنسان كمثل أسطوانة «الكرامافون» الناطقة بالأغاني ، فإذا تهشمت الأسطوانة انقطع النطق وانتهى وإذا مات الإنسان انتهى كل شيء. هذا معتقد للملحدين معروف.

وقد سبق لنا أن ميزنا بين الروح العاقل الذكي وبين أرواح أحياء هي دون ذلك. ونحن نجزم هنا بأن ذوي الأرواح بجميع أنواعها وأصنافها يحشرون إلى بارئهم الواحد الأحد بديع السماوات والأرضين. وإذا شئت فتبصّر في قوله تعالى: -

- «قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون».

- «**ويقول الإنسان أءِذا ما مِتّ لسوف أخرَج حيّا. أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً. فوربك لنحشرنّهم والشياطين ثم لنحضرنّهم حول جهنم جثياً. ثم لننزعنّ من كل شيعة أيّهم أشد على الرحمن عتياً**».

- «**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون**».

(الملك: ٢٤، مريم: ٦٦ - ٦٩، الأنعام: ٣٨).

ومن الناس من يؤمن بالحشر والمعاد ثم يسلك في شأن قوى الروح الإنسانية مسلكاً فيه إنكار واضح لبقائها بعد الموت. وهذا العجب العجاب. فإنهم يتصورون الإنسان إذا مات انتهت كل قواه، ويشيرون إلى القبر التراب

كأنه هو كل شيء من أمر صاحبه الإنسان، وينفون عنه كل حول وسمة من سمــات الحياة. وهم من أجــل معتقــدهم هذا يستصغــرون القبـور بل يستحقرونها، غير مفرقين في ذلك بين أجداث الصالحين وقبور الطالحين ولا بين أضـرحة المؤمنين وحفير الكافرين. هذا على الرغم مما أخرجه الترمذي (ج ٣ ص ٣٦٩) بسند حسن عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: «مرّ رسول الله - ﷺ - بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر.»

أمـا الكتـاب والسنـة فيثبتـان البقاء لقوى الروح في الحياة الأخرى، وينصان على تعاظم هذه القوى أضعاف ما كانت عليه في الحياة الدنيا. وليس يتسع المقام هنا لذكر نصوص الأدلة جميعها، فلنتشرف ببعض ما يرد منها على الخاطر في هذه الفرصة: -

الأول: قوله تعالى: **«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير»**. **«وما هذه الحيـوة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون»**. (العنكبوت: ٢٠، ٦٤). الآية صريحة في أن الدار الآخرة هي دار الحياة الحقيقية المعبر عنها بصيغة الحيوان (فَعَلان) التي هي أبلغ من صيغة الحياة للإفصاح عما فيها من قوى للحياة هي أعظم مما للإنسان في الحياة الدنيا. وكيف لا، وهي الحياة العليا الخالدة!

الثاني: قوله تعالى: **«وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربّها ناظرة»**. (القيامة: ٢٢ - ٢٣). أي وجوه في الآخرة بهية متهللة ناعمة برؤية رب العالمين ومطالعة جماله السرمدي. ولا يخفى أن أبصارنا الدنيوية كليلة عاجزة عن رؤية الباري

تعالى وتقدس. أما في الجنة فالأبصار مسعفة والوجوه ناضرة والأرواح أقوى وأتم استعداد للرؤية من خلال تلكم الأبصار. أما الذين يذهبون إلى أن رؤية الباري في الدار الآخرة إنما تتحق بالبصائر لا بالأبصار فالآية الكريمة دالة وفق مذهبهم أيضاً على تعاظم قوة الروح في الآخرة، إذ أن البصيرة إنما هي قوة القلب من قوى الروح ـ كما تقدم ذكره. لكن السنة صريحة في أن الرؤية يومئذ تتحق بالأبصار الأخروية ـ كما سيأتي بيانه بعد قليل.

الثالث: جميع آيات القرآن المجيد الواصفة نعيم الجنة وتنعم المؤمنين بها. فإنها دالة فرادى ومجتمعات على تعاظم قوى الروح الحسية جملة وتفصيلاً. ولا يخفى عدم اتساع المجال لتلاوتها جميعها هنا، فلنكتف بما شرفتنا بها سورة «الإنسان» (١١ ـ ٢٢): ـ

ـ «فوقٰيهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّٰيهم نضرة وسروراً. وجزٰيهم بما صبروا جنة وحريراً. متّكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً. ودانيةً عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلاً. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويُسقَوْن فيها كأساً كان مِزاجها زنجبيلاً. عيناً فيها تسمّى سلسبيلاً. ويطوف عليهم ولدان مخلّدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً. عاليهم ثياب سندس خضرٌ واستبرق وحُلّوا أساور من فضّة وسقٰيهم ربهم شراباً طهوراً. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً».

الرابع: ما أعلمنا به القرآن المجيد من أن المؤمنين والمتقين يبوئهم رب

العالمين مقاماً كريماً عنده في الدارة الآخرة: ـ

ـ «**أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إنّ هٰذا لسٰحر مبين**».

(يونس: ٢).

ـ «**إن المتقين في جنات ونَهَر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر**».

(القمر: ٥٤ ـ ٥٥).

والذين يرقون إلى مقعد صدق عند اللّه تبارك وتعالى ويكون لهم قدم صدق عنده على هذا النحو فإنهم لا محالة أقوياء الروح في الدار الآخرة على أعلى الدرجات. ومن هٰهنا جعلت لهم الشفاعة كما سنرى فيما يلي.

الخامس: ما أخرجه الترمذي: «حدّثنا وكيع عن إسماعيل ابن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم عن جرير عن عبدالله البجلي قال: كنا جلوساً عند رسول الله ـ ﷺ ـ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هٰذا القمر لا تضامون في رؤيته...» وهٰذا حديث حسن صحيح كما أخرج الترمذي. (ج ٤ ص ٦٨٧).

السادس: ما أخرج ابن ماجه عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يُشفَّع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء». (التاج الجامع ج ١ ص ٦٥).

السابع: ما أخرج الترمذي (ج ٤ ص ٦٧٨): «حدثنا سويد بن نصر

أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمخطون ولا يتغوطون آنيتهم فيها الذهب وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم من الألوّة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون اللّه بكرة وعشياً».

فسبحان الذي وهب عباده المؤمنين الصادقين أرواحاً قوية وأجساداً طيبة ونعيماً مقيماً في جنات ونهر عند مليك مقتدر.

لقد كفتنا الأدلة المتقدمة في هذا الفصل ما أردنا من بيان الروح وقواه وخلوده. فإذا أراد الرفيق القارىء الاستزادة من العلم بقوى القلب فليقرأ المباحث المخصوصة بعجائب القلب وصفاته ومنجياته ومهلكاته في الجزء الثالث من كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي، أو أراد الاستزادة من أخبار الروح بعد مبارحة الجسد والحياة الدنيا فليقرأ الرسالة المعروفة «بكتاب الروح» للشيخ ابن قيم الجوزية ـ رحمهم الله وجزاهم خيراً بما حفظوا من العلم والمعرفة. وسنبين ـ إن شاء الله تعالى ـ أعمال القلوب في الفصل الخامس عشر من كتابنا هذا. وإذ يبلغ الفصل الذي بين أيدينا غايته المرجوة هنا تظهر الحاجة إلى بيان علاقة الروح بالأحكام الشرعية المقررة. وهذا ما سنصنعه في الفصل التالي بحول الله سبحانه وقوته ـ واهب العلم والنطق والبيان.

الفصل الرابع
الالتزام بالأحكام

قال رب العالمين ـ جلّ جلاله وعمّ نواله: «**لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن باللّه فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**». (البقرة: ٢٥٦).

نهانا ربنا أن نكره أحداً على الإسلام. وجعل أمر الدين إلى اختيار الإنسان وإرادته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وبيّن سبحانه ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين ليعلم الناس وجه الهداية من وجه الضلال، فقال: «**اللّه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**». وقال سبحانه في سورة الكهف (٢٩): «**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً**».

فإذا اختار الإنسان طريق الإسلام وآمن بما وضحناه في الفصل الأول واتته الفرصة العظمى لاستعلام ما يفترضه عليه ربه من طاعة اللّه ورسوله وما

يدّخره له من حسن الجزاء في دار المقامة ـ دار الخلود. في أكثر من سورة وأكثر من آية في القرآن المجيد أمرنا ربنا بإطاعة الله وإطاعة رسوله. فلنتل منها هذه الآيات الكريمات: ـ

ـ «وأطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول واحذروا فإن تولّيتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين».

(المائدة: ٩٢).

ـ «قل أطيعوا الله والرسول فإن تولّوا فإن اللّه لا يحب الكافرين».

(آل عمران: ٣٢).

ـ «وأطيعوا اللّه والرسول لعلكم ترحمون».

(آل عمران: ١٣٢).

ـ «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى اللّه والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا».

(النساء: ٥٩).

ـ «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً».

(النساء: ٦٥).

ـ «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم».

«محمد: ٣٣).

- «إني لكم رسول أمين . فاتقوا اللّه وأطيعون» .

(الشعراء : ١٢٥ - ١٢٦) .

- «من يطع الرسول فقد أطاع اللّه ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً» .

(النساء : ٨٠) .

- « . . . ومن يطع اللّه ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً» .

(الأحزاب : ٧١) .

- «ومن يطع اللّه والرسول فأولئك مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من اللّه وكفى باللّه عليماً» .

(النساء : ٦٩ - ٧٠) .

ثم اعلم أن فضل اللّه علينا ليس بمقصور على ما سوف يكون في دار العقبى . بل إن نحن آمنا وأطعنا كل الطاعة فإن فضله الدنيوي سيعمنا جماعات كما عمنا فرادى . «وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها» . فتأمل هٰذه الآيات تفقه : -

- «إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى اللّه ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش اللّـه ويتّقْهِ فأولئك هم الفائزون» . . . .

- «وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلِفَنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمَكِنَنّ لهم دينهم

الـذي ارتضى لهم وليُبدّلنَهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون».

(النور: ٥١ ـ ٥٢، ٥٥).

والأوامر والنواهي والمستحبات والمكروهات والمباحات ومدارك الأحاكم وأصولها وقواعدها ـ كل هذه موفرة في القرآن المجيد والسنة النبوية المعصومة. وهذه كلها هي الشريعة الغراء التي ارتضاها لنا رب العالمين ديناً وأكملها وأتم بها نعمته علينا ـ جل جلاله وعم نواله، وله الحمد والشكر والمنة والعتبى حتى يرضى. وفقه الشرع الأغر أصولاً وفروعاً مدون في ذخائر الأمة وأسفار الأئمة، وإن منها المختصر والوسيط والوجيز والبسيط

فإذا فهمت بفكرك أن آساس الشريعة هي خطاب الله سبحانه المتعلق بأعمال عبادة المكلفين بالطاعة، وآمنت بقلبك أن هذا الخطاب موجه إليهم بطريق الوحي إلى خاتم النبيين ـ ﷺ ـ في كلام الله المجيد وفي السنة النبوية، فإنك ـ أيها المؤمن ـ لن ترضى أن يتجاسر عند هَذين الأصلين فعند الشريعة الغراء كل شارد ووارد بأنه يتكلم اللغة العربية وأنه «مثقف» قد درس علوم الطب أو الصيدلة أو الهندسة أو ما إلى ذلك. ففي الأمة الإسلامية منذ عهد السعادة رجال نفروا ليتفقّهوا في الدين بمزيد اختصاص في علوم الكتاب والسنة واللغة حتى تضلعوا منها فأوتوا العلم باستخراج أحكام الإسلام. والتفقه والاختصاص في الشريعة إنما هو فرض كفاية ينهض بها هؤلاء الرجال عن الأمة، فإن خلت الأمة منهم في أيّما عصر من العصور أثمت برمّتها. وهؤلاء هم المتّبعون أولو الأمر في الشريعة الغراء.

أجل يجب على المؤمن ألا ينساق مع أولئك المتهجمين على شرعة

الله تعالى الذين يتصدون للفتيا ولا يقيم الواحد منهم اللسان العربي المبين ـ دع عنـك علوم الكتاب والسنة. الجاهل بعلم لا يصلح أستاذاً فيه، وأنصاف المتعلمين لا يصلحون أئمة يقتدى بهم ويؤخذ بفتاواهم. بل هؤلاء هم الذين ينتقصـون أئمـة السلف الصالح كأبي حنيفة ومالك والشافعي، وهم الذين حذرنـا منهم رسـول الله ـ صلى الله وسلم عليه وآلـه وأصحابه والمهتدين بهديه ـ في الحديث الشريف الآتي الذي رواه الأئمة الثلاثة البخاري ومسلم والترمذي بطرق متعددة.

أخرج البخاري (في كتاب العلم من صحيحه): «حدثنا إسمعيل ابن أبي أويس قال حدثني مالـك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد اللّه بن عمـرو بن العاص قال سمعت رسول اللّه ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا». (القسطلاني ج ١ ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

ولهـذا تشـدد السلف الصـالح في تجويز الفتوى وصرحوا بعدم جواز الافتاء ممن يعدمون الاختصاص في علوم الكتاب والسنة ومقدماتها[1]. وقد

(١) نقل الشيخ محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (في أوائل كتابه «إعلام الموقعين» ج ١ ص ٤٤ ـ ٤٧ طبعة دار الجيل) فصلا في كلام الأئمة في أدوات الفتيا وشروطها. فإليك طائفة من هذه الشروط منقولة منه: ـ

قال الإمام أحمد «في رواية ابنه عبد الله: إذا كان عند الرجل الكتب المصنفة فيها قول رسول الله ﷺ واختلاف الصحابة والتابعين فلا يجوز أن يعمل بما شاء ويتخير فيقضي به ويعمل به حتى يسأل أهل العلم ما يؤخذ به فيكون يعمل على أمر صحيح».

«وقال محمد بن المنادي: سمعت رجلاً يسأل أحمد إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث =

صدقوا ووفقوا، ألم يقل رب العزة ـ جل جلاله: «**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**» (الإسراء: ٣٦).

استخلصنا مما تقدم أن بني الإنسان مكلفون باتباع أحكام الشريعة الغراء، وأن هذه الأحكام آساسها خطاب الشارع المتعلق بأعمال المكلفين.

= يكون فقيهاً؟ قال لا. قال فمائتي ألف؟ قال لا. قال فثلثمائة ألف؟ قال لا. قال فأربعمائة ألف؟ قال بيده هكذا وحرك يده». أي أشار بالنفي أيضاً.

«قال الشافعي فيما رواه الخطيب في كتاب الفقيه والمتفقه له: لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله بناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ، وبالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر وما يحتاج إليه للسنة والقرآن، ويستعمل هذا مع الانصاف، ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار، وتكون له قريحة بعد هذا، فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتي».

«وقال صالح ابن أحمد[أي الإمام أحمد بن حنبل] قلت لأبي ما تقول في الرجل يُسأل عن الشيء فيجيب بما في الحديث وليس بعالم في الفقه؟ فقال: ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بالسنن عالماً بوجوه القرآن، عالماً بالأسانيد الصحيحة، وذكر الكلام المتقدم»[أي نص كلام الشافعي أستاذه].

«وقال علي بن شقيق قيل لابن المبارك[هو عبد الله بن المبارك من أجلاء علماء التابعين]: متى يفتي الرجل؟ قال: إذا كان عالماً بالأثر، بصيراً بالرأي».

«وقيل ليحيى بن أكثم: متى يجب للرجل أن يفتي؟ فقال إذا كان بصيراً بالرأي بصيراً بالأثر».

«قلت[القائل ابن القيم]: يريدان[أي ابن المبارك ويحيى بن أكثم] بالرأي القياس الصحيح والمعاني والعلل الصحيحة التي علق الشارع بها الأحكام وجعلها مؤثرة فيها طرداً وعكساً». كل ما تقدم منقول من ابن القيم، إلا ما بين الأقواس المعقوفة للتوضيح.

فهل لهذه الأحكام والخطاب ظاهر وباطن؟ ثم هل البواطن كالظواهر مبينات في الشريعة الغراء؟

جواب السؤالين كليهما: نعم. ما ترسمها الشريعة الغراء من الأعمال لها ظاهر ولها باطن. وظواهر الأعمال وبواطنها مبينات في الشريعة نصاً عليها أو إرشاداً إليها. والظاهر والباطن متطابقان. فكل ظاهر أو باطن من الأعمال يتناقض أو يتعارض مع أحكام شريعة الإسلام فهو بحكم التعارض أو التناقض خارج عن الإسلام وليس منه. ونفهم من هذه الأجوبة الصريحة أن ليس يوجد في الإسلام باطن هو متناقض أو متعارض مع ظاهر الشريعة الغراء. وإليك تفصيل هذا الإجمال.

وخير أنيس في العلوم مثال. فلنصور هٰهنا الظاهر والباطن وتطابقهما بمثال واضح. رجلان يذهبان إلى مسجد لأداء فريضة الصلاة في جماعة، فيستقبلان القبلة جنباً إلى جنب، ويأتمان بإمام واحد. أما أحدهما فمذ يدخل في الصلاة بتكبيرة الإحرام عقيب الإمام يبدأ يسرح بفكره في خواطر ماله أو تجارته أو أعماله أو شهواته أو ما ينتابه من شؤون دنياه، ثم يسمع الإمام يجهر بالتسليم فيسلم هو كما يسلم المصلون متذكراً عندئذ أنه قد كان في حال صلاة. وأما الثاني فإنه مذ شرع في الصلاة خرج من شواغل الدنيا وواجه ربه الذي يصلي هو له وبقي معه بقلبه في حضرة القدس يقوم ويركع ويسجد ويكبّر ويقرأ ويعبد، مناجياً إياه وخاشعاً بين يدي قدرته لا يذكر إلا إياه. وهذه هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

كلا الرجلين أقام من الصلاة ظاهرها، وهو أعمال الجسد العضلية من وقوف وجلوس وركوع وسجود، بل ومن قراءة الفاتحة التي تؤدى بجهاز الصوت

وأوتار الحنجرة. أما باطن الصلاة الذي هو من أعمال القلب الروحية فما أداه إلا ثانيهما. لقد حرم أولهما نفسه منه. ورب العالمين يقول: «**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلوٰتهم خاشعون**». هٰكذا الظاهر والباطن في شرعة الإسلام، في العبادات وفي المعاملات، في الحكومات وفي السياسات، في الواجبات وفي المباحات.

ولأزدك بياناً ـ أيها المسلم ـ بمثال في المباحات. حدثني مصطفى بن أبي بكر بن محمد الهرشمي قائلاً «إن المباحات تنقلب بالنية إلى قربات». وتوضيح مقاله ـ وهو شيخي وأستاذي وسندي في إجازة علوم الكتاب والسنة ـ أني ذات يوم كنت في خدمته بمنزله، فقدم طعام الغداء، فنظر إلي وقال: يا عبد الله «هل تنقلب المباحات قربات بالنية»؟ فأجبت: «ليس لي علم بذلك». فقال مقاله الذي رويناه آنفاً، ثم أردف: «هذا الطعام مباح لي هذه الساعة أن أتناوله. وإني أنظر إليه مسمياً مستعيناً باسمه تعالى وحامداً شاكراً نعمة المنعم به وبإباحته لي، وأناجي ربي في قلبي: اللهم إنك خالق هذا الطعام وخالقي وإني مناول الآن عبدك هذا رزقك هذا؛ اللهم فاجعل ذلك في مرضاتك وعلى بركات ذكرك».

ثم بعد زمان كنت أقرأ في بعض كتب العالم المفضال الشيخ ابن قيم الجوزية فصادفت عنده القول بانقلاب المباحات إلى قربات بالنية. وما أريد هنا التكلف بالرجوع إلى ما قرأت من ذلك لبيان الكتاب والصفحة منه لأني إنما أشرت إلى كلام الشيخ ابن القيم لتطابقه في الحكم مع الذي رويته عن شيخي وهو أكثر تفصيلاً.

ويلوح لي أن «المدرك» لاستنباط هذا الحكم الشرعي إنما هو القياس

الصحيح. فأكل وجبة من الطعام غداءً عمل مباح. وبيع بضاعة في حانوت عمل مباح. ورب العالمين قد أثنى في كتابه المجيد على من يذكرون الله وهم يعملون ثاني هٰذين العملين المباحين: «**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**». (النور: ٣٧). فانساق حكم القربة إلى أول العملين ـ والجامع بينهما كونهما مباحين مقترنين بذكر الله سبحانه. وذكر الله من شأنه أن يبدل السيئات حسنات، فكيف بتبديله المباحات قربات.

وفي شأن المباح هذا أمر دقيق. فهو من حيث هو عمل مباح ليس يوجد له باطن يردف ظاهراً. وإنما يحصل له باطن بانقلابه قربة، والانقلاب يتم بذكر الله، وذكر الله تعالى عمل من أعمال القلوب.

وبعد ذلك كله يبقى ما فصلناه من عمل الجوارح ومن عمل القلب في الصلوات أوضح تصوير لمعرفة الظاهر والباطن في الإسلام وكونهما متعاضدين متكاملين مترابطين من أحكام الشريعة الغراء.

وللظاهر والباطن معان أخر غير ما قدمنا. فقد وردا في القرآن المجيد اسمين من أسماء الله الحسنى: «**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**». (الحديد: ٣). فهو الظاهر وجوداً وصفات بشهادة جميع ما في العالم من الموجودات المحسوسة والمعقولة الناطقة بأنه هو الخالق البارىء بديع السماوات والأرضين. وهو الباطن لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته العلية، لأن مثل هذه المعرفة متوقفة على العلم بماهية الموجود المراد استكناهه والله تبارك وتعالى منزه عن الماهية ليس كمثله شيء. فهو ـ جلّ جلاله ـ هو الظاهر والباطن. وهذا هو معنى الاسمين من الأسماء الحسنى.

وورد اللفظان أيضاً في القرآن المجيد في مجال الذنوب والآثام. في

قوله تعالى : «**وذروا ظاهر الإثم وباطنه**» . (الأنعام : ١٢٠) . وفي قوله تعالى : «**قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن**» ، (الأعراف : ٣٣) ، و «**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً . . . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . .**» (**الأنعام : ١٥١**) . والمعنى واضح .

الآن أحطت ـ أيها الرفيق القارىء ـ مما تقدم في هذا الفصل بما نطق به الكتاب وأسفرت عنه السنة النبوية من أمر الظاهر والباطن في الشريعة الغراء وأحكامها المستنبطة من مداركها . فالتعاضد والتوافق والتكامل للظاهر والباطن معاً في جملة ما ندين به لربنا ونتعبد به هو كما وضحناه أبين توضيح في مثال الصلاة وأعمالها الظاهرة والباطنة ـ فعد إليها إذا شئت واقرأها كرة أخرى .

لكن مجتمع الناس مهما أفعم بالخير فإنه في دار الدنيا لن يخلو من شر. فإلى جنب الصواب خطأ وإلى جانب الإستقامة انحراف وبعد انبثاق الهداية ضلال وعماية. بذلك تفرق الناس نحلاً. منها ما ترجع بالدين والأحكام إلى باطن من التعليم هو من قبيل العصمة والوحي . ومنها ما تجعل الباطن مستقلاً عن الشريعة منفصماً عنها مبايناً إياها ـ حتى قيل باطن معارض الظاهر وحقيقة وشريعة متغايرتان. وقد كفانا مؤونة الكشف عن زيف هذه النحل الإمام الهمام داعية الإيمان والإسلام أبو حامد الغزالي ـ أجزل الله بلطفه ثوابه. فراجع للأولى من هتين النحلتين كتابه «فضائح الباطنية» ، وللأخرى «إحياء علوم الدين» في أكثر من فصل وباب .

وأقوى ما تدلّى به الجانحون إلى باطن وحقيقة في وجه ظاهر وشريعة هو فهمهم لما في سورة الكهف من قصة نبي الله موسى الكليم ـ على خاتم الأنبياء وعليه أفضل الصلاة والتسليم ـ مع العبد الصالح الذي ورد في بعض

الآثار أنه قد كان «الخضر» ـ عليه السلام. وليس يوجد في تلك القصة أي شيء هو من قبيل الظاهر والباطن الشرعيين في الإسلام اللذين بيناهما آنفاً تمام البيان. القصة فيها حوادث وأحوال معينة كانت معلومة للعبد الصالح مجهولة عند النبي موسى الكليم. وكثير في الناس أن يصبح أمر من الأمور شهوداً لدى أناس وأن يبقى غيباً عند غيرهم. أما مقاصد القصة فهي الإبانة عن الحقائق التالية: أن الله سبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب كله لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ وأن العلم كله من الله ـ جلّ جلاله ـ يهب منه ما يشاء لمن يشاء على أيّ وجه يشاء؛ وأن النبوة والرسالة من حيث هما لا تستلزمان العلم بالغيب؛ ألا ترى أن الباري تعالى قد أوصل إلى عبده الصالح علماً بأحوال وحوادث لم يوصل علمها إلى عبده النبي الكليم من الأنبياء أولى العزم. «**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء...**» وأين هذا من بواطن أعمال المكلفين وظواهرها اللتين أفصحت عنهما الشريعة الغراء بصنوف من دلالات الكتاب والسنة ومدارك الأحكام المفصلة في علم أصول الفقه.

فأما أن يزعم زاعم أن في الإسلام أموراً باطنة أخفاها صاحب الرسالة وأظهر ما يغايرها ـ أما هذا فهو الإنخلاع من ربقة الإسلام بالطعن في أمانة مبلغ الرسالة من ربه، خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أنزل عليه القرآن ليبين للناس ما نزل إليهم، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وبقي «**شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا**» كما وصفه رب العالمين في محكم كتابه. وكذلك زعم من يشط إلى اعتقاد أن معرفة أمور باطنة من شأنها أن ترفع عن صاحب المعرفة أحكام الإيجاب والتحريم والحلال والحرام. فهذا قول

بتعطيل الأحكام وإلغاء الإسلام ما أنزل الله به من سلطان.

وأما نحن فنقول مؤمنين موقنين معتصمين: «**من أطاع الرسول فقد أطاع الله**» وإنه «**ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**». وبهذا نختم الركن الأول من هذا الكتاب، لننتقل إلى الركن الثاني في «العلم النافع».

الركن الثاني
«العلم النافع»

الفصل الخامس : الإسلام والعلم .

الفصل السادس : أصناف العلوم .

الفصل السابع : آداب العلم .

الفصل الثامن : علماء السوء وأعمال التخريب .

الفصل الخامس
الإسلام والعلم

التنزيلة الأولى من القرآن المجيد في غار حراء أتتنا بهذه الآيات المبينات : ـ

«إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . ألذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم» .

(العلق : ١ ـ ٥) .

وفي هذه الآيات أمران جليلان . أولهما إحكام الرباط بين الخالق والمخلوق والإسلام والعلم ، أي بين أركان صرح الإيمان العظيم الذي عليه تقوم حياة الإنسان من أعم مجملاتها إلى أخص التفصيلات . والثاني أعظم نبوءة إسلامية لخاتم النبيين سرعانما تحققت وظلت تتحقق وهي مستمرة التحقق اليوم في مجتمع الإنسان من حول الأرض : **«علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم»** .

والإسلام هو الشريعة الغراء سدى ولحمة ـ كما رأينا في الركن والأول . والشريعة الغراء إنما هي علم بل علوم .

والعلم ، كل علم على وجه الإطلاق والعموم ، إنما هو إدراك ، ولا إدراك

من دون حياة، ولا حياة من دون روح، فلا علم دونما روح. فالعلم إنما هو عمـل روحاني لطيف تساعد في تحققه الحواس الظاهرة كما تساعد أحياناً آلات صماء. والعلم معان روحانية لطيفة تعين على تحققها وانتقالها اللغة والألفـاظ والنقوش، ومنها الرموز الرياضية والكيمياوية والفيزياوية. فالعلاقة بين فكر الإنسان، وهو قوة من قوى روحه، وبين ألفاظ اللغة ومعانيها علاقة وطيدة فصلناها في «المقتضب في علم الوضع»، وهو الثالث من كتب «مجمع الأشتات» المذكور آنفاً، فراجعه إذا أردت تفصيلاً.

أما علاقة العلم في هذه الحياة بالأسباب التي هي من وظائف الأعضاء ومن جملة مراتب الأسباب الموصلة لحقيقة العلم ـ أما هذه العلاقة فهي أن الروح يتحقق له العلم أخذاً أو إعطاء بوساطة نبض كهرومغناطيسي جد لطيف ودقيق تتسبب لحصـوله في الدماغ من خلال الجملة العصبية مجموعة من التفـاعـلات والأوضـاع الجسـدية والكيمـائية والفيزيائية، بيد أن مولّد القوة الكهرومغناطيسية وهذا النبض ومنتجهما هو القلب ـ وسنفصل القول فيه في الفصل الأخير. ولمزيد من علاقة الروح بالجسد قد يستحسن الرجوع إلى المبحث التاسع من كتاب «الرفيق الأعلى» المشار إليه في ما تقدم.

فلنخلد إلى أدلة الكتاب والسنة، فهما بغيتنا في هذا الكتاب.يقول رب العالمين في شأن العلم في القرآن المجيد: ـ

ـ «ولله غيب السمٰوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير. والله أخرجكم من بطون أمهـاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون». (النحل: ٧٧ ـ ٧٨).

ـ «الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان» .

(الرحمن: ١ ـ ٤) .

ـ «ولولا فضل اللّه عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل اللّه عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل اللّه عليك عظيماً» .

(النساء: ١١٣) .

ـ «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولوردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً» .

(النساء: ٨٢ ـ ٨٣) .

ـ «. . . ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون . كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» .

(البقرة: ١٥١) .

ـ «ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطيرَ وألنّا له الحديد» .

(سبأ: ١٠) .

- «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون».

(الأنبياء: ٨٠).

- «ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد للّه الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين».

(النمل: ١٥).

- «وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين».

(النمل: ١٦).

- «واللّه خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير».

(النحل: ٧٠).

لقد وجدنا في هذه الآيات البينات صوراً من منح العلم وصورة من انتزاعه وصنوفاً من العلم وكيف تتحصل. فيستحسن أن نستكمل ما تَبيّن من أمر العلم بما يذكر القرآن الكريم في شأن العلماء ومنزلتهم:-

- «أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربّه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب».

(الزمر: ٩).

- «شهد اللّه أنه لا إلـه إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً

بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم».

(آل عمران: ١٨).

- «يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذّكر إلا أولوا الألباب».

(البقرة: ٢٦٩).

الآن نسعى إلى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه - لنقبس من أنوار علومه ما يزيدنا فهماً وعلماً في مجال تلكم الآيات العظيمات: -

- أخرج البخاري: في «الجامع الصحيح» (في القسطلاني ج ١ ص ٣٢٣): «حدثنا الحميدي قال: حدثنا سفيان [هو ابن عيينة] قال حدثني إسماعيل بن أبي خالد... قال سمعت قيس بن أبي حازم قال سمعت عبد الله بن مسعود قال قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها».

- وأخرج البخاري في «الجامع الصحيح» (في القسطلاني ج ١ ص ٣٣٢) في «باب فضل من علم وعلّم»: «حدثنا محمد بن العلاء قال حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبد الله عن أبي بردة عن [والده] أبي موسى [الأشعري] عن النبي ﷺ قال «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين اللّه ونفعه ما بعثني اللّه به فعلم وعلّم ومثل من لم

يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

ـ وفي «التاج الجامع للأصول» (ج ١ ص ٦٢ ـ ٦٣) مما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي «عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه».

ـ وفيه (ج ١ ص ٦٣) مما أخرجه أبو داود والترمذي (والنص من الترمذي) «عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم. . . وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر».

ـ وفيه (ج ١ ص ٦٤) مما أخرجه الترمذي «عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد».

وإن مما كرّم به رب العالمين العلماء المؤمنين ومن عظيم مننه عليهم أن جعل لهم من فيض رحمته الشفاعة في من سواهم. فمن الأصول (التي نقلها صاحب التاج ج ١ ص ٦٥) ما أخرجه ابن ماجه بسند حسن عن عثمان

عن النبي ﷺ قال: «يشفّع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء».

وإن حسنة العلم باقية بعد رحيل صاحبها عن دار الدنيا. نقل صاحب «التاج الجامع للأصول» (ج ١ ص ٧٥) ـ رحمه الله تعالى وجزاه خيراً ـ مما أخرجه ابن ماجه والبيهقي وابن خزيمة «عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علّمه ونشره وولداً صالحاً تركه أو مصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه بعد موته».

وكفى العلم مقاماً عليّاً ومعزة في الإسلام أنه المعجزة الخالدة لخاتم النبيين ـ صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ: «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**».

لقد أوتي سيدنا موسى الكليم خارقة المألوف. شق البحر بعصاه. وألقاها فإذا هي تلقف ما صنع السحرة. وضرب بها الحجر فانفجرت منه عيون ماء. لكن أين كل ذلك اليوم؟ أين هي العصا نفسها؟ لم يبق منها غير ذكراها.

ولقد أوتي سيدنا عيسى المسيح خارقة المألوف. أبرأ الأكمه والأبرص. وخلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فصار طيراً بإذن اللّه الخلاق العليم. لكن أين كل ذلك اليوم؟ أين هي الطير وأين الأكمه والأبرص؟ لم يبق شيء إلا الذكرى.

وكل نبي أوتي معجزة كانت برهان صدقه وآية تحديه. ولقد ذهب الزمان بها وبقيت من بعضها أخيلة ذكريات قديمة.

أما خاتم النبيين، وقد أولاه مولاه ختم النبوة والرسالات، فقد آتاه الله

سبحانه خزائن العلوم ومجمع الهداية: القرآن المجيد الباقي الماثل الخالد خلود الإسلام، أنزله رب العالمين على قلبه، وتكفل له ببقائه وحفظه. وكيف لا وهو كلام الله المنزل على عبده.

نعم، جرت لحضرة خاتم النبيين عشرات من خوارق العادة والمألوف: حنّ الجذع إليه فأنّ ولم يسكن حتى وضع يده المباركة عليه. وكثر الطعام أضعافاً تحت يديه. ونبع الماء رقراقاً بين أصابعه فروي الناس حواليه. لكن خوارق المألوف هذه لم تكن أي واحدة منها ولا أعجب منها ولا كلها جمعاء بالمعجزة تحدى هو بها العالمين لإثبات نبوته وصدق رسالته من رب العالمين ـ جلا جلاله وعم نواله. إنما كانت آيته القرآن المعجز الذي هو كما قال ربنا «. . . **لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**». (الإسراء: ٨٨). وإذا أحببت أن تطلع على تلكم الخوارق فراجع من الكتب «شرح الشفاء» للقاضي عياض و «نور اليقين» للشيخ محمد الخضري ـ عليهما الرحمة ولهما الرضوان.

أخرج مسلم في «صحيحه» (المطبوع بهامش شرح القسطلاني لصحيح الإمام البخاري ج ٢ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥): «حدثنا قتيبة بن سعيد قال حدثنا ليث عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى اللّه إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وذكر الإمام النووي في شرحه لصحيح الإمام مسلم (بهامش المرجع المذكور ج ٢ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨) ثلاثة أوجه من فهم علماء الحديث نص هذا

الحـديث. أول هذه الوجوه يشبه ما ذهبنا إليه نحن وبيناه آنفاً. لكننا لإتمام الفائدة ننقل هنا عين عبارات النووي للأوجه الثلاثة تباعاً. قال عارضاً الأوجه في أقوال:

«**أحـدها:** أن كل نبي أعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء فآمن به البشر. وأما معجزتي العظيمة الظاهرة فهي القرآن الذي لم يعط أحد مثله. فلهذا قال: «أنا أكثرهم تابعاً».

«**والثـاني:** معنـاه أن الـذي أوتيته لا يتطرق إليه تخييل بسحر وشبهة بخلاف معجزة غيري. فإنه قد يخيل الساحر بشيء مما يقارب صورتها كما خيلت السحـرة في صورة عصا موسى ـ ﷺ ـ والخيال قد يروج على بعض العـوام ـ والفرق بين المعجزة والسحر والتخييل يحتاج إلى فكر ونظر، وقد يخطىء الناظر فيعتقدهما سواء.

«**والثالث:** معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم. ومعجزة نبينا ﷺ القرآن المستمر إلى يوم القيامـة مع خرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار، مع اعتنائهم بمعارضته فلم يقدروا وهم أفصح القرون، مع غير ذلك من وجوه إعجازه المعروفة ـ واللّه أعلم».

ولقد فهمنا نص الحديث على نحو جامع بين الأول والأخير مما ذكره النووي، ولعل فيه إشارة إلى الوجه الثاني أيضاً. وكل هذه الأوجه علم وخير. والمقصد المهم هنا هو أن خاتم النبيين ـ صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ قد تحدى لإثبات نبوته ورسالته بمعجزة القرآن الخالدة، كلام رب العالمين ـ جلّ

جلاله وعم نواله.

ذهب النهار بغير ما لنبينا
وبما له لا تذهب الأيام
فالمعجزات إذا عُددن فإنه
آياته القرآن والإسلام
إثنان في كنف الإله وحفظه
ما دام لأبن الأوّليْن دوام

هذا هو شأن العلم ومقامه في الإسلام. بقي أن نلم إلمامة كافية بصنوف العلم وأحكام الشريعة الغراء المتعلقة بكل صنف. وهذا ما سيصنعه الفصل السادس التالي.

الفصل السادس
أصناف العلوم

ذكرنا من قبل (في الفصل الأول) أن الشريعة الغراء لها العموم والشمول. فهي للناس كافة. وهي تشمل أطوار حياة المسلم من لدن هو جنين وحتى حياته الآخرة. (فإذا كانت تلكم المعلومات غير حاضرة الساعة في خاطركم فيستحسن الرجوع إليها الآن بغية استيعاب ما هنا). ونذكر هنا أن العلوم، علوم الإنسان، متعلقة بالإنسان (فرادى أو مجتمعين) نشأة ومآلاً. ولما كان العلم شأناً من شؤون الإنسان، وكانت الشريعة الغراء شاملة لشؤونه، فلا بد أن تكون في هذه الشريعة أحكام متوجهة إلى العلوم.

ويجدر قبل الخوض في هذه الأحكام أن نتصور إجمالاً كيف تتشعب العلوم وتتعدد. وقد سبق أن صورنا ذلك في «علم أصول القانون»، ونكتفي هنا بنقل نبذة من ذاك الكتاب تفي بالغرض. (راجع منه الفصل الأول المبحث الثاني).

«فلقد أجمع علماء مناهج الفكر على أن تمايز العلوم يتحقق بتمايز موضوعاتها. ذلك أن القواعد الكلية التي يتقوم بها أيّ علم هي . . . مؤلفة من موضوعات ومحمولات. فالقاعدة العلمية إنما هي قضية ذات موضوع

ومحمـول [أي «مسنـد» و «مسند إليه»] ، غير مختلفة في ذلك عن القضايا الجـزئية من مثـل قولنا إن مساحة هذه الغرفة المربعة هي مائة متر. إلا أن القضية الكلية ـ كما يدل اسمها على شأنها ـ تختلف عن الجزئية بأنها عامة شاملة والجزئية ليست كذلك؛ فإنك إذا قلت: مساحة المربع تعرف بضرب ضلع منه في ضلع، فكلامك هذا لا يخص الغرفة المربعة وحدها بل يعم المـربعـات كلهـا أينمـا وجدت. فالقضية متى أصبحت كلية عامة سميت «قاعدة» و «قاعدة كلية»؛ وتسمى مسألة إذا انضمت إلى أمثالها فكونت علماً معيناً؛ وفي بعض العلوم تسمى «قانوناً»، كما يقال «قانون الجاذبية» مثلاً. ولمـا كانت القـواعـد الكلية مركبة من موضوعات ومحمولات، فإنا نستطيع بالملاحظة الدقيقة أن نتبين ما إذا كانت الموضوعات في عدد كبير من هذه القواعد هي من جنس واحد أو نوع واحد. فإذا تحقق لنا ذلك فوجدنا أن مائة قاعـدة (مثلاً) تجمع بين موضوعاتها جهة وحدة من هذا القبيل، فإننا إذّاك قادرون على ضم القـواعـد المائة ضماً منسقاً وعلى تأليف علم منها يكون موضـوع البحث فيه ذلـك الجنس أو النوع الذي وحد بين موضوعات تلك الطائفة من المسائل التي تكوّن منها هذا العلم. هٰكذا صنع العلماء بالقواعد الكلية التي عرفـوهـا، فإذا بالعلوم تتعدد وتتكاثر، وإذا بكل منها يتميز عن غيره من العلوم بأن موضوعه يختلف عن موضوعاتها.

«هٰذا؛ غير أن اختلاف موضوع البحث ليس هو العلة الوحيدة دائماً لتمايز العلوم. فقد يتحد موضوع البحث في علمين اثنين وهما مع ذلك قد جعلا متمايزين مختلفين لاختلاف جهة البحث عن ذلك الموضوع في كل منهما. هذا المنهج لتقسيم العلوم متفرع عن المنهج السابق الذي فصلناه

ومتمم له. وخلاصته أن مسائل علم ما إذا تكاثرت كثرة بالغة، وصادف أن كانت منها ما تبحث عن موضوعه من ناحية معينة ومنها ما تبحث عنه من ناحية أخرى غيرها، فإن تحقيق الفائدة المرجوة من انقسام العلوم يحدو العلماء حينئذ إلى تشطير ذلك العلم شطرين يتخذون من كل منهما علماً مستقلاً، فيتمايز العلمان في هذه الحال بتمايز جهة البحث. وخير الأمثلة من العلوم التي طبق عليها هذا المنهج علما الحساب والجبر، وعلما الاقتصاد والمالية العامة، وعلما النحو والصرف العربيان. كل اثنين من هذه العلوم نشآ علماً واحداً ثم انفصلا».

فسبحان من «**علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم**». خلال مدة زمان جد قصيرة من أربعة عشر قرناً منذ نزول آية العلم والقلم إلى يومنا هذا تكاثرت العلوم تكاثراً يُعجز كل إنسان عن استيعاب عشر معشارها بل أقل من هذا بكثير. ومع ذلك قيل لنا نحن معاشر بني الإنسان إرشاداً وتنبيهاً: «**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**». ولله غيب «**السمٰوات والأرض**»، ولا نحيط «**بشيء من علمه إلا بما شاء**». جل جلاله وعم نواله، فله الآخرة والأولى.

وليس من غرضنا استقصاء آحاد العلوم هنا. بل المقصود إحاطة إجمالية بما هو نافع من العلوم وما هو ضار. والنفع حسن والإضرار قبيح. وفيصل التفرقة والتمييز بينهما إنما هو الشرع الأغر. فإن مداركه هي التي يعرف منها الحسن والقبح في الأعمال ـ سواء كانت أعمالاً من الجوارح أم أعمالاً روحية كحقائق العلوم.

ولقد مر علينا (في الفصل الثاني) أن أحكام الشريعة الغراء تنقسم إلى خمسة أنواع من الكليات هي: الإيجاب والندب والتحريم والاستكراه ثم

الإباحة. فإذا أدركنا أن العلوم لها جانب النظر داخل العقل وجانب التطبيق خارج العقل وأن الجانبين كليهما من شؤون الإنسان وخاصة أعماله، . وتذكرنا أن الموضوع العام للشريعة الغراء هو أعمال المكلفين، تحققنا من أن الكليات الخمسة المبينة لا بد أن تكون شاملة للعلوم آحاد العلوم ومجمل صنوفها وطوائفها.

وما نجد من مدارك شريعة الإسلام نصاً يحرّم شيئاً من العلوم، ما خلا علماً واحداً هو علم السحر والشعبذة الملحقة به. فافقه الآية المبينة التالي نصها:-

- «**واتبَعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمٰن وما كفر سليمان ولكن الشيـاطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون**».

(البقرة: ١٠٢).

فالسحـر أياً كان وجـه الإتيان به فهو محرم: كالعياذ بالجن لإحداث خوارق المألوف، وكالشعبذة التي سحر بها سحرة فرعون الحبال فخيّل إلى الحاضرين أنها تسعى، ومثل الأوفاق التي تكتب لمقاصد التحبيب والتبغيض بين الناس، ومثل غالب ما يجري في جلسات «تحضير الأرواح» في بلدان الحضارة الأوربية المعاصرة وجمعيات ما يدعى بتحضير الأرواح.

أمـا العلوم ما عدا هذا فتتقـاسمهـا الأحكام الأربعـة الأخـر : فمنها الـواجب ومنها المندوب إليه ومنها المكروه ومنها المباح . ويتفرع الواجب إلى فرض عين وفرض كفاية . فما هو من قبيل فرض العين كالعلم بآساس العقيدة في الإسـلام ـ تلك التي بينـاهـا في الفصل الأول . أما العلوم ذوات النفع للإنسان شخصه ومجتمعه، كالطب والصيدلة والهندسة والنسيج والكيمياء والفيزياء وأمثالها، فهذه كلها من قبيل فرض الكفاية في دولة الإسلام: إذا نهض بها طائفة من المسلمين ارتفع التكليف عمّن سواهم؛ وإذا عمد إلى إهمالها كلهم أثموا جيمعاً بترك ما هو فرض كفاية في شريعتهم .

ولنستزد بياناً في هذا الباب بالنظر في أمر الشريعة ذاتها في أيّ موضع هو مقامها من حيّز الكليات الأربعة ـ وهي علم بل مجموعة علوم . لقد سبقني إلى هذا المبحث شيخ مشايخ «علم أصول الفقه»، واضع هذا العلم، الإمام الهمام محمد بن إدريس الشافعي من «علماء الأمصار» ـ جزاه اللّه بما عمل وزاده من فضله وإحسانه . فلنوجز هنا ما أفادنا هو به من تفصيل .

جملة أحكام الشريعة الغراء تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: «علم العامة». وهو المتألف من الأحكام التي لا يسع إنساناً بالغاً عاقلاً من الذكور والإناث إلا العلم بها ما دام فرداً من أفراد الأمة . ومن أمثلتـه كون صيام رمضان واجباً والزواج حلالاً مندوباً إليه والاغتصاب حراماً في شرعة الإسلام .

والقسم الثاني: «علم الخاصة». وهو المتكون من الأحكام والقواعد القانونية المفصلة التي يختص بمعرفتها الفقهاء والمجتهدون دون سائر الناس ـ حتى إذا أحـاط بهـا من أحاط غدا فقيهاً بعلمه . ومن أمثلته أحكام عقود

المزابنة والمرابحة والمخابرة والقراض وبيع الأعدال على البرامج.

أما المفصلات من آداب صيام رمضان ومن أحكام عقد النكاح والعشرة والنفقة، ومن إجراءات الإتهام والإثبات والعقاب في جرائم الاغتصاب، فهذه كلها من قبيل القسم الثاني.

وأما صفوة آساس العقيدة في الإسلام فهي ـ كما أشرنا قبل قليل ـ من القسم الأول، أي العلم العام لجميع المسلمين والمسلمات.

نفهم من ذلك كله أن علم العامة إنما هو «المعلوم من الدين بالضرورة» يعرفه أفراد الأمة، العالم منهم وغير العالم، يجمعون عليه هٰكذا فهو سبيل المؤمنين. وهو لذلك فرض عين. وهذا هو حكم صفوة آساس العقيدة.

- **«ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً».**

(النساء: ١١٥).

ونفهم كذلك أن علم الخاصة، أي القسم الثاني من الشريعة، إنما هو فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم أغنوا سائر أبناء الأمة.

- **«وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون».**

(التوبة: ١٢٢).

فحكم علوم الشريعة الغراء في الشريعة الغراء أن بعضها فرض عين وبعضها فرض كفاية. وفي هذا غاية البيان.

أما الأحكام التي تحيط بها الشريعة الغراء فهي كما قلنا آنفاً الأحكام من قبيل الكليات الخمسة جميعها ـ وقد أحاط بها القارىء علماً.

ولعلك الآن ترغب في التعرف على العلم المكروه. مثاله علم الألعاب تلك التي تورث الغفلة ولا تنفع شخص الإنسان ولا مجتمعه أيّ لون من النفع بل تمسي مضيعة للوقت والجهد. هذه مكروهة إذا تألفت من أعمال إن تجردت فآحادها مباحة. أما إذا اشتمل التأليف على ما هو محرم من الأعمال فالكراهة تنقلب إلى التحريم وفاقاً.

بل لعلك ـ أيها الرفيق القارىء ـ تتوق الآن إلى معرفة حكم الشريعة الغراء في علوم الذرة من جانبيها النظري والتطبيقي. فاعلم أن دولة الإسلام متى قامت في عصرنا هذا على أي بقعة من بقاع المعمورة فحكم هذه العلوم فيها هو الوجوب فرضاً كفائياً. وذلك لأن الحفاظ على الإسلام، دولته وشرعته وحضارته وأهله وأمته، سيكون متوقفاً كل التوقف على إتقان هذه العلوم. والحفاظ على هذه كلها واجب وجوباً موكداً. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومتى تقدمت الكثرة الكاثرة من أبناء هذه الأمة الإسلامية فأصبحت أبناء أمة الإسلام المثقفين بثقافة الروح وتربيته في الإسلام، متى تحقق هذا التقدم عادت العزة للأمة فمقتت ذلة الخنوع للاستعمار بل للاستخراب السائد من الحضارة الأوروبية المعاصرة، فقامت دولة الإسلام تارة أخرى على وجه الزمان. وعهدئذ تشعل دول الحضارة الأوروبية ـ وما أسرعها إلى إشعال نيران العدوان والحروب ـ حرباً خرقاء ضد تلك الدولة الفتية، مستعملات فيها كل ما يملكن من قوة التخريب والدمار ومنها الأسلحة النووية. والدفاع عن النفس

والذب عن حياض الإسلام واجب فرض لن تتوانى عنه الدولة الفتية وشعبها عصرئذ بكل ما أعدت من وسائل الجهاد الشريف ـ ومنها المفاعلات النووية .

ولـو لم توجـد هذه الأوضاع كلها كفت محاسن الاستخدام السلمي لتلكم العلوم موجبـة لاعتبـارهـا من فروض الكفـاية . لكن جاحدي القوى والأعمـال الروحيّتين في الإسلام هم العقبات والعوائق في طريق مثل هذا التقدم الحضاري المنشود . اللهم اهد قومي : إنهم لا يفقهون ولا يعقلون .

ولن تكون عداوة تلكم الدول للإسلام بدعة جديدة . إنها صراع بين حضارتين : حضارة أوروبية مادية كافرة ، وحضارة إسلامية روحانية مؤمنة . لكن السـواد الأعظم من المسلمين ما برحوا في غفلة سادرين . ولكن الأسلاف الماضين لشعوب تلكم الدول قد حاربوا الحضارة الإسلامية وهي في مهدها ، وحاربوها وهي تعلو وتترعرع ، ويحاربها أخلافهم اليوم بعد أن زالت دولتها فلم تبق منهـا إلا بقـايا حضـارة منحسرة تمقتها وتنذعر منها الحضارة الأوروبية السائدة اليوم . والدنيا حول ، والدولات دول . وليس هنا من متسع لتفصيل هذه الحقائق والشؤون ، فإذا أحببت مزيداً فراجع كتابنا «الحرية الجامعية» .

ويا ابن الإسلام : لا تستصغرنّ نفسك ، ولا تستعظمن ابن الحضارة الأوروبية . إنها من أسلافك العلماء قد أخذت «علم الذرة» ، كما أخذت أرقام الحسـاب والرياضيات . لكنها حضارة دجل تعادي الينابيع التي منها نهلت حتى ارتوت . علماء الإسلام هم الذين خاضوا مباحث علوم الذرة منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، ثم بعد قرون أخذت أوروبا من كتبهم حين بدأت تخرج من ظلمات عصورها الوسطى . ولكي تتنور فلا تستوحش مثـل مقـالي هذا ، سأنقـل لك جملاً من كتبهم تبصرك بالقضايا التي كانوا

خائضين فيها من علم الذرة، وتجمل لك صورة لمجامع أفكارهم في العلم الجديد بين أيديهم عصر ذاك. فهاك من العلامة سعد الدين التفتازاني في كتابه «شرح المقاصد» (من منشورات مطبعة الحاج محرم أفندي البسنوي بدار الخلافة العلية عام ١٣٠٥، الصفحات ٢٨٦ ـ ٣١٨) هـذه المقتطفات الراسمة لهذه الصورة دون أن تخرجنا من الاختصار إلى التطويل:

«أما تقسيمه [أي الجوهر والمراد به المادة] على رأي «المتكلمين» [أي العلماء المسلمين المتخصصين في علم التوحيد] فهو أن الجوهر لما كان عبارة عن المتحيّز بالذات فإما أن يقبل الإنقسام وهو الجسم أو لا يقبل الإنقسام وهو «الجوهر الفرد» [أي الذرة].

«وللمتكلمين في كون الجسم من «أجزاء لا تتجزأ» [أي الجواهر الفراد] طريقان: أحدهما إثبات أن قبول الإنقسام مستلزم لحصول الأقسام. وثانيهما إثبات جوهر في الجسم لا يقبل الإنقسام أصلاً أي لا قطعاً ولا كسراً ولا وهماً ولا فرضاً.

«فإن قيل إثبات الجوهر الفرد لا يفيد المطلوب أعني تركب الجسم منها، قلنا نعم إلا أنه يكفي لدفع ما يدعيه الفلاسفة من إمتناعه. على أن بعض الوجوه المذكورة مما يفيد أصل المطلوب [أي تركب جميع الأجسام من الذرة]. وبالجملة فلهم في هذا الطريق مسالك.

«منها ما يبتني على أن قبول الإنقسام يستدعي حصول الأقسام بالفعل. وفيه وجوه: الأول أن اللّه تعالى قادر على أن يخلق في أجزاء الجسم بدل اجتماعها الافتراق بحيث لا يبقى اجتماع أصلاً. وذلك لأن نسبة القدرة إلى الضدين على السواء. وإذا حصل الافتراق ثبت الجزء الذي لا يتجزأ. إذ لو

كان قابلاً للتجزي لكان الاجتماع باقياً.

«الثاني أنه لو لم يثبت الجزء الذي لا يتجزأ لما كان الجبل أعظم من الخردلة لأن كلاً منهما حينئذ يكون قابلاً لانقسامات غير متناهية فتكون أجزاء كل منهما غير متناهية من غير تفاضل وهو معنى التساوي.

«المبحث الرابع في تفاريع المذاهب: من فروع القول بكون الجسم من الجواهر الفردة اختلافهم [أي المتكلمين] في أن الجوهر الفرد هل يقبل الحياة والأعراض المشروطة بها كالعلم والقدرة والإرادة؟ فجوّزه الأشعري، وجماعة من قدماء المعتزلة وأنكره المتأخرون منهم... ومنها اختلافهم في أنه هل يمكن وقوع جزء على متصل الجزأين؟ فأنكره الأشعري لاستلزامه الانقسام. وجوّزه أبو هاشم والقاضي عبد الجبار. ومنها اختلافهم في أن الجوهر الفرد هل له شكل؟ فأنكره الأشعري. وأثبته أكثر المعتزلة... وإنما الخلاف في أنه هل يشبه شكلاً من الأشكال. فقال القاضي لا. وقال غيره نعم.

«ثم اختلفوا: فقيل يشبه الكرة لأن في المضلع اختلاف جوانب. وقيل المثلث لأنه أبسط الأشكال المضلعة. وقيل المربع لأنه الذي يمكن تركب الجسم منه بلا فرج... وشبهوه بالمكعب لأنهم أثبتوا له جوانب ستة وزعموا أنه يمكن أن يتصل به جواهر ستة من جوانب ستة وإنما يكون ذلك في المكعب. وقد يستدل على وجوب الشكل له بأنه متناه ضرورة فتكون له نهاية وحدّ يحيط به، إما واحد فيكون كرة أو أكثر فيكون مضلعاً.

«ونقل الآمدي اتفاق الكل على أن له حظاً من المساحة... والمذكور في كلام المعتزلة أن له حظاً من المساحة، ومن الطول عند ابن الراوندي

(المتوفى عام ٢٤٥هـ). واتفق أبو علي وأبو هاشم على ألا حظّ له من الطول. ثم اختلفا فذهب أبو علي إلى أن لا حظّ له من المساحة لأنها أيضاً باعتبار التأليف. وذهب أبو هاشم إلى أن له حظاً من المساحة لأنها اسم لتحيز الجوهر وجرمه الموجب لتكاثفه عند انضمام أمثاله إليه.

«ومنها اختلافهم في أن الجوهر الواحد هل يوصف بالجهات؟ وفي أنه هل يجوز أن يُرى؟ وفي أنه هل يجوز أن يصير بثقل الجبل؟ وفي أنه كم يجوز أن يلقاه من الجواهر؟ . . . وفي أنه هل يجوز أن تحله الحركة والسكون على البدل؟ وفي أنه هل يجوز أن تحله أعراض كثيرة؟ وتفاصيل ذلك مذكورة في المطولات [من كتب علماء الحضارة الإسلامية].

«ثم المشهور من الطائفتين، أي القائلين بكون الجسم من أجزاء لا تنقسم أصلاً والقائلين بأنها تنقسم وهما لا فعلاً، أنها متماثلة أي جوهرها واحد بالطبع في جميع الأجسام. فاختلاف الأجسام إنما يكون بحسب الأعراض دون الماهيات . . .

«المبحث الخامس في أحكام الأجسام: فمنها أن الأجسام متماثلة أي متحدة الحقيقة وإنما الاختلاف بالعوارض. وهذا أصل يبتني عليه كثير من قواعد الإسلام، كإثبات القادر المختار وكثيرٍ من أحوال النبوة والمعاد. فإن اختصاص كل جسم بصفاته المعينة لا بد أن يكون بمرجح مختار. إذ نسبة الموجب إلى الكل سواء، ولما جاز على كل جسم ما يجوز على الآخر كالبرد على النار والحرق على الماء ثبت جواز ما نقل من المعجزات وأحوال القيامة. ومبنى هذا الأصل عند المتكلمين على أن أجزاء الجسم ليست إلا الجواهر الفردة وأنها متماثلة لا يتصور فيها اختلاف حقيقة. ولا محيص لمن اعترف

بتماثل الجواهر واختلاف الأجسام بالحقيقة من جعل بعض الأعراض داخلة فيها». إنتهت مقالات العلامة التفتازاني ـ جزاه الله خيراً.

وتلك هي رؤوس الأقلام من مباحث علوم الذرة التي أثارها وخاضها العلماء المسلمون. والمطلع على الفيزياء النووية اليوم يدرك أن بعض تلكم الأسئلة ما تزال تفتقر إلى أجوبة فمزيد تقدم في هذا المجال من العلم. مثالها مسألة احتمال وجود الإدراك والإرادة في الذرة. وقد فصّلت القول فيها بعض الشيء في المبحث التاسع «عودة إلى الفيزياء» من كتابي الموسوم «بالرفيق الأعلى». ولينتبه من يراجعه إلى أن مصطلح «الجوهر الفرد» قد استعمل هنالك بمعنى «ألكترون»، وأسلافنا استعملوه بمعنى الذرة كما رأيت في كلام العلامة التفتازاني المنقول آنفاً.

فكون عالم المادة مؤلفاً كله من الذرة قد كان مذهب علماء الإسلام المؤمنين الموحدين. وكونه مؤلفاً من «الهيولى والصورة» قد كان مذهب الفلاسفة ـ وقد أخفقوا في تعيين ماهية الهيولى وأخفقوا في تحديد مدلولها.

علمنا مما تقدم أن العلوم في حضارة الإسلام منها ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية وما هو مندوب إليه. فلنسأل الآن: هل من تفاضل في القدر والشرف بين العلوم؟ وإذا كان فما هي الخصال المؤثرة في التفاضل؟

الحق أن العلوم تتفاضل في ما بينها بتفاضل موضوعاتها غالباً، وبها وبمحمولاتها في بعض العلوم.

«علم الطب» و«علم صناعة النعال» كلاهما فرض كفاية. لكن أولهما أفضل من الثاني. والعلة أن الموضوع الكلّي لعلم الطب هو «الإنسان» من

حيث الصحة والمرض، ولعلم النعال هو «النعال» من حيث الصنعة وجودتها. والإنسان أفضل وأشرف من نعله ـ كما لا يخفى.

وتتفاضل الموضوعات الكلية إما لذواتها، أو لمساس حاجة الإنسان إليها في مجتمعه ومعاشه وحياته بدرجات متفاوتة.

فإذا استوعبت ما عرضناه بايجاز مغن عن الإطناب سهل عليك إدراك الحقائق التالي ذكرها: ـ

الأولى: أن الذروة العليا من أوج دائرة العلوم هي للكتاب المجيد كلام الله سبحانه جل جلاله، ثم للسنة المباركة أقوال خاتم النبيين وأفعاله وهو المعصوم المؤيد بالوحي المبين ـ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين. هٰذان هما العليان موضوعات ومحمولات ومقاصد جملة وتفصيلاً. وهما المصدران الأساسان ـ كما علمنا آنفاً ـ للشريعة الغراء وعلومها. والقرآن المجيد خزائن وكنوز من العلم والمعرفة والهداية لا تنفد.

الثانية: أن المنزلة السامية التالية في فلك هذه الدائرة هي «لعلم ذات الله وصفاته» و «علم الشريعة والفقه» و «علم الحياة الخالدة» فإن «علم ذات الله وصفاته» هو أفضل العلوم وأشرفها وأجلّها على الإطلاق. وهو الملقب بألقاب «علم التوحيد» و «علم العقائد» و «علم الكلام» و «علم أصول الدين». هي أسماء لمسمى واحد. وهو الجزء الرئيس من الشريعة الغراء بأن الاعتقادات هي من أفعال العباد القلبية ويتعلق بها التكليف وأحكام الشارع. ويدور فيه الكتاب والسنة وينفتح العقل. وكيف لا يكون في هذه المنزلة السامية والكلام فيه عن ذات اللّه وصفاته وأفعاله ـ جل جلاله وعمّ نواله. وإن

البحوث كلها المتشرفة بالكلام في هذا الموضوع فهي من قبيل هذا العلم وإن وردت في مظان علم آخر أو كتب في علوم آخرى. والشريعة الغراء موضوعها أعمال الإنسان ومحمولاتها أحكام قوانين اللّه جل شأنه وما استنبط منها واستخرج وقد تقدم وصفها وذكر عمومها وشمولها في صدر هذا الكتاب. أما «علم الحياة الخالدة» فيعنى بحياة الإنسان الخالدة إبتداء من هذه الدنيا الفانية وعروجاً إلى عالم الجنان والخلد ومرضاة رب العالمين أبد الآبدين. وإن الذي تقرأ فيه الآن إنما هو كتاب في علم الحياة الخالدة. ولذلك ترى مسائله مقتبسة من الكتاب والسنة وعلوم الشريعة الغراء. فالعلوم الثلاثة المذكورة هٰهنا مترابطة متساندة متداخلة المُسائل والمقاصد والغايات.

الثالثة: هي منزلة التكريم والمحمدة لسائر علوم الإنسان، هذه العلوم التي علّمت بالقلم ليتعلم الإنسان دوماً فيعلم ما لم يكن يعلم. وهذه على الدائرة المذكورة تتفاضل على وفق مقتضيات مجتمع الإنسان في نواحيها الكثيرة كثرة مانعة عن إحصاء مظانها في هذا الكتاب. بيد أنا نملك إحصاء الأنواع المتفاضلة من العلوم هذه على وجه الإجمال، وهذا بتطبيق قواعد الرجحان في علم أصوال الفقه بين أحكام القوانين الشرعية على أساس تراجح متعلقات الأحكام ذواتها من حيث الخطورة والأهمية في حياة الإنسان. فالعلوم المتصلة بضروريات الحياة تترجح على العلوم المتصلة بالحاجيات. والمتعلقة بالحاجيات تتقدم على المتعلقة بالتحسينيات. ويكفينا هنا هذا المقدار من معر فة التفاضل بين العلوم من هذا القبيل. ويكفي هذه العلوم أنها في مقام الاعتزاز والكرامة في الإسلام.

أما «علم الحياة الخالدة»، وهو مجال هذا الكتاب، فلعله يدعو إلى

مزيد أسطر تجلو عنوانه. هو علم موضوعه الإنسان من حيث روحه وتزكيته وحياته الخالدة في محبة الله تعالى ورضوانه وجناته الباقيات. ويستمد مسائله من الكتاب والسنة استمدادا مباشراً ومن مصادر الشريعة الغراء ومداركها. غايته إخلاص العبادة لله، والاهتداء فيها إلى مرتبة الإحسان، فالفوز بمرضاته، والأنس بمناجاته في دار الفناء ودار البقاء، فصلاح المجتمع بصلاح أفراده على السواء. وموازينه الشريعة الغراء للتمييز بين الحق والباطل، والطالح والصالح، والخير والشر، من أعمال القلوب والجوارح.

وإذا كانت للعلوم في حضارة الإسلام تلكم المقامات العلية رأيناها ووصفناها فلابد أن يكون في شريعة الإسلام الغراء آداب خاصة بتداول العلوم وتعليمها وتعلمها. فلننظر إلى هذه الآداب وأحكامها في الفصل السابع.

الفصل السابع
آداب العلم

للّه ما أعظم الإسلام! لا يدع أمراً ذا بال إلا جعل فيه حظاً من عمل الروح، أو بناه على أساس منه متين. وها هو العلم، تعليماً وتعلماً، فانظر على أي أساس هو مبناه.

العلم لوجه اللّه

في «التاج الجامع» (ج ١ ص ٧٤) مما أخرجه الترمذي بسند حسن وابن ماجه عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - قال: «من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار».

وفيه مما أخرجه أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة».

وفيه (ج ١ ص ٧٦) مما أخرجه مسلم والترمذي عن جرير بن عبد الله عن النبي - ﷺ - قال: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء. ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من

أوزارهم شيء».

فالوجه في العلم، أخذاً وعطاءً، ينبغي أن يكون للّه تعالى خالق العلم والعالم والمتعلم ـ بل خالق الخلائق أجمعين. فالشأن في العلم إذن أنه مرتكز على النية والإرادة وتمحيضهما لوجه اللّه جل جلاله، وهذه إنما هي من أعمال القلوب. لقد جعل الشارع العظيم الحسن والقبح في العلم متميزين بفاصل تفرقة بينهما روحاني شبيه بفيصل التفرقة بين الكفر والإيمان وإن لم يكن عينه. عمل الفكر في ثانيهما يتجه إلى ذات الباري إيجاباً للإيمان أو سلباً في الكفر. وعمل الفكر في أولهما إما أن ينصرف إلى الباري جلا جلاله تمحيضاً لغاية العلم فيه إحساناً للعبادة، أو أن ينصرف عنه ـ تعالى ـ ابتغاء عرض الدنيا فيحل الكفران بنعمة العلم محل ما يجب من الشكران وتتبدل الطاعة بالعصيان. ومن هٰهنا الوعيد الذي قرأناه في نصوص الأحاديث الشريفة المتقدمة. وإن لجعل العلم لوجه الله سبحانه علاقة بما يلي تحت العنوان التالي.

العلم مشاع

العلم في الإسلام مشاع لا يختص به قارون مال أو باطش ذراع. هو للصغير والكبير وللغني والفقير. وربما برّز فيه صاحب فقر فساد ذا المال الكثير، ولمع في آفاقه صغير فروى عنه الكبير. وإنه لفي الإسلام رواية الأكابر عن الأصاغر. وهٰهنا ارتباط الحقائق تحت هذا العنوان بالحقائق تحت العنوان السابق. فإن الجانب التطبيقي لجعل العلم لوجه الله تعالى هو أن يجعل العلم مشاعاً بين عباد اللّه قريباً من وجه اللّه بعيداً عن الأثرة والاحتكار ومجافاة حق اللّه ـ جل جلاله وعم نواله.

في «التاج الجامع» (ج ١ ص ٦٧) مما أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه اللّه بلجام من نار يوم القيامة». وإذا كان العلم المكتتم عن الناس من علوم الكتاب والسنة والشريعة الغراء فالذنب في كتمانه أغلظ. إقرأ قوله تبارك وتعالى: -

- **«إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم اللّه ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم».**

(البقرة: ١٥٩ - ١٦٠).

واستنباطاً من هذه الأصول نذهب إلى استكراه أخذ الأجرة على التعليم في دولة الإسلام. وتأريخ العلم والعلماء في الإسلام خير شاهد على مجانية التعليم عند المسلمين. وكيف لا وقد فهموا تعليم العلم قربة للّه المعطي الكريم.

ولا يفهمّن أحد مما تقدم استكراه الرواتب يأخذها من مدارس الحكومة المعلمون والمدرسون والأساتذة للوفاء بحاجات معاشهم. إنها حقهم من بيت المال من الخزانة العامة. فإن العلم والتعليم يحتاج فيه على الأغلب الأعم إلى الانصراف والانقطاع عن عمل سواه، فيصير من شأن المنصرف أن تصيبه البطالة الإجبارية عن الكسب؛ ولما كانت البطالة ممنوعة في الإسلام فإذا أتت إجبارية بحكم واقع الحال فبيت المال هو المسؤول عن رفعه والوفاء بما يحول دونه. ومن ثم ينشأ لأهل العلم في الإسلام حق كريم يأخذونه رواتب شهرية أو سنوية أو على أيّ وجه يستدعيه تنظيم دفع الاستحقاق. هذا على

قدر تعلق الأمر بالترتيب العام.

أما إذا بحثت في عالم الإسلام عن أحوال الأئمة الأعلام الذين وجهوا أرواحهم إلى رب السماوات والأرضين فسموا على مدارج العروج إليه اتباعاً لهدي خاتم النبيين ـ أما هؤلاء فنقرأ من أحوالهم العجب العجاب.

هذا التابعي المجتهد الجليل أبو حنيفة نعمان بن ثابت الكوفي، شيخ مجتهدي المدرسة الفكرية العراقية في قوانين الإسلام، يدرّس علومه طوال حياته مجاناً ويرفض منصب قاضي قضاة الدولة العباسية العظمى، ويقسم نهاره بين التعليم وبين كسب معاشه في دكان يعمل فيه قزازاً. ثم ينفق أكثر ما يكسب في معونة طلاب العلم والصدقة للفقراء والمحتاجين.

وهذا المجتهد الجليل محمد ابن إدريس الشافعي، إمام أهل الحديث من علماء الأمصار، ينشأ فقيراً ويعلو به مقام العلم فقيراً. وحينما يهدي إليه أمير المؤمنين الرشيد عشرة آلاف من دنانير الذهب يخرج هو من عنده فيدفع منها أجور النساخين والوراقين ليستنسخوا له كتب المجتهدين العراقيين، ويوزع أكثرها الباقي بين الفقراء والمحتاجين في يوم واحد. ويبقى هو ذلك الروح الجليل الزاهد في متاع الدنيا الراغب في مرضاة الله والحياة الخالدة.

وهذا أبو إسحاق (المتوفى سنة ٤٧٦هـ)، صاحب «المهذّب» في الفقه الشافعي، قد ملأ بغداد علماً وفقهاً. وقد اكتفى لغذاء يومه بقرص خبز كان يأخذه من جراية أهل العلم ثم يمضي به آخر النهار إلى صديق له في السوق يبيع الباقلاء المسلوقة ليليّن القرص بباقي ماء القدر قبل أن تكبّ ـ وكان لا يقبل من الباقلاء شيئاً. وأراده خليفة عصره في سفارة إلى ما وراء النهر لإصلاح حال المسلمين، فلم يقبل لجهاز السفر غير دابة تحمله، هذه التي

تلقب بمركب الصالحين. وكان قد ذاع صيت علمه وزهده، فما مر في طريقه بمدينة إلا خرج أهلوها للإحتفاء به ووزعوا الرياحين والحلوى تعبيراً عن ابتهاجهم بمقدمه. أما هو صاحب الروح الجليل فبقي على جرايته لمعاشه، ومضى ينشر العلم من حوله أينما حلّ فينبث من أكمامه عطر الحياة الخالدة لكل صاحب ذوق وشم.

اللّهم ربنا أجزل العطاء للسلف الصالح من خزائن رحمتك التي لا تنفد، واجزهم عنا خيراً. اللّهم وأفض علينا من بركاتهم، واسلك بنا مسلك كراماتهم ـ إنك أنت الكريم الوهاب.

تعليم النساء

وهذا مرتبط بالذي قبله. إذ العلم كيف يكون مشاعاً متى حرمت منه المرأة. وإنه لفي شرعة الإسلام وظلال رياضه كان أن نشأت عالمات جليلات علّمت منهن من علّمت روائع العلوم ووصلت من وصلت منهن مرتبة الاجتهاد. ولننظر في هذا الشأن كيف تأدبت الصحابيات على عهد السعادة وماذا شرع لهن رسول اللّه ـ صلى الله وسلم عليه وعليهن جمعاوات.

أخرج البخاري في «صحيحه» (القسطلاني ج١ ص٣٥٩): «حدثنا آدم قال حدثنا شعبة [ابن الحجاج] قال: حدثني ابن الأصبهاني [هو عبد الرحمن بن عبد الله الكوفي] قال سمعت أبا صالح ذكوان يحدث عن أبي سعيد الخدري قال: «قال النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهن يوماً لقيهن فيه [يعلمّهن] فوعظهن وأمرهن [بأمور الدين] فكان فيما قال لهن: «ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لهن حجاباً من النار. فقالت امرأة واثنين فقال: واثنين».

ونذهب، استنباطاً من هذا الأصل، إلى عدم الجمع بين المراهقين والمراهقات والشبان والشابات في أية مرحلة من مراحل الدراسة المتوسطة والإعدادية والعالية في المعاهد والجامعات. والحكمة الشرعية واضحة. ليس يوجد أي منفعة فردية ولا جماعية في هذا الاختلاط من جانب التربية والتعليم. بل فيه مساوىء التكليف بمواد علمية محددة في أعمار معينة للذكور والإناث على السواء، على الرغم من تفاوت نمو الاستعداد بينهما لتلقي أنواع العلوم بتفاوت سنوات الأعمار ـ فلبعضها تتقدم الإناث ولبعضها تتقدم الذكور، وهذه حقيقة في الطبيعة تستدعي التمييز لا التوحيد في توزيع مواد الدراسة على السنوات.

وحقيقة أخرى هي أن الدول الإسلامية التي جنحت إلى التعليم المختلط إنما جنحت إليه عن تقليد عديم التروي لمسالك الحضارة الأوروبية المتسلطة، ودونما نظر إلى جانب الحضارة الإسلامية المكرهة اليوم على الأنحسار عن أوطانها. هاتان حضارتان متباينتان مسالك وغايات لا يمكن الجمع بينها.

ففي ما نحن بصدده في هذه الأسطر تتعارض الحضارتان في المسالك التالي ذكرها. الأوروبية منهما تبيح الزنى وتهيىء لشيوعه الأجواء والأسباب، وترمي إلى تحديد النسل، والعرض والنسل فيهما غير مصون. وإثارة الشهوات والغرائز بمجمع الذكور والإناث في المدارس والجامعات حال منسجمة كل الإنسجام مع هذه الغايات في الحضارة الأوروبية حيثما وجدت.

أما الإسلامية من الحضارتين فإنها تنهج مناهج تحبيب الزواج وتعميمه، وتكوين الأسر الفتية وتشجيعها، وصيانة النسل ورعايتها، ومن ثم

تحـريم الزنى والعهر، ووقاية المجتمع من تفشي الأمراض الجنسية ـ ومنها العاهة المستعصية المشتهرة بلقب «آيدس» أو مرض فقدان المناعة الذاتية. كل هذه إلى جانب الحسنات النفسية والاجتماعية في الزواج على سنة الإسلام.

وحضـارة هذه منـاهجها ومقاصدها ليس يلائمها تيسير سبل اختلاط الشبان والشابات في مجمع غير موجه ولا منظم كالمدارس والجامعات، حيث تتيسر الاختلاء وصحبة فوضى بين الذكر والأنثى. ههنا مظنة السوء والعبث بعيداً عن مشاعر التقوى.

أما ملتقى الخير والتقوى في أجواء العبادة والسمو الروحي فذاك مجمع النساء والرجال في حرم الصلاة، حيث ترى الشابات ويرى الشبان على نوايا العفاف والأمانة والطهر وخلجات الأرواح المطيعة لخالقها، وذاك هو المتلائم مع المناهج والمقاصد في حضارة الإسلام.

فعلى عهد السعادة حضرت النساء مع الرجال في مسجد رسول الله يصـطففن، وصفوف الرجال بين صفوفهن وبين القبلة، حيث أدى الجميع فرائض الـصـلاة يؤمـهم خاتم الأنبياء والمـرسلين ـ صلى الله عليه وعلى الأصحاب والصحابيات أجمعين. ثم لا تسل عن الخشوع والحشمة والرزانة عند الحضور وعند الإفاضة من الصلاة!

وإذا كنت ـ أيها الرفيق القارىء ـ شاباً أو شابة وأحببت أن تتصور سيرة اختيار زوج لك بين المصلين أو المصليات فلعلك تجد الصورة المطلوبة في هذه الأبيات من الشعر الإسلامي:

ثم لاح الفجر والفجر وميض
من هدى في قلبي الواعي يفيض
أنا عقل وفؤاد يستفيض
من سماء الخير إيماناً وريّاً ونبيّا(١)

جَرِّد القلب ففي الأوهام حطّ
لم يبرهن لفناه العقل قطّ
كان يُسرى بي ودنياي محطّ
وسيأتي عهد معراجي إلى اللّه عليا

إلتقط يا قلب في الأكوان لفظ
من لسان الحال يأتينا ووعظ
إتّقد فاللفظ وجدان ولحظ
إنه اسم اللّه لولاه لما عدت زكيا

واترك الأوزار إثماً وابتداعا
يا كريماً جلّ أن تبغي الضياعا
وانفع الناس وكن فيهم شعاعا
صادقاً عفا نبيلاً وفؤاداً لوذعيا

عابد الشهوة من خان وراغا
ملأ الفكر ضلالات وصاغا

(١) هذه قطع من معلقة طويلة استغرقت بالرويّ حروف الهجاء، وتروي قصة حياة إنسان مذهو جنين إلى أن اغتلم فغوى ثم شبّ فاهتدى. هي من مخطوطة ديوان شعر لم يطبع بعد وعنوانه «نفحات الحياة».

متعته ثم جازته الفراغا

ومآلا غمرات الموت تدنيه شقياً

إيه ما هذا؟ نسيم وحفيف؟

أم ترى روح زكيّ ولطيف!

عطره سار ومسراه خفيف

هي ذي أمي أراها تصل الإبن الحفيا!

طبت أماه أنا المشتاق حقا

وفؤادي بهدى الإيمان رقا

بلغي الوالد إكباراً وشوقا

وغداً في جنة الخلد أوافيكم رضيا

هبّ للمسجد يمضي بعد ذاكا

فرأى بعد صلاتيه ملاكا

وهفا القلب ولكن يا تّراكا

بعد رشد يرجع الولهان والصب الفتيا

ومضت غبّ أداء الفرض حالاً

لم تمل قط يميناً وشمالاً

أخفت الحسن فأضحى يتلالا

يعتلي جلباب طهر وخماراً مغربيا

قصد الشيخ فتانا المستهام

يشرح الحال له فهو الإمام

رب مستفت وفي الفتوى غرام

فانبـري الـشيخ يزكي قلبـه البّـر الغنيا

أنـت عف تعـشـق الـروض الأغـنـا
وهـي بكـر بهـدى الـروح تغـنـى
فاصـطبـر إنـي أنـا بالأمـر أعـنـى
ويرى الـصنـوان في دينهمـا حبـاً وريا

خطب الـشـيخ بلطف وتـروّى
وحـديث عن رسـول اللّه يروى
والـتـقـت أفئـدة الـقـوم لتـروى
زهـر بعـد زفـاف قد أراداه نقـيا

عاد للدار فتـانـا بخـطاه
وخـطى نجـم أنـارت منـتـهـاه
فهـمـا روح رضـاهـا من رضـاه
وجـدا في الحب والإخـلاص ميثـاقاً قويا

سبـحـا للّه فجـراً وعـشـيا
ويـدا الـمـعـراج أمـراً منـطقـيا
وُهـبـا فيه نعـيمـاً أبـديا
وبهـدْي الأحمـد الهـادي سلامـاً مشـرقياً

ويروي الإمام البخاري في صحيحه (القسطلاني ج ١ ص ٣٩٤) أن عائشـة أم المؤمنين قالت: «نِعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين».

متابعة العلم

ولما في هذا العنوان صلة بالذي في ما قبله. فمتابعة العلم استكمالاً له هي من آداب العلم في الإسلام. وأنموذج أدب المتابعة يأتينا من سيدة في عهد السعادة وصلت في الفقه منزلة الاجتهاد وصححت الفتيا لبعض كبار المجتهدين في عصرها. هي أمنا آم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد تلقت العلم بادئة من أبيها أبي بكر الصديق ثم عند رسول الله صلى الله وسلم عليه وعلى أهل بيته وأصحابه أجمعين.

أخرج البخاري في «صحيحه» (القسطلاني ج١ ص٣٦٠): «حدثنا سعيد ابن أبي مريم قال أخبرنا نافع بن عمر[الجمحي] قال حدثني ابن أبي مُلَيكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه. وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عذب». قالت عائشة فقلت «أو ليس يقول اللّه تعالى: «**فسوف يحاسب حساباً يسيراً**». **فقال**: «إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك». هذا وإن من متابعة العلم السفر لتحصيل العلم ـ كما سنرى في العنوان التالي.

الرحلة لتحصيل العلم

سبق أن نقلنا في الفصل الخامس ما أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهّل اللّه له طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم...».

وإن أخبار أهل العلم المسلمين ورحلاتهم لتحصيل العلوم قد ملأت الأسفار وألف فيها العلماء الكبار. ولأهل الحديث منهم ما يوجب الإكبار.

مجانبة الإملال

وإن من آداب العلم في الإسلام مجانبة إملال المتعلمين وإرهاقهم بكثرة الدروس. فالمتعلم محتاج إلى المراجعة ومزيد تفكير في ما يلقى عليه من دروس، والإكثار عليه ينافي مقاصد الإتقان والتضلع.

في «باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة» من «الصحيح» أخرج البخاري: «حدثنا عثمان ابن أبي شيبة قال حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل قال كان عبد الله [ابن مسعود] يذكّر الناس في كل خميس. فقال له رجل [لعله يزيد بن عبد الله النخعي، كما في «فتح الباري»] يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم. قال [عبد الله] «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكم. وإني أتخوّلكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا». (راجع «القسطلاني» ج١ ص ٣٢٠).

وأخرج ـ رضي الله عنه ـ في صحيحه (القسطلاني ج ١ ص ٣١٨) في «باب ما كان النبي ﷺ يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا»: «حدثنا محمد بن يوسف قال: أخبرنا سفيان [الثوري] عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا».

الرحمة والتوقير

في «التاج الجامع» (ج ٥ ص ١٧) مما أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر».

وأخرج البخاري في صحيحه (القسطلاني ج ١ ص ٣٥٠): «حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج فقام عبد الله بن حذافة فقال من أبي [وكان قبلاً يدعى لغير أبيه]. فقال [رسول الله]: «أبوك حذافة». ثم أكثر [عبد الله] أن يقول [ﷺ]: «سلوني». فبرك عمر على ركبتيه [تأدباً وإكراماً لرسول الله] فقال «رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً...»

وبرك على ركبتيه معناه جلس طاوياً ركبتيه على الأرض. وقد جلس عمر ـ رضي الله عنه ـ هكذا تأدباً لنفسه وتأديباً لغيره. ثم مضت سنة المسلمين في التعليم على أن يتأدب المتعلم تكريماً لأستاذه، وأن يديم الأستاذ الشفقة على تلميذه رحمة به.

والتزم أهل العلم أدب التوقير والرحمة حتى جعلوه شرطاً في نصّ الإجازة العامة في علوم الكتاب والسنة، حيث يكتب الشيخ المجيز للعالم المجاز: ـ

«... فأجزنا له تدريس فوائد العلوم من الفروع والأصول وبسط موائد الرسوم من المنقول والمعقول... بشرط أن يراعي الشفقة على الطالبين ويواعي قواعد الرحمة في التعليم للمحصّلين...».

العلم وسيلة إلى الله

روى أبو حنيفة (انظر مسنده ص ٢٦ ـ ٢٧) «عن حماد عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة فيقول لهم: «إني لم أجعل حكمتي في قلوبكم إلا وأنا أريد بكم الخير. إذهبوا إلى الجنة فقد غفرت لكم على ما كان منكم».

وفي «التاج الجامع» (ج ١ ص ٦٤) مما أخرجه الترمذي عن أبي أُمامة الباهلي قال: «ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم . . .» .

وفيه (في الصفحة ذاتها) مما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» .

وفيه (ج ١ ص ٦٥) مما أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة» .

فالعلم والحكمة على سنة الإسلام وآدابه موصلان بأصحابهما إلى مرضاة اللّه تبارك وتعالى فإلى الجنة والسعادة العظمى في الحياة الخالدة .

خاتمة الفصل

وكثيرة هي آداب العلم، تعليمه وتعلمه ونقله، في الإسلام، فلا نجد مجالاً لإحصائها في هذا الكتاب ـ ولا سيما تلك التي تختص بالحديث الشريف وعلومه. فهذه فيض من العلم أفرد له علماؤنا أسفاراً هي خزائن جواهره ونفائسه .

وقد لَعمر الحق فقدت هذه الآداب الشريفة والمقاصد النبيلة النافعة في مدارس العصر وجامعاته حيث تتبذل الطالبات والطلاب ويحتقر الأساتيذ. هذا، ومعه التقاصر والتخلف في مظان العلوم، ما حصلته البلاد الإسلامية من مجافاة سنن الجامعات في حضارة الإسلام. (وإذا أردت تفصيلاً لأحوال جامعاتنا اليوم فاقرأ الفصل عنوانه «جامعات في ضياع» من كتابنا «الحرية الجامعية»). وعند هذا لننتقل إلى الفصل التالي في علماء السوء ـ فالشيء بالشيء يذكر.

الفصل الثامن
علماء السوء وأعمال التخريب

النفس الأمـارة بالسـوء متى غلبت فإذا كان صاحبها عالماً دفعته إلى استعمـال علمـه في مقاصد الشر وتشويه الحقائق وتحريف المعرفة ـ كيما تتراكب المساوىء بعضها فوق بعض فتسد أبواب الخير والعافية من قلب قد أمسى حينئذ حجراً أصم عديم الخلجات عديم الإحساس بمواطن الحسن والخير والبركة والاتزان.

ونحن في هذا الفصـل نكشف عن نِحَل السوء العاملة على تخريب الإسلام أمة وحضارة وتشريعاً. فإن النفس الأمارة بالسوء هي أيضاً قوة من قوى روح الإنسان في الحياة الدنيا. فلا بد لنا أن نظهرها بأعمالها، لتمتاز لنا معالم الهـداية والإيمان الكامل بفرز أضدادها من مياسم الضلالة والانحراف عن سواء السبيل.

لكن لنسأل بادىء الأمر عن المقياس الذي نركن إليه للتمييز بين الهداية والضـلال والاستقـامة والانحراف والحق والباطل في خضم العقائد والنوايا والأعمـال. المقياس الـذي نلتـزم به هو حكم الله وحكم رسـوله المحكم المصرح به في القرآن المجيد والسنة المشرفة. وهل بعد القسطاس المستقيم

العالم الإسلامي، في عصر تخلفه الراهن، منقسم إلى دويلات متنافرة تنافراً إما مكتوماً أو ظاهراً شديداً. ويتحتم على العلماء في كل دولة مماشاة الحكومة القائمة فيها ـ بعضهم عن رغب وبعضهم عن رهب. أما المسلمون الأغرار فإن من رحمات اللّه عليهم أن عامتهم وسوادهم الأعظم باق على الإسلام كما هو أمة وسطا غير منحرفة ذات اليمين وذات الشمال. ذلك على الرغم من نشاط أعدائهم في كل صوب وحدب لتخريب عقائدهم وإخراجهم من حوزة الإسلام المعصوم.

لكن حقيقة أخرى ماثلة اليوم في المجتمع الإسلامي هي حال التشرذم القائمة بوجود آلاف من المسلمين هنا وملايين منهم هناك موجهين من علماء السوء إلى التفرق وشق الصفوف والعداوة والبغضاء داخل المجتمع الإسلامي ذاته. ـ اللهم اهد قومي إنهم لا يعقلون ـ. هؤلاء فِرق ليس من غرضنا إحصاء آحادها في هذا الكتاب. إنما المقصود بيان الأهواء والنحل المناهضة للإسلام داخل المجتمع الإسلامي نفسه ـ عسى ذلك أن يهدي إلى الصواب ويحث خطى الوحدة والإنسجام بين المسلمين أمة واحدة تجمعهم كلمة التوحيد ونزعة التقوى ومعرفة أسباب الحضارة والحياة الكريمة على معمورة الأرض في هذا العصر. فكلامنا في هذا الفصل يتخذ طابع الإجمال والتعميم؛ ويأبى ذكر الفرق بأسمائها وألقابها ـ ومنها ما تضجر مما اشتهرت به من ألقاب؛ وينصّب على نقد النحل والمناحي ذواتها الضارة بوحدة المسلمين، غير معنيّ بما يقع من شيوع نحلة واحدة في أكثر من فرقة. وسنذكر الصواب مع الخطأ والصحيح إلى السقيم والنافع من الضار، ونسأل الله جل جلاله الهداية

والتوفيق.

فعلى وجه الإجمال ينقسم العالم الإسلامي اليوم إلى مجموعتين باديتين هما: «أهل الجماعة» و «أصحاب النحل». وفي كل منهما متفرعات.

أما أهل الجماعة: فهم الكثرة الكاثرة والسواد الأعظم من المسلمين متوزعين في أقطار العالم الإسلامي كلها، ومنهم من هم في دول غير إسلامية.

هم «الأكثرية الساحقة» ـ كما يقال في اللغة الدارجة. وهم المتصفون بالخصال والسجايا الدينية التالي بيانها: ـ

١ ـ التوسط في الأمور غالباً دون إفراط وتفريط.

٢ ـ تجنب تكفير أهل القبلة بسبب من اختلاف المذاهب والآراء الفقهية ما دام المختلفون مؤمنين بآساس عقيدة الإسلام. وقد بيناها في الفصل الأول من هذا الكتاب.

٣ ـ عبادة الله خالصة ومحبة الله ومحبة رسوله وأهل بيته.

٤ ـ توقير أصحاب رسول الله أجمعين وتقدير جهادهم العظيم في تأسيس دولة الإسلام الأولى على وجه المعمورة.

٥ ـ احترام التابعين واحترام علماء الأمصار والأئمة المجتهدين ـ سواء منهم من دونت ومن لم تدون مذاهبهم في الفقه.

٦ ـ اختيارهم، على الأغلب الأعم، واحداً من المذاهب الأربعة المشهورة في الفقه: المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي. وفيهم من يتبع المذهب الظاهري. وربما

أخذ بعضهم في مسائل بما في مذهب غير الذي هو آخذ به، وذلك وفق إرشاد عالم الدين.

٧ ـ الاعتقاد بالغيب والشهادة.

٨ ـ الاعتراف بالروح وقواه وبعمل الروح عند الروحانيين من عباد الله الصالحين.

٩ ـ الإيمان التام بآساس العقيدة التي ذكرناها في الفصل الأول، ونشدان مغفرة الله تعالى ورحمته.

وقد فاز «أهل الجماعة» بما خصّ به سوادها الأعظم من العصمة عن الضلالة فضلاً من اللّه سبحانه ورحمة. وإليك خصائض الجماعة كما أعلمنا بها رسول اللّه ـ صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ـ في الأحاديث الشريفة التالية نصوصها: ـ

ـ روى الشافعي (في «الرسالة» ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ وفي «المسند» بهامش «الأم» ج ٦ ص ٢٠٧): «أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «نضر اللّه عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل للّه والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم». وأيضاً روى هذا الحديث أبو يوسف في «كتاب الخراج»، ص ٩ ـ ١٠.

ـ وروى الشافعي (في «الرسالة ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤ وفي «المسند» بهامش «الأم» ج ٦ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠): «أخبرنا سفيان عن عبد الله بن أبي لبيد عن

ابن سليمان بن يسار عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام بالجابية خطيباً فقال: إن رسول الله ﷺ قام فينا كقيامي فيكم فقال: «أكرموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى أن الرجل ليحلف ولا يستحلف ويشهد ولا يستشهد. ألا فمن سره أن يسكن بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد. ولا يخلوّن رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهما. ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن». وأخرج مثل هذا الحديث عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثه به أبوه، ذلك في «مسند ابن حنبل» ج ١ ص ١٨ و ٢٦، وبسندين آخرين.

ـ أخرج ابن ماجه (في «صحيحه» ج ٢ ص ٢٤١): «حدثنا العباس بن عثمان الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا معان بن رفاعة السلامي حدثني أبو خلف الأعمى قال سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم». وهذا الحديث معتضد بمتابعين أخرجهما الإمام الترمذي في «الجامع الصحيح» في «باب ما جاء في لزوم الجماعة» (ج ٤ ص ٤٦٦).

شرعت لنا هذه الأحاديث الشريفة بعبارة النص الأحكام التالي ذكرها:ـ

الأول: أن جماعة المسلمين تحيط دعوتهم من ورائهم أمة محفوظة برحمة الله ولطفه من الاجتماع على ضلالة.

الثاني: وجوب التزام الجماعة واتباعها متى وجد اختلاف.

الثالث: أن الأمة الجماعة المحفوظة هي السواد الأعظم من المسلمين وليست علماء الجماعة وحدهم.

جرت قديماً محاولات لتأويل الجماعة على وجه حصرها بالعلماء وحدهم. بيد أن النصوص تأباها، ولا سيما نص الحديث الثالث بلفظ «السواد الأعظم» على الإطلاق.

ويدل سياق الأحاديث الثلاثة على أن حكمي العصمة ووجوب الاتباع ساريان في كل ما هو من قبيل سبيل المؤمنين كآساس العقيدة وما هو معلوم من الدين بالضرورة وما يميز المسلم عن غير المسلم. أما دقائق المسائل الفقهية التي هي من علم الخاصة وليس من علم العامة فهي مجال العلماء المتخصصين تتفق فيه اجتهاداتهم أو تختلف كما في زمن الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار.

تلك هي «أهل الجماعة». فلننظر الآن في شؤون «أصحاب النحل». ولنبدأ في هذه بأن نضع أمام بصر الرفيق القارىء وتلقاء بصيرته هذا المقياس الحق الذي نقيس به الأقوال والأعمال التي تحيد عن سبيل الجماعة وتدخل في نطاق الأهواء والنحل. المقياس ـ كما قلنا من قبل ـ هو الكتاب والسنة. وعديدة هي آيات القرآن المجيد التي تأمر المسلم باتباع خاتم النبيين وإطاعة أحكامه ـ صلى الله وسلم عليه وآله وأصحابه. وقد تلونا جملة منها في الفصل الثاني من هذا الكتاب فإذا شئت فراجعه. فنكتفي هنا بتلاوة الآيتين الكريمتين التاليتين: ـ

ـ «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا».

(الأحزاب: ٣٦).

- «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً».

(النساء: ١١٥).

ومن سنة النبي المطهرة يكفينا مقياساً الحديثان الشريفان التاليان سنداً ومتناً: -

- أخرج أبو داود في «السنن» (ج ٢ ص ١٧): «حدثنا سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية حدثنا جعفر بن بُرقان عن يزيد بن أبي نُشْبة عن أنس بن مالك قال قال رسول اللّه ﷺ: «ثلاث من أصل الإيمان: الكفّ عمّن قال لا إله إلا اللّه ولا نكفّره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل؛ والجهاد ماض منذ بعثني اللّه إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل؛ والإيمان بالأقدار».

- وأخرج مسلم في الصحيح (القسطلاني ج ٢ ص ١٠٦): «حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ليث ح . . . وحدثنا محمد بن رمح - واللفظ متقارب - أخبرنا الليث عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي عن عبيد الله بن عدي بن الخيار عن المقداد بن الأسود أنه أخبره أنه قال يا رسول اللّه أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يديّ بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال أسلمت للّه أفاقتله يا رسول اللّه بعد أن قالها. قال رسول اللّه ﷺ: «لا تقتله». فقلت يا رسول اللّه إنه قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله. قال رسول اللّه ﷺ: «لا

تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال».

«وحدثنا إسحٰق بن إبراهيم وعبد بن حميد قالا حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر ح . . . وأما معمر ففي حديثه: فلما أهويت لأقتله قال لا إله إلا اللّه».

الحديثان الشريفان متعاضدان. ولثانيهما أسانيد أخرى، ومتابع في معناه ومآله من حديث أسامة بن زيد في الباب ذاته من صحيح الإمام مسلم. وأيضاً في مآلهما حديث عتبان بن مالك الذي أخرجه الإمام مسلم ـ رضي الله عنه ـ (في الصحيح، القسطلاني ج ١ ص ٤١٠ ـ ٤١٣).

أما «أصحاب النحل» في عصرنا فهم فرق شتى. لكن يتسنى إحصاء الشديدات من نحلها تحت العناوين التالية ـ مع التنبيه على أن الفقرات المندرجة تحت العناوين ربما تكون الواحدة منها داخلة في نحل فرق متعادية، وعلى أن المقصود بالإحصاء ليس هو الاستقراء التام المستغرق جميع الفرق بل إبراز أشد النحل خطورة في تفريق شمل المسلمين اليوم.

نحلة النبذ والإنسلاخ:

هذه يجري أصحابها تحت بريق من عنوان المعاصرة إلى نبذ كل ما هو من حضارة الإسلام للاستعاضة عنها بالحضارة الأوروبية المسيطرة في هذا العصر. ويريدون النبذ تدريجاً حتى يتم آخر الأمر الإنسلاخ التام عن الإسلام ديناً وتشريعاً وأسلوب حياة. وهذه النتيجة هي بغية الدول الآخذة بالحضارة الأوروبية سواء منها الواقعة في القارة الأوروبية والتي في قارات أخرى. أما

المستعمرة منها استعماراً مباشراً أو غير مباشر فلها القيادة والسعي المحموم المنكشف والمخفي في القضاء على البقية الباقية من حضارة الإسلام المنحسرة حتى عن أوطانها. ومن هَهنا العلاقة الوثيقة بين هذه الدول وبين عملائهم وخدمهم من أبناء البلاد الإسلامية.

ولما كان الصراع في واقع الأمر صراعاً حضارياً فإنه ممتد إلى نواحي الحياة جميعها الخاصة والعامة وإلى سبلها وأسبابها القريبة والبعيدة. وهذه لا يتسنى إحصاؤها في الورقات التي بين أيدينا، فلأصوّره لك ـ أيها الرفيق القارىء ـ بمثالين من واقع حياة الناس أحدهما قديم بعض الشيء والآخر حديث بعض الشيء.

القديم منهما يرجع إلى زمان الدولة العثمانية العظمى، إلى القرن الميلادي التاسع عشر، ثم إلى أوائل القرن العشرين بعد اضمحلال تلك الدولة وإقامة الجمهورية التركية. قوانين الإسلام كانت هي المعمول بها في الدولة العلية أزمان شوكتها وعزتها وارتفاع أعلامها المرفرفة على ربوع جميلة من القارة الأوروبية. فلما حل القرن التاسع عشر وأُضعفت تلك الدولة وقصت أجنحتها من أطرافها، جراء العداوة والحروب التي تعاضدت على اشعالها بريطانيا وروسيا وفرنسا، اشترطت الدول المتآمرة عليها أن تنبذ هي القوانين الإسلامية وتستعيض عنها بقوانين أوروبية، شرطاً جازماً لغرض الإبقاء على كيان دولتها الباقية الهزيلة بعد قص الأجنحة وانفصام أصقاع وأقطار شاسعة عنها في آسيا وفي أوروبا. وانصاعت الدولة المهزوزة فأصدرت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عدداً من القوانين المترجمة من قوانين أوروبية حلت محل قوانين الإسلام المنبوذة. تلك هي القانونان الجنائيان المصدران

سنتي ١٨٥١ و ١٨٥٨، وقانون الاجراءات الجنائية سنة ١٨٦١، والقانونان التجاريان العثمانيان الصادران سنتي ١٨٥٠و ١٨٦٠، وقانون التجارة البحرية سنة ١٨٦٣. وهذه كلها فرنسية الأصل.

ثم انقضت الدولة العثمانية فتم الإنسلاخ من شرائع الإسلام جميعها بإصدار قانونين رئيسين سنة ١٩٢٦ هما: «القانون المدني» و«قانون الالتزامات المدنية» اللذين كانا مترجمين ترجمة حرفية من القانونين السويسريين المسميين: «كود سيفيل سويس» و«كود فيديرال ديزا وبليكا سيون». لكن انسلاخ الجمهورية التركية عهدئذ لم يكن عن القانون الإسلامي وحده، بل عن الإسلام جملة وتفصيلاً ـ بما فيه الخط وحروف الهجاء الإسلامية التي كانت اللغة التركية قد اختالت في غلائلها المصّبغة قروناً من عهد العز والسؤدد. هكذا تمت الغلبة للحضارة الأوروبية على تركيا فتم الخذلان التركي.

أما المثال الثاني فقد حدث قبل أقل من ثلاثين سنة. ذات صباح امتطيت سيارة أقلتني من مسكني بالكرادة الشرقية ببغداد إلى شارع الرشيد حيث كنت أعمل. وكان ممرنا بشارع أبي نؤاس من ضفاف دجلة. هناك وقع بصري على منظر فتاة في نحو الخامسة والعشرين تختال على رصيف الشارع وهي عارية القوام من قدميها إلى قريب من ردفيها في زي مستهترة تعرض على الملأ ساقيها وركبتيها وفخذيها. فقلت لقائد السيارة بالبغدادية الدارجة: «هاي شني هاي؟!» فأجاب: «هاي كاسرة حياء». وابتعدت بنا السيارة عن المنظر وأنا غير فاهم جوابه. فقلت له وما معنى «كاسرة حياء». ففصّل هو الجواب: من صّناع الأزياء النسوية ومن مستوردي الأقمشة الملائمة لهذه

الأزياء أناس لهم صلات وثقى بأقرانهم في البلاد الأوروبية. وحين يريدون إشاعة زي خليع ينافي الحشمة والحياء يعمدون إلى فتيات عراقيات شابات فيأجرونهن بأجور باهضة في عمل سهل عند المبتذلات هو التزيي بالزيّ المراد تعميمه والتمشي في الشوارع والطرقات كسراً لحياء من يستحيين في الشابات المسلمات من ارتداء الزيّ الخليع. هذه خلاصة جواب صاحبي. وقد فهمت من جوابه معنى «كاسرة الحياء». ووعيت أموراً ربما غابت عنه ـ و «ربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

وأظنك قد وعيت الآن ـ أيها الرفيق القارىء ـ أن الأعمال جميعها المارة في المثالين السابقين هي برمتها نادة بعيدة عن آية المقياس والميزان التي تلوناها. فهذه الأعمال ليست من «سبيل المؤمنين» في شيء. بل هي مضادة لسبيل المؤمنين هادمة إياها حضارة ومنهاجاً. فهي من أعمال السوء والتخريب.

لكن لا تظن أن كسر الحياء منحصر في مجال الأزياء ولا أنه مقتصر دون الرجال على النساء. فلكسر الحياء أوجه كثيرة ومجالات شتى. وهنالك من الرجال كاسرو حياء بارعون وفيهم أساتذة وعلماء قانون وأدباء وشعراء ومغنون ووراء هؤلاء أخرون عن الأنظار مختفون.

فلما وضعت الحرب العظمى الأولى أوزارها، وانهارت الدولة العلية العثمانية، وتقاسمت أقطارها الشرقية فرنسا الكبرى وبريطانيا العظمى فقلبتاها مستعمرات هذه للإنكليز وتلك للفرنسيين، بدأ كاسرو الحياء من أهل اللغة والقانون يدعون إلى نبذ أهم عنصرين من عناصر الحضارة هما: الخط والقانون. نادوا بأن تنبذ حروف الهجاء والخط الإسلاميان فيستعاض عنهما

بالحروف والخط اللاتينيين، وأن تنبذ قوانين الحضارة الإسلامية لتحل محلها قوانين الحضارة الأوروبية ـ أي أن تجري هذه المستعمرات الجديدة كما جرت تركيا الفتاة جري القذة وراء القذة في الانسلاخ عن الإسلام وحضارته.

ما نجحت دعوة الانصراف عن حروف الهجاء العربية. أما الدعوة إلى الاستعاضة عن القوانين الإسلامية بالقوانين الأوروبية فقد نجحت نجاحاً باهراً. كانت مصر قد سبقت الدول العربية الأخرى في الانقلاب إلى مستعمرة أجنبية قبل الحرب العظمى الأولى، وأقحم فيها القانون المدني الأوروبي المختلط ثم المصري؛ ووجد فيها حاملو شهادة «دكتوراه» من كليات القانون الفرنسية، فقادت هي الأقطار العربية الأخرى في المشرق العربي إلى عزل القانون المدني الإسلامي عن حياة الناس وأعمالهم وإحلال القانون المدني الفرنسي مكانه. فكان أن صدر القانون المدني المصري الجديد ثم القانون المدني السوري ثم القانون المدني العراقي. وكل هذه القوانين فرنسية الأصل والشكل والمضمون. ولا تغشنك فيها استعارة أحكام قليلة هنا وهناك من الفقه الإسلامي. ثم زين للناس بلفظ «العربية» فكرة «القانون العربي الموحد» رجاء تخليد القانون المدني الفرنسي وفقهه في البلاد العربية جميعها. وكان رأس كاسري الحياء في هٰذه الأعمال كلها عالم قانون مصري مرموق.

وإن من الناجحات من دعوات الفرنجة تلك التي جرت في مجال الشعر وقام لها بمهمة كاسري الحياء بعض الشعراء. دعوة محمومة إلى «الشعر الحرّ والشعر الحديث» ـ كما طابت ألقاب التمويه لكاسري الحياء. ثم إعراض عن شعر العربية العصماء؛ ومحاكاة جاهلة لأشعار عزرا باوند وتي إيس إليوت

وإيلوار. والنتيجة المحصّلة لهذه الأوطان حتى اليوم هي التي عبر عنها أستاذ متخصص[1] في أوزان الشعر العربي، ومن حائزي مرتبة «دكتوراه» من جامعة لندن بالعبارات التالية:

«فالشعر الحر إذن لون من السجع الموزون في أكثر الحالات (ولا سيما عند الناشئين) أسبغ عليه مظهر الشعر، وتنقصه المقومات ليصبح شعراً عمودياً ومنها الانتظام في التفاعيل والقوافي وتوقيت الأشطر ووحدة التفكير، فهو طريقة في التأليف الشعري مفككة وغامضة، بل يصح أن نقول عنه إنه محاولات أشخاص لهم إمكانيات شعرية بدائية لم تشذب ولم تهذب ضمن قواعد فنية معقولة؛ ولعل سبب عدم نجاحه أن الذين حاولوه أو الكثرة الكاثرة من الذين حاولوه ليسوا من كبار الشعراء بل في بداية السلم الشعري.

«وهناك نقص في الشعر الحر وهو عدم وجود العامل الزمني في الإيقاع... فقد اقتبس من كل فن الجانب السائب أو الفوضوي منه. فقد اقتبس من النثر فوضى القافية، ومن الرجز فوضى التفاعيل وفوضى ازدواج الأشطر، ومن الموشحات والبند فوضى طول الأشطر، ومن السريالية فوضى الأفكار والمعاني.

«ومهما يكن من أمر فنحن نرحب بكل حركة تجديدية في العروض على أن توضع لها قواعد وقوانين وعلى أن لا يتصور كل ناشىء يريد أن يكون شاعراً أنه فوق القواعد العروضية والقوانين. لقد كان من جراء التساهل مع حركة الشعر الحر أن ظهرت حركة أخرى أكثر تسيباً عرفت «بحركة قصيدة النثر»

(١) هو الدكتور صفاء خلوصي، الذي يعمل اليوم كما بلغني أستاذاً بجامعة أوكسفورد، في كتابه «فن التقطيع الشعري»، بغداد، ١٩٨٧، ص ٤٠٨ - ٤١١.

ويعلم الله إنهـا ليست بقصيدة ولا نثـر وإنما هي سمادير وهذرمات تقرؤها فتجدها كلمات مرصوفة لا تخرج منها بطائل أبداً».

لسنـا نخالف الدكتروخلوصي في النتائج التي توصل إليها من نقد هذا الشعر. لكنا نخالفه في ما ذكر من عدم نجاحه. ولعله أراد أن هذا أخفق في أن يبلغ مبلغ الشعر، وذلك ما لا نخالفه فيه. أما النجاح بمعنى اشاعته بين الناس فقد تم بصنوف من وسائل النشر والإعلام. بل إن هذا الشعر قد نجح نجاحـاً باهـراً في تحقيق المقـاصد التي رمى إليها صانعو حركته من وراء الأستار. لقد حققت الحركة حتى الآن الأمور التالية: ـ

الأول: صنع أدب من السمادير والهذرمات يشغل الأجيال الفتية في بلادنا ويقوم حاجزاً صفيقاً بينهم وبين آداب الفصحى العصماء يحول بينهم وبين ارتيادها وفهمها وتذوقها. ولذلك رافق صنع الهذرمات التهجم والتشنيع على الشعر العـربي جملة ـ حتى لم يسلم منه فطاحل الشعراء المعاصرون كأحمـد شوقي وأصنـائـه. وإن كثـرة كاثـرة من شباب العصر في بلادنا لا يستـطيعـون فهم لغـة أبي نواس والجاحظ والأصمعي والشافعي والشيباني والخليل ابن أحمد، ولا تذوق شعر الـزهاوي وشوقي والأخطلين الكبير والصغير.

الثاني: صنع لغة عربية الألفاظ غير عربية المعاني والتراكيب والسياق ومن شأنها متى عمت أن تباعد بين لغة العصـر وبين لغة الحضارة الإسلامية وآدابها وعلومها ـ حتى تمسي اللغتان متغايرتين تمام التغاير القائم بين إنكليزية اليوم وبين اللغة الأنكلوسكسونية المتباينة معها تباين الفرنسية عن الإنجليزية أو الألمانية ويومئذ يتم فصام المسلمين عن مصادر حضارتهم وعلومها وآدابها

المكتوبة بلغة هي أصل العربية المعاصرة لكنها مغايرة إياها تمام المغايرة. وأنت ـ أيها الرفيق القارىء ـ لا تستبعد وقوع هذه النتائج إذا ترك الحبل على الجرار. فإن شعر السمادير والهذرمات قد أقحم ضمن دروس الأدب العربي في المدارس الإعدادية والجامعات في عدد من البلاد العربية. ولقد قرأت وسمعت بحوثاً في النقد الأدبي المتساوق مع هذا الشعر فلم أجد غير سمادير وهذرمات غريبة عن الشعر العربي (من مثل «لبس القناع» و«نزع القناع» وأضرابهما المستوحش بها عن أصيل الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتصريح والتعريض وما إلى ذلك) ومستهجنة أخذت من لغات أعجمية بترجمات ركيكة إلى نثر من لغة المتساوقين. ومن يطّلع على اللغة السواحلية يعلم كيف يتسنى أن تمسخ لغات وتصنع لغات.

الثالث: عزل المسلمين في نهاية المطاف عن القرآن المجيد والسنة النبوية ومصادر الشريعة الغراء ـ عن هذه كلها المدونة المكتوبة بلغة تمسي عندئذ لغة ميتة لتراث ميت شأنها شأن اللغتين البابلية والسومرية. وعهدئذ تكون حروب الصراع الحضاري قد حققت كل غاياتها بانتصار الحضارة الأوروبية واندحار الحضارة الإسلامية.

وقد أنبأنا النبي بهذا المآل. أخرج الشيخان عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لتتبعنّ سُنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضبّ لا تبعتموهم. قلنا يا رسول الله آليهود والنصارى؟ قال: فمن». أي فمن غيرهما تتبعون. (راجع «التاج الجامع» ج ١ ص ٤٣).

ويكفي إشارة إلى علاقة هذه الحركة الشعرية بمقاصد دول الاستعمار ونواياها الخبيثة أن الحركة قد نشأت، لا في قسم للأدب العربي بجامعة

عربية، بل في قسم اللغة الإنجليزية في كلية عالية بقطر عربي؛ وأن الذي أثار الحركة وأدارها بين طلبة في القسم متخيّرين إنما كان مدرسا بريطانيا أعانه آخر عربي من خريجي جامعة أجنبية؛ وأن الأجنبي المثير المدير للحركة كان يتولى بنفسه تدريب أولئك التلاميذ الرواد وإعانتهم أيضا على محاكاة طرق إلقاء الشعر الإنكليزية بعرض أفلام سينموية مسجلة للشاعر «تي إيس إليوت» وغيره وهم يلقون الشعر الإنكليزي إلقاء؛ وأنه كان قد رتب في أقطار أخرى أشخاص ووسائل نشر للتجاوب الفوري العملي مع الدعوة والدعاة إلى هذه الحركة الداعية في الظاهر إلى التجديد وفي الباطن إلى التخريب في الشعر العربي ولغته. وإن مما يلفت النظر بعد ذلك كله أن تكون شركات نفط أجنبية استعمارية ناهبة ثروات الشرق البائس هي التي تولت مدّ يد العون إلى بعض أولئك الدعاة إما باستخدامهم في وظائف الشركة أو بصرف مخصصات شهرية سرية.

والأدهى من ذلك كله أن دعوة التجديد قد قرنت جوانب من أجوائها بنشر نحلة «الوجودية» الفرنسية بين أبناء الشرق المنتهب ـ هذه النحلة المناقضة لآساس عقيدة الإسلام وصرحه العظيم من الإيمان.

تلك هي أعمال النبذ والانسلاخ ومقاصد نحلته. فانظر أين وكيف يعمل علماء السوء. وإذا رجعت الآن إلى آية المقياس والميزان علمت أن هذه الأعمال ليست على أي حال من الأحوال في شيء من سبيل المؤمنين.

نحلة الشقاق والتكفير:

يَجمعَ أصحابَ هذه النحلة التوافقُ على تكفير «أهل الجماعة» والنفرة منهم. وهم بعد ذلك يختلفون في ما بينهم في أمور كثيرة. وأكبر فرقهم في

هذا العصر فرقتان إحداهما قديمة العهد والأخرى محدثة. وهما متعاديتان. فسنذكر مناحي كل واحدة منهما على حدة.

الفرقة القديمة: تعمد إلى أصحاب رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وآله وأصحابه وسلم ـ فتقسمهم إلى فريقين: فريق قليل العدد جداً ثابت على الإيمان؛ وفريق مرتدّ كثير العدد جداً منهم أجلاء الأصحاب وعلماؤهم المجتهدون في جيلهم. فأصحاب رسول اللّه على هذا هم قلة قليلة مؤمنة وكثرة كاثرة كافرة. وعلى هذه الكثرة الكاثرة تطبق الفرقة القديمة جملة من آيات القرآن المجيد النازلة في شأن الكفار والمشركين، وتذهب هي إلى أنها نازلة في أحوال جمهور الأصحاب بعد وفاة النبي الكريم. وإن من هذه الجملة الآيات العظيمات المتلوات من «سورة النساء» (٥٠ ـ ٥٢، ١٣٧): ـ

ـ **«انظر كيف يفترون على اللّه الكذب وكفى به إثماً مبينا. ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هٰؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم اللّه ومن يلعن اللّه فلن تجد له نصيراً».**

ـ **«إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن اللّه ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً».**

ففي «الكافي» للإمام الكليني أن هٰذه الآية الأخيرة نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان: آمنوا بالنبي أولاً، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية عليّ، ثم آمنوا بالبيعة لعلي، ثم كفروا بعد موت النبي، ثم ازدادوا كفراً بأخذ البيعة من كل الأمة. (راجع «الكافي» ج ٣ ص ٣٢٥؛ و«الوشيعة» ص ٦٢ ـ ٦٦. وفي ج ١ ص ٤٢٠ من «أصول الكافي»، في الطبعة الثالثة

الجديدة تهران ١٣٨٨، ورد التفسير نفسه لكن مستعاضاً فيه عن الأسماء الثلاثة بألفاظ «فلان وفلان وفلان» مكررة هكذا ثلاث مرات).

أما أساس تعايشهم مع من سواهم فمبني على «التقية»، وهي عندهم أصل من الأصول التي تشتق منها فروع الأحكام.

الفرقة المحدثة: وهذه تنابذ القديمة وتكرهها، لكنها تتوافق معها في أمور من النحلة معينة. وإن من هذه المتوافق عليها الأمور الثلاثة التالية التي سنتكلم عليها تباعاً: ـ

أ ـ تحريف آي من القرآن المجيد بحيث توائم مزاعمها.

ب ـ تكفير أهل الجماعة.

ج ـ معاداة شديدة للعمل الروحي والروحانيين في الإسلام.

لقد رأينا كيف صنعت الفرقة القديمة بتفسير الآية السابعة والثلاثين بعد المائة من سورة النساء. والفرقة المحدثة تذهب إلى أن المسلم إذا رفع كفيه يدعو ربه ويتضرع إليه قائلاً «اللهم أسألك بنبيك محمد، أو بجاه نبيك محمد، أن تقضي لي حاجتي» فإنه لا محالة مشرك لأنه اتخذ نداً من دون الله. ثم تستدل هي لحكمها بانقلاب هذا المسلم مشركاً بآية من «سورة يونس» يقرأها صاحب الفرقة ويكتبها هكذا: «**قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً**»، ويقول إذا كان النبي لا يستطيع أن ينفع نفسه فكيف يستطيع أن ينفع غيره؟! فما يبقى من صيغة الدعاء غير إشراك محمد بالتوجه إليه في الرجاء والدعاء وهذا هو عين الشرك واتخاذ الأنداد لله أو من دون الله. هذه خلاصة منحى هذه الفرقة. وقبل أن نتكلم على وجه الصواب في هذا الأمر يجب أن

نتلو الآية الكريمة كاملة ونتلو معها الآية التي قبلها وهما مترابطتان:

ـ «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين .

ـ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء اللّه لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

(يونس: ٤٨ ـ ٤٩).

ألآن قد بان أن الآية الكريمة ليس يوجد فيها نفي النفع عن النبي على وجه الإطلاق. فالآيتان متناظرتان مع آيتين في سورة «ق» هما: «**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين**». فنفي النفع والعلم عن النبي في هذه الآيات المتناظرة مقتصر على ما يتعلق بموضع السؤال المجاب عنه وهو وعد الساعة أي ميعاده ليس إلا. ثم إن ما يزعم أصحاب النحلة من نفي النفع عن خاتم النبيين إنما هو مزعم يناقض الحكم الصريح المستفاد من صيغة الاستثناء في الآية التاسعة والأربعين ذاتها. إذ المعلوم في اللغة أن الاستثناء من المثبت يفيد النفي ومن المنفي يفيد الإثبات، والآية الكريمة تعلمنا أن النبي لا يملك النفع إلا ما شاء الله، أي أنه يملك النفع بمشيئة اللّه. وكيف لا، واللّه سبحانه وتعالى هو الذي أعلمنا في القرآن المجيد بأن خاتم أنبيائه ورسله هو الداعي إلى اللّه وهو الهادي وهو السراج المنير وهو صاحب الشفاعة العظمى ـ صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين.

بل قد جعل رب العالمين اتّباع خاتم النبيين وسيلة لإكتساب العبد حبّ ربه إياه: «**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم اللّه**». وأي نفع يا ترى أعظم من هذا؟!

لكن أصحاب النحلة المحدثة ينفون «الجاه» و «الوسيلة» الثابتين بالكتاب والسنة، ويجعلون رزقهم أنهم يكفّرون «أهل السنة والجماعة» وهم السواد الأعظم من ملة الإسلام بأنهم مشركون يقرون الجاه والوسيلة. أما الجاه فقد أثبتناه بأدلته الشرعية المحكمة في الفصل الثاني فراجعه إذا أحببت. وأما الوسيلة فنكتفي هنا لإثباتها بالحديث الشريف الصحيح التالي نصه: ـ

أخرج الترمذي (ج ٥ ص ٥٣١): «حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال أدع اللّه أن يعافيني. قال [رسول اللّه]: «إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك». قال فادعه. قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في».

ولسنا بعد هذا الحديث الشريف تحتاج إلى زيادة مقال ـ ولا سيما الوسيلة قد تداولتها كتب مثل «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» و «التوصل إلى حقيقة التوسل»، وهذا الكتاب الأخير في تحريم التوسل.

لكن الوسيلة ليست هي الوسيلة الوحيدة لتكفير «أهل السنة والجماعة». فهنالك زيارة القبور. أصحاب النحلة المحدثة لم يقفوا عند حد تحريم الزيارة تحريماً من قبيل ما يقع في فروع الأعمال، بل رفعوها إلى مصاف آساس العقيدة واعتبروا الزيارة شركاً واتخاذاً للأنداد. أهل الجماعة يزورون قبور موتاهم وقبور العلماء الصالحين اقتداء برسول الله ﷺ في أمره

وعمله المتكـرر في زيارة «البقيع»؛ وإنهم ليتأدبون بآداب الزيارة فيعتبرون ويقرأون الفاتحة أو ما تيسر من القرآن ويهدون ثوابها إلى صاحب القبر. ويقول أصحاب النحلة إن هؤلاء إنما يذهبون لعبادة هذه القبور واتخاذها أصناماً تعبد وآلهة يرجون منها خلق ما يريدون من حوائجهم وقضاءها. وفي ذلك كله افتراء على الـزائـرين من أهـل الجماعة في أصل نوايا قلوبهم ثم الحكم عليهم بالشرك بسبب هذه المفتريات. أما أدلة حكمهم هذا فهي آيات القرآن المجيد النازلة في أحوال الكفار والمشركين يطبقونها على المسلمين من أهل السنة والجمـاعة. وأيضاً يزعمون أن لا ثواب للموتى في قراءة القرآن. فإذا أحببت ـ أيها الرفيق القارىء ـ الاطلاع على تفصيلات هذا الضرب من الاستدلال فراجع كتاب «فتح المجيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ المتوفى عام ١٢٨٥ من الهجرة (المطبوع طبعات عديدة آخرها ببغداد سنة ١٩٩٠م).

ومـا نحن بصدد الرد هنا على تلك النحلة. لكن أصحابها يتسترون بزعم أنهم من الحنابلة. ونحن هنا ننقل مذهب الحنابلة في المسائل المتقدمة من واحد من كتبهم المعتمدة في المذهب، وهو «الروض المربع شرح زاد المستقنـع» (المـطبوع بمطبعة ولاية سورية بدمشق عام ١٣٠٥هـ). المتن للإمام شرف الـدين أبي النجا موسى بن أحمد المقدسي الصالحي، والشرح للشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي ـ وكلاهما من أعلام الحنابلة: ـ

«ويكره الاتكاء إليه [إلى القبر] لما روى أحمد أن النبي ﷺ رأى عمرو ابن حزم متكياً على قبر فقال: «لا توذه».

«ويستحب جمـع [قبور] الأقارب في بقعة لتسهل زيارتهم قريباً من [قبور] الشهداء والصالحين لينتفع بمجاورتهم في البقاع الشريفة».

«ولا تكره القراءة على القبر لما روى أنس مرفوعاً: «من دخل المقابر فقرأ فيها «يٓس» خفف عنهم يومئذ وكان له بعددهم حسنات». وصح عن ابن عمر أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عنده بفاتحة «البقرة» وخاتمتها. . . ».

«وأيّ قربة من دعاء واستغفار وصلاة وصوم وحج وقراءة وغير ذلك فعلها مسلم وجعل ثوابها لميت مسلم أو حي نفعه ذلك. قال أحمد الميت يصل إليه كل شيء من الخير للنصوص الواردة فيه (ذكره المجد وغيره) حتى لو أهداها للنبي ﷺ جاز ووصل إليه ثوابها». (المصدر المذكور ص ١١٥ - ١١٦).

هكذا التعارض بين المذهب الحنبلي وبين آراء أصحاب النحلة المحدثة. أما موضوع وصول الثواب إلى الموتى من خير يعمله الأحياء لهم فقد عارضوا فيه الإمام أحمد - رضي الله عنه - وفقهاء مذهبه مستدلين في المعارضة بحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الذي أخرجه الإمامان مسلم والترمذي عن النبي ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له». الحديث صحيح. لكن لا علاقة له بعمل إنسان لا يزال في دار الدنيا. فإن رسول الله - ﷺ - لم يقل إذا كان ابن آدم باقياً في الدنيا انقطع عمله الخير فلا يصل ثوابه إلى أحد؛ وإنما قال إذا مات انقطع عمله (لا عمل غيره) إلا من الثلاث المستثنيات.

فبهذا الاستدلال حرفوا الحديث الشريف عن موضوعه وواقعته الشرعية إلى موضوع آخر وواقعة أخرى. وهذا ضرب من ضروب التحريف. وفي مثل هذا الاستدلال يقول الشيخ ابن قيم الجوزية: «وأما استدلالكم بقوله صلى الله عليه وسلم إذا مات العبد إنقطع عمله فاستدلال ساقط فإنه صلى الله عليه

وآله وسلم لم يقل انقطع انتفاعه وإنما أخبر عن انقطاع عمله وأما عمل غيره فهو لعامله فإن وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو فالمنقطع شيء والواصل إليه شيء آخر». راجع له «كتاب الروح» ص ١٢٩.

وإن من هذا الضرب من التحريف استدلالهم على ما زعموا من أن سنة رسول الله ﷺ في صلاة التراويح هي ثمان ركعات ولا مزيد عليها بالسنة العملية التي أخرجها أئمة الحديث البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه «سأل عائشة رضي الله عنها كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان» فقالت: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره عن إحدى عشرة ركعة يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي أربعاً فلا تسل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثاً...» هذه سنة ثابتة روايتها صحيحة. لكن لا علاقة بين ما روي منها وبين صلاة التراويح على الإطلاق. فأمّ المؤمنين قد صرحت بأن ما روت هي صلاة الرسول في رمضان وفي غير رمضان. ولا يخفى أن صلاة التراويح مخصوصة برمضان وليست تصلى في غيره من أشهر العام؛ وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما صلى قط التراويح إلا في الثلاث الليالي التي فيها صلى بالناس صلاتها في المسجد ثم تركها تركاً نهائياً مخافة أن تفرض على المسلمين. ثم ذهب الخوف بانتهاء الوحي فأحيا أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب تلك السنة، فصلاها أصحاب النبي ـ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ـ عشرين ركعة يؤمهم أبيّ بن كعب. فاجتماع الأصحاب على عشرين ركعة دليل قاطع على أن النبي كان قد صلى بهم عشرين في تلكم الليالي الثلاث الغابرات، فإنهم إنما صلوا مثل ما صلى النبي، وما شرعوا من

عندهم شيئاً جديداً. ولهذا قال سيدنا عمر عندئذ «نعمت البدعة هذه» أي نعمت الصلاة التي كانت جديدة التشريع على عهد النبي وتركت وهي جديدة ـ كما تقدم. وهٰهنا البدعة بمعنى السنة الحسنة الجديدة.

وإن الأربعة من مذاهب أهل الجماعة على العشرين لركعات التراويح. لكنا نكتفي بنقل ما في مصادر السادة الحنابلة. ففي شرح «زاد المستقنع» (ص ٦٩ ـ ٧٠) ما يلي نصه: ـ

«والتراويح سنة موكدة... عشرون ركعة لما روى أبو بكر عبد العزيز في «الشافي» عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يصلي في شهر رمضان عشرين ركعة تفعل ركعتين ركعتين في جماعة مع الوتر بالمسجد أول الليل بعد العشاء... في رمضان لما روي في الصحيحين من حديث عائشة أنه ﷺ صلاها ليالي فصلوها معه ثم تأخر وصلى في بيته باقي الشهر وقال إني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها. وفي البخاري أن عمر جمع الناس على أبيّ ابن كعب فصلى بهم التراويح. وروى أحمد وصححه الترمذي من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليله».

هذا. وعلى الجملة فإن أتباع الفرقة المحدثة لا يميزون بين ما له أصل في الدين وما ليس له أصل. فيصرون على أن زيارة قبور المسلمين شرك وعبادة لغير الله ـ مع أن رسول الله ﷺ قد زار القبور نهاراً وليلاً؛ وعلى أن التسبيح بحمد الله في المساجد عقيب المكتوبة محرمة لأنها بدعة ـ مع أن الله سبحانه وتعالى أمر بها في أواخر سورة «ق» وأن رسوله جهر بحدها الأدنى وهو ثلاث مرات، وندب إلى التسبيح ثلاثين فأكثر؛ وأن الأذان الأول في الأداء ظهر الجمعة الذي أحدثه أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إنما هو (عند

الغلاة منهم في التحريم) بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ـ مع أن أصحاب رسول الله صلى الله وسلم عليه وآله وأصحابه قد أجمعوا على مشروعيته ومع أنه سبيل المؤمنين منذ ذلك الحين.

وإذا كانت كل محدثة بدعة ـ كما يقولون ـ فليت شعري كيف تكون حال فرقتهم ونحلتها فإنها إنما أحدثت عند منتصف القرن الهجري الثاني عشر وما وجدت قط قبله؟ أفلا ينطبق عليها أنها محدثة وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة؟ نترك ذلك إلى منتحلي الفرقة أنفسهم، فهذا أفضل.

على أنا قد علمنا مما تقدم أن أصحاب هذه النحلة ليسوا من الحنبليين على أي حال، لا في الفروع ولا في الأصول. فإن الحنابلة وهم من «أهل الجماعة» لا يعدون أهل الجماعة مشركين مرتدين. ولا يجوّزون محاربتهم ولا سبي نسائهم وأطفالهم على أنها من سبي كفار. وقد كان من بين أوائل الرادين على مبادىء النحلة علماء حنابلة.

لكن يبقى هٰهنا سؤال في العظائم: لماذا كل هذا الإصرار العنود في الحكم على «أهل السنة والجماعة» بأنهم كفار مشركون؟ الإطناب في الجواب يخرجنا عما نحن بصدده في هذا الكتاب. فنكتفي بذكر حقائق تمت في واقع الأمر ومن شأنها أن تهدي طلاب الصواب إلى الجواب. ونوجزها في الفقرات التاليات: ـ

الأولى: أن هذه الفرقة المحدثة لم يكن لها وجود في أيّ تأريخ قبل منتصف القرن الهجري الثاني عشر. ثم استحدثت ثم قوي شأنها.

الثانية: أن المدة الزمانية الممتدة من منتصف القرن الهجري الثاني

عشر إلى منتصف القرن الرابع عشر قد زخرت بحروب عسكرية وحروب فكرية وإشعال فتن داخلية تفانت في إحداثها كلها دول الحضارة الأوروبية المعاصرة بغية القضاء على «دولة الإسلام العظمى»، الدولة العلية التي رفعت ألوية الإسلام رفرافة على ربوع أوروبا الجميلة، وكالت الصاع صاعين للذين كانوا قد هدموا دولة الإسلام الأندلسية وحرقوا أربعمائة ألف مخطوطة من المكتبة العالمية التي كان أسسها عبد الرحمن الثالث في طليطلة ـ جزاه اللّه عن العلم والعلماء خيراً.

الثالثة: أن أخبث الحروب الفكرية التي اصطنعتها وأثارتها تلكم الدول المعادية قد كانت المذاهب والأديان المصطنعة (التي أحدثتها بطرق الجاسوسية المحكمة والتبشير الهدمي) المموهة بواجهات إسلامية متطرفة أول الأمر على الأقل في إظهار الحرص على دين الإسلام ومنهاج السلف الصالح. وإن من هذه ما مكثت نحلة مخادعة تظهر شيئاً وتستبطن شيئاً آخر، ومنها ما تخلت عن الإسلام بعد الظهور وإحداث الفرقة. وما شؤون البابية والبهائية والقاديانية اليوم من الباقيات على خفاء.

الرابعة: أن الفرقة المحدثة اتجهت بعد أن قويت شكيمتها إلى تمزيق شمل المجتمع الإسلامي، وإلى فتن وغزوات داخلية شغلت دولة الإسلام العلية ردحاً من الزمان، وأغارت على أوطان المسلمين وقراهم ومدنهم، وحاصرت البلد الحرام حصاراً اقتصادياً مهلكاً مميتاً، فأوغلت في مسلمي الحجاز وغيرها قتلاً ونهباً وسبياً للنساء والأطفال على أنها من سبي المشركين. ثم أقامت في بعض ديارها التبايع بالرقيق في علانية السوق، وبقيت الحال على العلانية حتى السنة الميلادية ١٩٥٥، ثم أخفيت حذراً من صيحات

«حقوق الإنسان».

الخامسة: أن تلكم الفتن والغزوات داخل بلاد الإسلام قد استمرت حتى تأريخ انهيار الدولة العلية، ثم توقفت وبلغت غايتها بعد أن تم استعمار الأقطار العربية في الشرق الأدنى والشرق الأوسط وتم تقسيمها بين بريطانيا العظمى وفرنسا الكبرى فتم لقاء التصافي بين زعيمين عربيين مسلمين تحت راية المستعمرين على ظهر البارجة الحربية «لوبن» سنة ١٩٣٠ الميلادية.

السادسة: أن أبرز الرجال المحنكين الذين أداروا دفة الأمور كلها في الجزيرة العربية خلال النصف الأول من القرن الميلادي العشرين هم «سير برسي كوكس» و«لورنس» أو «لورنس العرب» كما لقب (صاحب كتاب أعمدة الحكمة السبعة») و«سانت جون فلبي» أو «عبد الله فلبي» منذ أن أراد هو رؤية المسجد الحرام والكعبة المشرفة. وهذا الأخير بقي في «دولة الموحدين» يوجّه شؤون البلاد الفكرية والداخلية والخارجية حتى العقد السادس من القرن الميلادي العشرين، أي إلى يوم أن بدأ الأمريكان يحلون محل الإنكليز في سياسة البلاد الإقتصادية والعربية والدولية.

السابعة: أن الإشارة الصريحة إلى علاقة مؤسسات التبشير الأمريكية بهذه الفرقة ونحلتها، أن هذه الإشارة قد وردت من قلم «ليندسي» في كتابه عن المدارس الأمريكية في لبنان بالنص التالية ترجمته: «لما أرسل المجلس المفوض بأمر الإرساليات التبشرية مبشريه الأولين إلى الشرق الأدنى لم يكن ينتظر أن تكون نتائج عملهم بين المسلمين سريعة الظهور. لقد أدرك المجلس أنه ليس من السهل حمل المسلم على تبديل دينه، لأن المسلمين مقتنعون بأن الإسلام أسمى الأديان، ثم إن السلطة السياسية في يد

المسلمين. غير أن الأمريكيين كانوا يأملون أن يتقوض البناء السياسي للدولة العثمانية في أثناء ذلك **فيقضى** بالتالي على القوى الإسلامية. وكذلك كان منهم من يظن أن «حركة الوهابيين الإصلاحية» ستهدم الإسلام السلفي». (راجع الصفحيتن ٧٨ ـ ٧٩ من كتاب ليندسي).

وهذا الذي قرأناه واضح في أن المراد من «الحركة الإصلاحية» هذه قد كان أن تهدم الإسلام السلفي الملتزم به عند أهل السنة والجماعة السواد الأعظم من المسلمين بنحلة هدامة تتظاهر بالسلفية وتحقق الهدم المقصود في واقع الأمر.

وهذا هو السر في أن الفرقة ما تزال تعمل على تمزيق شمل المجتمع الإسلامي بالوسائل كلّها المتاحة لها، مع أن جملة من العلل الغائية لإنشائها قد تحققت ـ وأجلّها صيرورة بلاد النشأة مستعمرة أمريكية من جميع الوجوه. وهكذا يجري تحقيق الجدلية الدجلية من الحضارة الأوروبية المسيطرة اليوم على بلاد المسلمين ـ ولا سيما ديارها المقدسة. فهل سيستفيق المسلمون من **سباتهم** العميق؟! اللهم اشهد أني قد بلّغت، وما كتمت الذي أنزلت من البينات والهدى في شرعة الإسلام.

بقي أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى الأستاذين الفاضلين الدكتورين مصطفى خالدي وعمر فروخ اللذين يسَّرا لنا الحصول على النص المتقدم وكثير غيره من نصوص الأستعمار في كتابهما القيّم «التبشير والاستعمار» (الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٧٣، ص ٢٦١ للنص المذكور) ـ هذا الذي يجب أن يقرأه كل مسلم وكل شرقي. أما المعلومات المقتضبة في الفقرات الأخرى فهي مقتبسة من كتابي «الدرر السنية» للشيخ السيد أحمد ابن زيني

دحلان (المطبوع بالمطبعة البهية سنة ١٢٩٩هـ)، و «جزيرة العرب في القرن العشرين» للأستاذ حافظ وهبه (المطبوع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م). وهذا الكتاب الأخير سجل للمعلومات التأريخية والمعاصرة كتبها مؤلف عاصر الأحداث عن كثب وكان وزيراً مفوضاً ومندوباً فوق العادة للمملكة العربية السعودية بلندن.

يروي صاحب «الدرر السنية» (ص ٢٧) أن الشيخ العالم سليمان ابن عبد الوهاب قال لأخيه إمام الفرقة المذكورة يوماً: «كم أركان الإسلام؟ فقال [الإمام] خمسة. فقال [الشيخ سليمان] أنت جعلتها ستة السادس من لم يتبعك فليس بمسلم هذا عندك ركن سادس للإسلام».

والشيخ إمام الفرقة هو من تلاميذ الشيخ الفقيه محمد ابن سليمان الكردي المدني. ويروي صاحب «الدرر السنية» أنه رأى نصّ رسالة من الأستاذ إلى تلميذه، حين قام الأخير بالدعوة، قال له فيها: «سلام على من اتبع الهدى. أنصحك للّه تعالى أن تكفّ لسانك عن المسلمين. فإن سمعت من شخص أنه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله تعالى فعّرفه الصواب واذكر له الأدلة على أنه لا تأثير لغير اللّه تعالى. فإن أبى فكفّره حينئذ بخصوصه. ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين وانت شاذ عن السواد الأعظم، فنسبة الكفر إلى من شذ عن السواد الأعظم أقرب لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين. قال تعالى: «**ومن يشاقق الرسول من بعدما تبيّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً**». وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية». («الدرر السنية» ص ٢٤ ـ ٢٥).

وكتاب العقائد الدينية المعتمد عند أبناء الفرقة هو «فتح المجيد» شرح

«كتاب التوحيد». المتن لإمام الفرقة. والشرح لحفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ. هذا الكتاب مشحون بتوجيه آيات القرآن النازلة في حق المشركين إلى المسلمين وتطبيقها عليهم دون هوادة وبمزاعم غير ثابتة. ويذكر الماتن والشارح (في الصفحات ١١٦ ـ ١٢٠) ما يلي نصه: ـ

«في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على اللّه عز وجل».

«وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله:

ـ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال،

ـ بل ولا معرفة معناها مع لفظها،

ـ بل ولا الإقرار بذلك،

ـ بل ولا كونه لا يدعو إلا اللّه وحده لا شريك له.

ـ بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك كله الكفر بما يعبد من دون الله. فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه».

«اللاءات» المتعاقبة في هذه الفقرات مناقضة تمام المناقضة لحديثي المقياس والميزان اللذين رويناهما قبل صفحات. ومن يناقض حكم رسول الله ﷺ فهو متبع لا محالة غير سبيل المؤمنين. والمقالة برمتها متعارضة مع جملة من السنن الثابتة: منها حديث أركان الإسلام، ومعاملة رسول الله ﷺ في شأن المنافقين، وتأنيبه أسامة بن زيد في مقتل كافر قال «أسلمت لله» أو «لا إله إلا الله» في ساحة الوغى. وليس التعارض مما يخفى على المرتادين رياض الأحاديث والسنن. والفقرة الأخيرة أشدها تعارضاً، لأن مراد قائليها

«بالكفر بما يعبد من دون اللّه» هو غير ما ورد في نص الحديث الشريف الذي شرحاه بمقالتهما المعارضة.

فلننظر ماذا يعنيان بقولهما «الكفر بما يعبد من دون اللّه»، لأنهما لو كانا يريدان عين ما ورد في نص الحديث الشريف لما تناقض قولهما مع الحديث والسنن.

«ما يعبد من دون الله» في نحلتهما قد أفرد له باب برأسه من الصفحة ٢٤٨. ألا وهو زيارة القبور. فمن زار قبر رجل صالح فقد اتخذ القبر وثناً، ومن اتخذ وثناً من دون الله تعالى فقد أ شرك!

وإن من أغرب المتناقضات التي وجدتها في كتاب العقائد المبحوث في شأنها قول الشارح (في الصحفة ٢٤٩): «ودل الحديث [أي حديث «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»] على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثناً، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه. ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها. وقد عظمت الفتنة بالقبور لتعظيمها وعبادتها». هذا نص كلامهم.

ونقول سبحان اللّه أعاذنا اللّه. لو كان أحد يعبد في قلبه قبر النبي ﷺ فهل الموجود عليه من القفص الحديدي هو الذي من شأنه الحيلولة دون تحقق العبادة حيث لا يوصل إلى أصل سطح القبر؟! ثم إنه ليس يكون عند أيّ مسلم لقبر أيّ صالح احترام يبلغ معشار ما عنده من احترام قبر النبي، وإن على قبور الصالحين أقفاصاً حديدية أو خشبية مانعة من الوصول إلى أسطح أصول القبور، فلِم لا تعد هذه الموانع حائلة على ذلك دون تحقق العبادة؟! ولماذا يبقى أصحاب النحلة بعد ذلك أيضاً مصرين على أن الزيارة شرك

وعبادة أوثان؟! ثم لو صح أن المسلمين ـ كما يفترى عليهم ـ قد اتخذوا من التوابيت التي على القبور أوثاناً فلم لا يقال كذلك بأن الذي على روضة رسول الله ـ ﷺ ـ قد اتخذ وثناً أيضاً ـ ولا سيما الموجود هنا محيط أيضاً بقبري صاحبيه رضي اللّه عنهما؟! أم أن في نحلتهم فرقاً بين وثن ووثن؟! أم أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم تستباح على هذه الشاكلة؟!

هذا على أية حال هو موقف أصحاب تلك النحلة الذين يلقبون أنفسهم بلقب «الموحدين»، ويجعلون لقب المشركين لجمهور المسلمين وعامتهم وسوادهم الأعظم.

أما علماء الأمة الإسلامية كافة في الأمصار الإسلامية قاطبة فإن شأنهم في عقيدة أتباع النحلة شأن مشركي قريش ومن لف لفهم رأساً برأس. وإنهم يلقبون علماء الأمة بلقب «الملعونين»، ويعملون جاهدين على قطع الصلة ونزع الثقة بين علماء الأمة وأبناء الأمة. وليس يخفى على المستبصر المتأمل ما في هذا المسعى من طعنات مسمومة في كبد الإسلام. لكنه هو المسعى نفسه الذي رسمته شياطين الإنس من دهاة الاستعمار والمبشرين والمستشرقين أعداء الإسلام دينه وحضارته وعلمائه. يقول صاحب «فتح المجيد» (ص ٨١) في وضوح تام: «إن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، وما عرفوا معنى الإلٰهية التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى اللّه». ولينتبه إلى أنه استعمل لفظة «أكثر» في صدر عبارته ليخرج «علماء الموحدين» فلا يتناولهم التكفير وهم القلة.

إرجع الآن ـ أيها الرفيق القارىء ـ إلى ما قدمنا من نصوص المقياس والميزان تجد هذه العقيدة معارضة لحكم رسول اللّه مبنيّة على مشاقته ـ

صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم.

وإن ما تقدم كله غيض من فيض من مناحي أصحاب الفرقة المحدثة. وليس من غرضنا تتبع مناحيها كلها في هذا الفصل. فمن أراد التفصيل فليرجع إلى العالم المفضال السيد محمد علوي المالكي المكي الحسني في كتابه القيم «مفاهيم يجب أن تصحح» (طبعة دار الإنسان ـ القاهرة ١٤٠٥هـ).

لكنه ربما كان ذا فائدة لنا وللرفيق القارىء بعد الذي تقدم كله أن نتأمل مسار الفكر ومنهج العلم عند طبقة كبار العلماء للفرقة المبحوث في نحلتها. نأخذ للفحص والتأمل صورتين لموضوعين مهمين، نأخذهما من تصوير أنصار النحلة وأصدقاء الفرقة، ولا نعتمد على قيلة من سواهم.

يذكر الأستاذ حافظ وهبه في كتابه المشار إليه قبل قليل (ص ٣٠٧ - ٣٠٩): -

«أوفدني جلالة الملك للمدينة سنة ١٣٤٦هـ ١٩٢٨م مع عالم من علماء نجد للتفتيش الإداري والديني، فجرى ذكر التلغراف اللاسلكي وما يتصل به من المستحدثات، فقال الشيخ: لا شك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن، وقد أخبره ثقة أن التلغراف اللاسلكي لا يشتغل إلا بعد أن تذبح عنده ذبيحة، ويذكر عليها اسم الشيطان، ثم أخذ يذكر لي بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان. ولقد كان شرحي لنظرية التلغراف اللاسلكي وتأريخ استكشافه ليس له نصيب من اقناع الشيخ، فلم أجد أيّ فائدة من البحث فسكت على مضض».

«وقد أخبرني جلالة الملك في شعبان سنة ١٣٥١هـ. ديسمبر سنة ١٩٣٢م أثناء زيارتي للرياض أن المشايخ (أي رجال الدين) حضروا عنده سنة

١٣٣١هـ لمـا علموا بعزمه على إنشاء محطات لا سلكية في الرياض وبعض المدن الكبيرة في نجد، فقالوا له: يا طويل العمر، لقد غشّك من أشار عليك باستعمال التلغراف وادخاله إلى بلادنا. . . فقال لهم الملك: لقد أخطأتم فلم يغشنـا أحد، ولست ولله الحمد بضعيف العقل أو قصير النظر لأخدع بخـداع الخـادعين. . . أنتم الآن فوق رأسي تمـاسكـوا بعضكم ببعض لا تدعوني أهز رأسي فيقع بعضكم أو أكثركم، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض لا يمكن أن يوضع فوق رأسي مرة ثانية؛ مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لي ولبلادي، وليس هنالك من دليل أو سنة رسول يمنع من إحداث اللاسلكي والسيارة».

تلك هي الصورة الأولى. أما الثانية فقد جاءت عام **١٩٦٥** الميلادي، أثناء سفري في خدمة والدي ـ أسكنه الله الفردوس الأعلى ـ لأداء مناسك العمرة وزيارة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ـ يوم إذ أصدر شيخ مرموق من كبار علمائهم فتوى بأن كل من يقول بأن الأرض كروية فهو كافر، مستدلاً بالآية الكريمة (المنزهة عن فهمه): «**والأرض فرشناها فنعم الماهدون**». وما كنت أريد لأذكر اسم الشيخ المتّبع، لأننا معنيون هنا ببيان الآراء والأفكار والنحل بعيدين عن غرض القدح والتشهير بالأشخاص. ثم إن الفتوى اشتهرت في حينها، ورد عليها من رد، ولربما سمع بها القارىء فيمن سمع.

هذا. وتتطابق الفرقتان القديمة والمحدثة من أصحاب نحلة الشقاق والتكفير على معـاداة «التصـوف الإسـلامي» والصوفية عداء يصلون به حد تكفيرهم وإخراجهم عن ملة الإسلام. أما الفرقة القديمة فلها في ذلك كتب

مطولـة مثـل: «كسـر أصنـام الجـاهلية» لملا صدرا شيرازي (طبعة طهران ١٩٦٢م)؛ و«سفينـة بحار الأنوار ومدينة الحكـم والآثار» لعباس ابن رضا القمي (طبعة حجر ١٣٥٥هـ). يروي صاحب الكتاب الأخير ما نسب إلى الإمام الرضا ـ كرم اللّه وجهه ـ أنه قال: «لا يقول بالتصوف أحد إلا لخدعة أو ضلالـة أو حمـاقة وأما من سمى نفسه صوفياً للتقية فلا إثم عليه». (راجع الكتاب ص ٥٨).

أما الفرقة المحدثة فقد علمنا في الصفحات المتقدمة موقفهم من أهل الجمـاعـة السـواد الأعظم من المسلمين. فإذا علمنا أن الكثرة الكاثرة من الصوفية هم من هذا السواد الأعظم أدركنا موقف الفرقة منهم ـ وإن في كتبها (وتعليقـات أبنـائهـا على كتب) من التكفير واللعن عليهم وعلى «التصوف الإسلامي» ما إن شئت حدث عن مقابحهما ولا حرج. لكنا نكتفي هنا بذكر أمرين: ـ

الأول: شريط مسجـل لمحـاضـرات في شأن التصـوف الإسـلامي استمعت إليه قبل نحو من عشر سنوات فألفيت في المحاضرات نقداً لاذعاً لا بأس به، لأن النقد إذا لم يتعد حدود العلم فقد يأتي منه خير، غير أن هذا النقد كان مشتملاً أيضاً على أكاذيب ومفتريات على التصوف أريد بها صرف المسلمين عن جانب مهم من دينهم. ثم علمت أن آلافـاً مؤلفـة من ذلك الشـريط كان قد وزع في العالم الإسلامي ـ وهذا إنما هو من قبيل أعمال حكومات أو أحزاب تملك إنفاق مبالغ طائلة من المال.

الثـاني: ما صرح به الشيخ محمد حامد الفقي رئيس «جماعة أنصار السنة المحمدية»، وهو من كبار علمائهم، من اعتبارهم «الماسونية» والتصوف

الإسلامي نظيرين في مقام واحد. ففي مقدمته (الصفحة هـ) للطبعة السابعة لكتاب «فتح المجيد» (بمطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م) يقول ما نصه: «ثم كان للباطنيين فروع تعمل لتفريق كلمة المسلمين باسم الفلسفة، وباسم المذاهب، وباسم الماسونية والتصوف. ففرقوا جماعة المسلمين، وأعادوهم في دينهم شيعاً وأحزاباً، ومذاهب ونحلاً. كل حزب بما لدَيهم فرحون. وكلهم عن الحق ناكبون، إلا حزب الله المفلحين». ويعني بهم المتلقبين بلقب «الموحدين» من أنصار حزبه. وأيضاً علمنا أن محاولات جرت من ممثلي أرباب هذه النحلة في بعض اجتماعات «منظمة المؤتمر الإسلامي» لاستصدار قرار بادخال التصوف الإسلامي ضمن المبادىء الهدامة مع البابية والبهائية والشيوعية. لكن ممثلين من بعض الدول الإسلامية أحبطوا المحاولة والمسعى.

ثم الذي يجدر الالتفات إليه أن أصحاب الفرقة المحدثة وزمر الشبان من أتباعهم يعظمون الشيخ تقي الدين ابن تيمية تعظيماً مفرطاً لو صدر من غيرهم لغيره لربما كفروه به. ولسنا نرى بأساً بتوقير الشيخ الفاضل وهو من علماء الأمة المتأخرين في منقلب القرنين السابع والثامن الهجريين ـ رحمه اللّه بلطفه ورحمهم وجزاهم جميعاً خير جزاء. لكن حسبانه من أولياء هذه الفرقة المحدثة فيه من الإساءة إليه ومن مجافاة الحقيقة ما لا ينبغي السكوت عنه. وكذلك الشأن بالنسبة إلى تلميذه الوفيّ والمؤلف المفضال الشيخ ابن قيم الجوزية. فإن الشيخ ابن تيمية وافاه الأجل سنة ٧٢٨ من الهجرة، والفرقة المحدثة إنما استحدثت خلال النصف الثاني من القرن الهجري الثاني عشر.

والأهم من ذلك أن جملة من آراء ابن تيمية في أصول العقيدة وفي

فروع الفقه بعيدة كل البعد عن التطابق مع نحلة الفرقة المستحدثة. وههنا نكتفي عن الإفاضة في تلكم الخلافيات بنقل فقرات مما كتب الشيخ ابن تيمية من مذهبه في شأن التصوف والمتصوفين : ـ

ـ يقول في شأن كرامات الأولياء: «وكرامات الأولياء حق باتفاق أئمة أهل الإسلام والسنة والجماعة. وقد دل عليها القرآن في غير موضع، والأحاديث الصحيحة والأثار المتواترة عن الصحابة والتابعين وغيرهم. وإنما أنكر أهل البدع من المعتزلة والجهمية ومن تبعهم». (راجع «مختصر الفتاوى المصرية» ص ٦٠٠).

ـ ويقول حاسماً الخلاف في شأن الصوفية: «وقد تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة. وطائفة غلت فجعلت طريقهم أفضل الطرق. والصواب أنهم يجتهدون في طاعة اللّه، فمنهم المذنب والتقيّ. وقد صارت الصوفية ثلاث طبقات: صوفية الحقائق؛ وصوفية الأرزاق؛ وصوفية الرسوم. فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم [بأنهم يجتهدون في طاعة اللّه]. وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الخوانق والوقوف فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق. وأما صوفية الرسوم فمنهم المقصودون المقتصرون على التشبه بهم في اللباس والآداب الوضعية، فهم بمنزلة الذي يقتصر على زيّ أهل العلم». (راجع المصدر السالف ص ٥٧١ ـ ٥٧٢).

ـ ويقول في المقامات والأحوال: «أعمال القلوب التي تسمى المقامات والأحوال. وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين. مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه

والخوف منه والرجاء وما يتبع ذلك. كل ذلك واجب على جميع الخلق المأمورين بأصل الدين باتفاق أئمة الدين. . . وهذه المقامات للخاصة خاصتها وللعامة عامتها». (راجع المصدر نفسه ص ٥٨٧ ـ ٥٨٩).

ـ ويقول في المواجيد والواردات إنها «إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على فعله من الخير معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانه وقساوة قلبه. ومن لم يزُل عقله مع كونه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم وأكمل فهو أفضل منهم. وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وحال نبينا ﷺ. فإنه أسري به ورأى ما رأى من آيات ربه الكبرى وأصبح ثابت العقل لم يتغيّر. فحاله بلا شك أفضل من حال موسى الذي خرّ صعقاً لما تجلى ربه للجبل وجعله دكا. وحال موسى حال جليلة فاضلة علية. لكن حال محمد ﷺ أفضل وأكمل وأعلى». (راجع المصدر السالف ص ٥٧٠ ـ ٥٧١).

هذا ما قاله الشيخ ابن تيمية وذهب إليه. ونحن نقول بجميع ما قاله ونذهب إليه. أما تلميذه المؤلف المفضال الشيخ ابن قيم الجوزية ـ وهو كأستاذه قد تعرض اسمه للدس والاستغلال ـ فلا ينبغي عليّ أن أنقل رأيه في التصوف الإسلامي، فإنه هو قد ألف في التصوف كتاب «مدارج السالكين» في ثلاثة أجزاء، فينبغي على الرفيق القارىء أن يطلع عليه ويقرأه.

ولقدماء الحنابلة فضل في مجال أعمال الروح الإسلامية يذكر. إمامان جليلان من أئمتهم لهما قدم راسخة في الروحانية والعمل الروحي. أولهما، وهو أقدمهما، حضرة الإمام عبد الله بن محمد بن علي الهروي المتوفى سنة ٤٨١ الهجرية. وثانيهما مفتي الحنابلة في بغداد حضرة الشيخ عبد القادر

الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١ من الهجرة. وللإمام الهروي كتاب «منازل السائرين» وهذا هو المتن الذي شرحه ابن القيم بكتاب «مدارج السالكين» السالف ذكره. وللشيخ عبد القادر الكيلاني كتاب «الفتح الرباني». اللهم إجزهم عن المسلمين خيراً، وأنلهم من عندك فضلاً وبرّاً؛ وأفض علينا أمثال بركاتهم، واسلك بنا مسلك كراماتهم؛ إنك أنت الكريم الوهابْ.

هذا. أما تعايش أصحاب الفرقة المحدثة مع أهل الجماعة في مجتمع أهل الجماعة فمبني على نفاق غليظ غليظ يتحلى به أصحاب الفرقة. ذلك أنهم يحضرون مساجد أهل الجماعة، وأهل الجماعة في رأيهم أناس مشركون. يصلون معهم في صفوفهم ويقتدون معهم بإمام جماعتهم والإمام فيما هم يرون مشرك. ولديهم داعية نفس ورغبة شديدة في أن يؤم واحد منهم المصلين كلما سنحت الفرصة لذلك بتغيب الإمام المقيم لغرض أو مرض، فيصلي المتقدم منهم بجماعة أكثر نفوسها في رأيه من المشركين. ولسنا ندري كيف يجوز لمسلم الإقتداء بإمام هو عنده أنه مشرك، أو الإمامة لجماعة هم عنده أنهم مشركون!!

الآن حان الوقت للانتهاء من الكلام في شأن نحلة الشقاق والتكفير، وآن الأوان للانتهاء إلى النحلة الثالثة والأخيرة من النحل التي تناولها هذا الفصل من الكتاب.

نحلة الدجل والاستغلال:

نحن ملتزمون هنا بالتقسيم الثلاثي الذي أورده ابن تيمية: صوفية الحقائق، ومتصوفة الأرزاق، ومتصوفة المراسم. أما أهل الحقائق من الصوفية فهم الصادقون المتقون العاملون عمل الروح في الإسلام ـ وهذا الكتاب كله

بيان لحقائق أعمال الروح في الإسلام. وأما متصوفة الأرزاق ومتصوفة المراسم فمع التزامنا بهذا التقسيم الثلاثي سننتقل في كشف أحوالهم من ابن تيمية في جيل القرن الهجري الثامن من المتأخرين إلى القرن الهجري الخامس الأقرب من عهود السلف الصالح ـ إلى الإمام أبي حامد محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥. فهو من معاصري الإمام الهروي الحنبلي، ومن العلماء المتوسعين في علم طريق الآخرة وفي فرز المبطلين عن المحقين. سنقتبس من بيانه ووصفه، وسنراه ينطق بما سكت عنه ابن تيمية في تقسيمه، لكن هذا التقسيم أوفق لما نقصده من الإيجاز في هذه الورقات ـ ولا سيما الغرض إنما هو كشف النحلة دون استقصاء آحاد الفرق. وجزى الله هذين الشيخين على ما أتحفانا به إيجازاً أو تفصيلاً.

متصوفة الأرزاق: يميزهم الإمام الغزالي في موسوعته «إحياء علوم الدين» (ج ٣ ص ٤٩١ ـ ٤٩٣) بهذه المقتضبات هنا من الخصال والأحوال: ـ

ـ «وفرقة أخرى [من المتصوفة] زادت... في الغرور فأرادت أن تتظاهر بالتصوف، ولم تجد بداً من التزيي بزيهم، فتركوا الحرير والابريسم... ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والابريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب. فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين، ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير. وشرّ هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق. إذ يهلك من يقتدي بهم. ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه، فيطّول اللسان في الصادقين

منهم. وكل ذلك شؤم المتشبهين وشرهم».

ـ «وفرقة أخرى وقعت في الإباحة، وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام. فبعضهم يزعم أن اللّه مستغن عن عملي فلِم أتعب نفسي . . . وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها؛ وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب اللّه وواصلة إلى معرفة اللّه؛ وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية؛ فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب. ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق اللّه . . .».

ـ «وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب. ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ، لأنه تلقّف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين. فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام فيدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين. وإنه عند اللّه من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين لم يحكم قط علماً ولم يهذب خلقاً ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه».

يفصّل الإمام الغزالي أحوال عشر فرق من المتصوفة في كتابه «إحياء علوم الدين» (ج ٣ ص ٤٩١ ـ ٤٩٦) فمن شاء فليرجع إليه. ولسنا نجد عالماً كالغزالي في معرفة حقائق عمل الروح وطريق الحياة الخالدة، ولا خبيراً مثله

في الاطلاع على مخاريق متصوفة الأرزاق وغيرهم من المنحرفين عن جادة الصواب. والشيخ ابن القيم (المتوفى سنة ٧٥١ هـ) عالة في كتابيه «الروح» و«مدارج السالكين» على كتب الإمام الغزالي ومعارفه ـ جزاهما اللّه خير جزاء العلماء العاملين. فليرجع إليهما لتفصيلات لا نملك نقلها في هذا الفصل الذي تجاوز في طوله الحد الذي كنا رسمناه بادىء الأمر.

متصوفة المراسم: وهٰؤلاء هم الذين يقول فيهم الإمام الغزالي: ـ

«ففرقة منهم [من المتصوفة] وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه اللّه اغتروا بالزيّ والهيئة والمنطق فساعدوا [أي وافقوا] الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة... إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات. فلما تكلفوا ذلك ظنوا أنهم أيضاً صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ـ وكل ذلك من أوائل منازل التصوف. ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية، كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها. بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه. وهؤلاء غرورهم ظاهر...»

ـ «وفرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضى والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها. فمنهم من يدعي الوجد والحب للّه تعالى ويزعم أنه واله باللّه ولعله

قد تخيّل في اللّه خيالات هي بدعة أو كفر. فيدعي حب اللّه قبل معرفته. ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره اللّه عز وجل، وعن إيثار هوى نفسه على أمر اللّه؛ وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من اللّه تعالى. وليس يدري أن كل ذلك يناقض الحب. وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل، فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التّوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد. بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على اللّه تعالى لا على الزاد. وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به. . .».

ذلك كله عند متصوفة الأرزاق ومتصوفة المراسم في زمان الإمام الغزالي. وذلك كله عندهم في زماننا. وقد زادوا خلال القرون الأخيرة نقر الدفوف وقرع الطبلة والنفخ في الناي ـ آلات طرب يهزون لسماعها الأعطاف ويرقصون، حتى إذا بلغت النشوة فيهم مبلغاً غرزواً الدرابيش أو السكاكين في البطن أو العارضين أو غيرهما من أطراف البدن. وإن فيهم من يقرضون الزجاج داخل الفم أو يدخلون في أفواههم الجمر أو النار مشتعلة في خرقة. وإن فيهم من يرقصون أو يتأودون أو يفرفرون أو يدّاورون وهم يزعقون. وهذه كلها أعمال مخالفة لأحكام الشريعة الغراء ـ شريعة خاتم النبيين. وإن في جسم الإنسان غدداً تهيّجها هذه الحركات والرقصات فتستثير بها نشوة خادعة هي من لمة النفس الأمارة وتلتبس على مخالف الشرع فيزعمها من خلجات القلب وبركات الروح. والطريق مسدودة أمام الراغبين إلى اللّه تعالى بمخالفة أوامره ونواهيه لأجل موافقة إنسان من متصوفة الأرزاق والمراسم ربما ترك

حضـور الجمعـة والجمـاعات. وللمخالفة كما للمخاريق وللسحر ضروب وطقوس وخوارق عادات.

فأمـا الأبـواب المشـرعة على مصاريعها لدخول هذه المهالك فأرى مجامعها في مفسدتين اجتماعيتين: إحداهما «تجديد العهد» والأخرى هي «الانتحال».

تجـديد العهد: يكون حين يتوفى شيخ من عباد اللّه الصالحين كان اجتمع حوله المسلمون لصلاحه وزهده وعلمه وإخلاصه العمل للّه وحده؛ فخلف من بعده خلف أضاع الصلاة واتبع الشهوات واستناب مناب الشيخ المتوفى حفاظاً على المنزلة والجاه والمال لنفسه؛ فجلس على السجادة يقبل الوافدين عليه «لتجديد العهد»، أي للانتساب إليه واتباعه مرشداً لهم كسلفه ـ وشتان ما بين الثرى والثريا. وهؤلاء الوافدون تدفعهم محبة شيخهم الغابر، ويغشهم اتخـاذ النـاس تجـديد العهـد سنة (بل بدعة) متبعة ـ كأنما العلم والصلاح والتقوى تركات أموال منتقلة بالميراث. وتنتهي خاتمة المطاف بهذه البـدعـة إلى إمـامـة في الدين لرجل جاهل، فإلى ضلالة الاعتقاد بأن في الإسلام حقيقة تناقض الشريعة وتعارض أحكامها، وأن الحقيقة أعلى وسيلة وأسماها لمرضاة رب العالمين. واللّه وحده نسأل الحفظ من سوء الخاتمة.

فأما الانتحال: فصورته إنسان منتسب إلى شيخ مرشد روحاني من أهل العلم والحقيقـة، ويمضي منتسبـاً في الـطريق مخلصاً فيأمره شيخه بالقيام ببعض العبادات، لكنه ما يزال على مبعدة من الاستعداد لأن يصبح شيخاً مرشـداً روحـانياً مستقـلاً بإرشـاد المسلمين، بل على مبعدة من الاستعداد الروحي لأدنى من ذلك مثل منزلة «الخلافة» أي النيابة عن المرشد في بعض

الأعمال الروحية دون أيما استقلال بإرشاد؛ ويتوفى الشيخ والمنتسب على هذه الحال؛ فتسوّل له نفسه «انتحال» منزلة الاستقلال مرشداً كاملاً كشيخه الراحل، وتغلبه فينتحل ويدعي طامعاً في الجاه أو المال أو كليهما معاً ـ دون أن يكون قد حاز تلك المنزلة والإجازة بمهمات أعمالها الروحية.

والانتحال مبناه الغش والدجل. فهو عليم في باطنه بأنه عاطل عن الإجازة وعن القدرة الروحانية اللازمة للمجازين حقاً بالاستقلال بالإرشاد. ودهماء الناس ليسوا على علم بأن المرشد الحق إذا أجاز تلميذاً له ناهضاً بالغاً ذروة الاستقلال عن أستاذه في الإرشاد فإنه يكتب له الإجازة بقلمه وخطه ليحول دون الغش والانتحال. فلا يطالبون المنتحل بإجازة، وإن طالب أحد منهم فينبغي أن يكون عارفاً سبق له تمييز خط الأستاذ الراحل وأسلوب كتابته ليتبين الحق من الباطل والبهرج من الزائف. وليت المغشوشين انتبهوا إلى أن من دأب المرشدين المحققين المجيزين أنهم يعلنون حال حياتهم في الدنيا أسماء الذين بلغوا عندهم مرتبة الإرشاد استقلالاً فأجازوهم إجازة المرشدين؛ فمن ادعى بعد وفاتهم فإنما يدعي زوراً وانتحالاً.

وأغرب جامع بين الارتزاق والتظاهر بالمراسم لكسب الجاه ما وقع في زماننا. شاب متعلم، ليس هو من أهل المعرفة في علوم الدين، اتجه في «محافظته» القصية عن عاصمة بلاده إلى اجتلاب أنظار الناس وولائهم بأن ادعى دعوى عريضة خلاصتها أن المرشد الروحاني الفلاني ـ وهو عالم معروف بوجهته الروحانية ـ قد أجازه الإجازة التامة للاستقلال بالإرشاد. فقال هو للناس هلموا إليّ فإني مرشد تام الأهلية منذ الساعة التي أجازني فيها حضرة الشيخ المرشد الكبير. سعى الشبان الأغرار إليه. واستصغر سنه بعض

الشيخة فسألوه أصادق أنت في دعواك. فتحداهم الفتى قائلاً: أمركم عجيب، لو كان الشيخ قد مات لكان لكم بعض العذر في الشك؛ أما وحضرة الشيخ لا يزال حياً فاذهبوا إليه واستفسروا منه يوكد لكم شأني. ومضت الحيلة، والتف حولها ناس، وبنيت «تكية».

لكن رجلاً من مسلك التعليم العام بقي شاكاً في حال الفتى الداعية، وزاده شكاً بعض ما شاهد عنده من ممارسات مستغربة. ففكر الرجل وقدر، ثم عزم في نفسه: إن هي إلا دنانير تنفق وسفرة إلى العاصمة، فلأذهبنّ إلى الشيخ المجيز وأستجلينّ حقيقة الأمر. وهٰكذا عمل - جزاه اللّه خيراً. فلما أخبر الشيخ بما جرى، وذكر اسم الفتى ووصفه، تذكر الشيخ أن هذا الفتى سبق أن التمس الانتماء إلى المسلك الروحي كأيّ مبتدىء منتسب؛ وأن التماسه خاب فلم يقبل؛ وأنه لا صلة له بالشيخ ولا بمنهاجه في العمل الروحي الإسلامي ولا بتلاميذه وإخوانه في الله. ثم تبيّن أن الفتى إنما يتعاطى بعض أنواع السحر. ويقول رب العزة في كتابه المجيد: -

- **«واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن اللّه ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون».**

(البقرة: ١٠٢).

مبتدعات من فصيلة الانتحال: وأيضاً يلتحق بفصيلة الانتحال ما وجد في زماننا (بين شبان وكهول تعلموا من علوم الدين) ممن ادعى أنه يتلقى العلم الروحاني ومدده من رسول اللّه ﷺ تلقياً مباشراً دونما تعلم ولا تدرج ولا تلمذة وتدريب عند مرشد روحاني. وربما ابتدع طريقة ذكر يستدرج الناس إليها بألقاب مثل «الطريقة المحمدية»، أو قلّد طريقة سابقة لكن استجد لها لقباً من هذا القبيل. فهو على هذا الوجه يدّعي أنه يشتغل «بالرابطة» مع رسول اللّه ﷺ.

ومنهم من ادعى أنه يشتغل «بالرابطة» مع المصحف الشريف، فقلّد حلقة ذكر خفي كما لطريقة روحانية سليمة لكنه وضع مصحفاً كبير الحجم في مركز دائرة الحلقة وزعم «الرابطة» مع المصحف الشريف.

ويشترك مع هؤلاء في التخريب آخرون ينفون الحاجة إلى الأستاذ المرشد ويزعمون الوصول إلى المقاصد العليا بمجرد ادعاء محبة اللّه ورسوله ـ وكأنما كان العلم والعمل الروحانيان مختلفين عن سائر علوم الكتاب والسنة وغير ماضيين على سنن التعليم والتعلم والتلقي، هذه التي جعلها اللّه للناس في هذه الحياة الدنيا. ويغلب على هؤلاء الأخيرين قصد تخريب العمل الروحي الإسلامي وصد المسلمين عن مسالكه الصحيحة ـ وإن تشابهت وجوه من مناحيهم وأقوالهم مع تلك التي عند أولئك المنتحلين. أما الافتقار إلى التعليم والتعلم في واقع الشرع والحال فسنشرحه في الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب ـ إن شاء الله تعالى.

هذه كلها. ثم إن المتخفيات من تلكم النحل وراء غلالة الحرص على الإسلام والغلو في الدين، إن هذه لهي شديدة الفتك في مجتمع المسلمين

كثيرة التخــريب من صرح وحــدتهم التي من شأنهــا أن تجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. وما هذا الفصل من الكتاب إلا صيحة تحذير للمسلمين من التمادي في التنابذ والتنافر والانشقاق، ونداء حق لهم أن يعودوا كمـا كانـوا أمة واحدة تجمعهم «لا إله إلا اللّه» وتقودهـم محبة اللّه ورسوله والجهاد في سبيله. وبما يلي الانتقال إلى الركن الثالث في الجهاد.

الركن الثالث
«الجهاد في سبيل اللّه تعالى»

الفصل التاسع : الجهاد الأكبر.

الفصل العاشر: جهاد الإرشاد والدحض.

الفصل الحادي عشر: جهاد الرباط.

الفصل الثاني عشر: جهاد الذب عن الحياض.

الفصل التاسع
الجهاد الأكبر

حياة المؤمن كلها جهاد متى ما فهمنا من الجهاد التزام الشريعة الغراء قانون حضارة الإسلام المستقى من معين الكتاب والسنة. وليس الجهاد محصوراً في قتال بالسلاح في معركة أو موقعة حرب. فإن من الأعمال ما يتقدم عليه، ولكل عمل في طاعة الله تعالى أجره وثوابه.

ـ أخرج البخاري في صحيحه (القسطلاني ج ٥ ص ١٥٧): «حدثنا محمد ابن عبد الرحيم حدثنا شبابة بن سوار الفزاري حدثنا إسرائيل عن [جده] أبي إسحاق قال سمعت البراء رضي الله عنه يقول أتى النبي رجل مقنّع بالحديد فقال يا رسول الله اقاتل واسلم. قال[ﷺ] : «أسلم ثم قاتل». فأسلم ثم قاتل فقتل. فقال رسول اللّه ﷺ : «عمل قليلاً واجر كثيراً».

ـ وأخرج البخاري في الصحيح (القسطلاني ج ٥ ص ١٦٠): «حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عبد الوهاب حدثنا خالد عن عكرمة أن ابن عباس قال له ولعلي [ابن عبد الله بن عباس] إئتيا أبا سعيد [الخدري] فاسمعا من حديثه. فأتيناه وهو وأخوه[من الرضاعة] في حائط[بستان] لهما يسقيانه. فلما رآنا جاء فاحتبى [بردائه] وجلس فقال كنا ننقل لبن المسجد لبنة لبنة وكان عمار [ابن ياسر] ينقل لبنتين لبنتين فمر به النبي ﷺ ومسح عن رأسه الغبار وقال:

«ويح عمار تقتله الفئة الباغية. عمار يدعوهم إلى اللّه. ويدعونه إلى النار».

ـ وأخرج الترمذي في «الجامع الصحيح» (ج٤ ص ١٦٤) «حدثنا أبو عوانة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد؟ قال «لا تستطيعونه». فردوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول «لا تستطيعونه». فقال في الثالثة: «مثل المجاهد في سبيل الله مثل القائم الصائم الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل اللّه». أي يرجع إلى الجهاد كرة أخرى وقد عمر ما بين الكرات بسائر العبادات.

فإني لأفهم هذا الحديث الشريف على معنى أن القائم الصائم الذي لا يفتر منهما تتقوى وتتعالى نفسه وهمته فيندفع إلى الجهاد مراراً عديدة وهكذا يرجع المجاهد (بنصب الدال) المتفاني في سبيل اللّه سبحانه. فلهذه المقدمات الصالحات ما لنتائجها من أجر وأثر؛ والصلاة والصيام على هذا الوجه من أفضل الوسائل لجهاد النفس وتزكيتها وتقوية القلب وإيمانه فإيثار الشهادة في سبيل اللّه عز شأنه على البقاء في الحياة الدنيا. وهذا هو الجهاد الأكبر ـ وسترى حجته في آخر هذا الفصل.

«كتب عليكم القتال وهو كره لكم» و **«إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما ربي»**. فالإنسان العامر قلبه بذكر الله تبارك وتعالى ومحبته والخشوع له والإنابة إليه والتوكل عليه هو الذي يستزيد من هذه الخصال والمواهب وهو الذي يدافع ويضحي بالنفس والنفيس رجاء عزة المؤمنين واعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته. وهذه كلها من أعمال الروح. فتزكية النفس وتجلية القلب والتوجه صوب مرتبة الإحسان ـ كل أولئك تربية روحانية صرف، وسيأتي مزيد بيانها في الفصل الخاص بأعمال القلوب. وبهذه التربية تترسخ العقيدة

وتتعالى الهمم وتنشأ أجيال كجيل المؤمنين العظام أصحاب رسول الله ـ صلى الله وسلم عليه وآله وأصحابه.

أما إذا ضعفت هذه التربية أو فقدت فسترى مسلمين ضعفاء متشرذمين عائشين في أوطانهم معايش الذل، وفيهم من ينشّأ في الحلية لكنه في خصام الحضارات غير مبين. فإذا تأملت ما ذكرناه علمت أن جهاد النفس والقلب والروح هو الصرح والأساس المتين لسائر أنواع الجهاد.

وهذا القول الحق يردني إلى ذكريات قبل تأسيس دويلة إسرائيل. عصابات صهيونية في رقعة صغيرة من أرض فلسطين. تحيط بها دول عربية لها حكومات وجيوش وشعوب. فما الذي كان ينبغي أن يرتقب. لا عليّ من غيري، لكنني قلت يومئذ ما ارتقبت. في محاضرة بعنوان «الإسلام بين فرقة ووئام» ألقيتها في قاعة الملك فيصل الثاني (قاعة الشعب اليوم) ببغداد ـ وكانت قد غصت بالحاضرين وزراء وسفراء وأساتذة وعلماء وشيوخاً وآخرين من أبناء العراق وغير العراق ـ قارنت بين موقعة «خيبر» وبين الموقعة المرتقبة عهدئذ مع تلكم العصابات اليهودية. وقد نشرت المحاضرة في كتاب «الذكرى» السنوي «لجمعية الهداية الإسلامية» (المرحومة)، فلنكتف منها بهذه الفقرات التي تظهر أن القول الحق هو القول الحق وإن تراخى الزمان ودالت دول: ـ

«ولقد أصبح المسلمون ـ أيها السادة ـ بفضل دينهم هذا أعظم قوة على الأرض تحق الحق وتبطل الباطل. وبنوا حضارة شهد بمآثرها التأريخ. وملأوا أرجاء البسيطة علماً وحكمة وعدلاً. وأقاموا دولاً كان كل عاصمة من عواصمها بغداداً قال فيها أمير الشعراء:

«دار الشـــرائـــع «رومـــا» كلمـــا ذكـــرت
دار الـــســـلام لهـــا ألـــقـــت يد الـــســـلم».

«لكن المسلمين قد تهاونوا في تطبيق مبادىء دينهم، ومضوا في غرور الخلاف المذهبي، فانقسموا فرقاً وشيعاً. وليتهم وقفوا عند هذا الحد. لقد تناسوا أوامر الوحدة والائتلاف، وأن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً. ونادوا بالعنصرية ولم تقم لهم العنصرية شأناً ولا نظمت لهم حياتاً. فهرعوا إلى مبادىء أجنبية خداجة، فتفرقوا أيادي سبا، وزالت شوكتهم وعزتهم، وحلت بهم المصائب والكوارث. فتصفّح أخبارهم:

«لـــتـــريك كيف إذا اســـتـــتـــمـــت دولـــة
أعـــمـــى الـــغـــرور رجـــالـــهـــا لتـــدولا».

«وما قضية فلسطين ـ أيها السادة ـ إلا كارثة من هذه الكوارث ومصيبة من مصائب أحلتها بنا رغبتنا عن الإسلام. لكنها ليست أول عدوان يهودي يجابه المسلمين. فقد سبقه عدوان «المدينة» وعدوان «خيبر». فلنقارن إذن بين قضيتي خيبر وفلسطين من نواحيهما السياسية والحربية والإقتصادية، لندرك سرّ نجاح المسلمين بتلك السرعة الخاطفة في خيبر، ومكوثهم أعواماً بين «متى» و «لعل» أمام «تل أبيب».

«كانت خيبر مصدراً إقتصادياً عظيماً تسيطر عليه اليهود تملك أموالاً وعدداً، وافرة الثراء، واسعة اليد. وكانت بطن من بطونها تصنع الأسلحة من سيوف ورماح فتحسن صنعها. وقد بذلت أموالاً كثيرة لإثارة الجزيرة العربية وتمكنت منها. ودولتا «الروم» و «فارس» العظيمتان كانتا تشايعان أعمالها كرهاً للإسلام وحباً في القضاء عليه من مهده. وكان المسلمون مهاجرين وأنصاراً

ينقصهم العدد والعدة، ولا يعرفون للأسلحة صنعاً. كانوا فئة قليلة ثارت في وجههم قبائل الجزيرة وأحدق بهم خطر اليهود. ولم تكن دولتهم الفتية في عداد الدول... وكان من ضعفهم السياسي أن عاهدوا «قريشاً» مع كل ما قاسوه منهم ومع ما بينهما من ثارات، وأن يمسح الرسول ـ ﷺ ـ كلمة «رسول الله» من صك المعاهدة لأن سهيل بن عمرو أبى كتبها، وأن يعدّوا هذه المعاهدة انتصاراً لأنها جعلتهم في عداد هذه القبيلة قوة وأثرا.

«مع كل ذلك لم يحجم المسلمون بعد أن أمنوا قريشاً بالمعاهدة عن الزحف على خيبر الزاخرة بالأسلحة والمؤن وأعداء متحصنين بأحصن الحصون. فحاصروا اليهود أياماً نفدت معها دخائرهم والحصن الشامخ لا يتصدع؛ حتى كاد اليأس في الليلة الأخيرة يدبّ إلى نفوسهم لولا أن قوة الإيمان أذكت فيها نار الغيرة والحماسة. ولما انتهى الرسول ـ ﷺ ـ من صلاة فجر تلك الليلة مدت إليه الأعناق وأحدقت فيه الأبصار لتستلهم من سيما النبوة إيماناً وتستجدّ قوى، ولترى ما سيفعل في هذا اليوم، فإما انتصاراً بعد وإما فناء! أعطى الرسول ـ ﷺ ـ رايته علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وبشره بالفتح. ولم تكد تتراقص ألوان الغروب على حصن «ابن معاذ» حتى اخترقت أبوابه خيول المجاهدين تطأ حوافرها أشلاء «مرحب» مزّقها سيف علي الفاتح ورجّعت صخوره نغمات التكبير للنصر المبين.

«انتصر المسلمون انتصارهم العظيم، على ما كانوا عليه من قلة الأنفس والعتاد، وقضوا على اليهود سياسياً، لا لشيء إلا أنهم لم يكونوا عرباً وعجماً ولا سنة وشيعة ولا حنابلة وأحنافاً، إنما كانوا جنوداً مجندة تجمعهم «لا إله إلا الله» وتقودهم عبقرية محمد ودهاؤه.

«وفي فلسطين كثمة من الصهاينة لفظتها أوروبا وأيدها بعض الدول العظمى لتغصب من المسلمين بقعة مقدسة لها مكانتها في صحائف الإعجاز. لكن المسلمين ليسوا ضعافاً: عددهم مئات الملايين، ولهم ثروات وأموال، وأسلحة وجيوش، وحكومات تعترف بها الدول، وتشترك في المؤتمرات العالمية، وتمثل تمثيلاً سياسياً ودبلوماسياً. فلا ينقصهم: إلا التآزر والوحدة، والأخذ بتلك المبادىء السامية التي إنبنت عليها دولتهم الاولى وتعالت بها حضارتهم السالفة، وإلا الرجوع إلى تعاليم محمد ـ ﷺ ـ صاحب هذه الذكرى المباركة».

تلك هي كلمة حق نشرتها يوم ١٤ ربيع الأول ١٣٦٧، أي قبل تأسيس دويلة إسرائيل. وهي الكلمة كلمة الحق أنشرها بعد سبع وأربعين سنة من ذلك التأريخ. المفقود عند المسلمين هو السر الأعظم الباعث للقوة العظمى من تعاليم محمد: التربية الروحانية للقلوب.

ـ **«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من اللّه ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي اللّه بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين».**

(التوبة: ٢٤)

هذا الحب الذي يفوق كل حب ويعلو عليه إنما هو ذلك الحب الروحاني المستحصل من مرتبة الإحسان من أعمال القلوب. وستقرأ تفصيله في الفصل الخاص بأعمال القلوب.

على أية حال، فقد جاءت الطامة الكبرى وتأسست دويلة إسرائيل. ثم

بدأ القوم يتلاومون. الشعوب قالت الحكام خونة. والحكام قالت الجيوش كانت ضعيفة السلاح لا يتحدى بها القرارات الدولية. وشاعت أنباء الأسلحة الفاسدة وتعاطي الحشيش والمخدرات والمسكرات في سوح القتال. ثم تحققت ثورات داخلية وبدلت أنظمة حكم. وسلحت الجيوش بأسلحة فتاكة. ثم كانت الهزيمة الكبرى في حرب حزيران. ثم استعملت الأسلحة لضرب المسلمين الأكراد، ثم للاشتراك مع جيوش أجنبية من دول الكفر لضرب العراق جيشه وبلاده. ثم جلس الجالسون مع الصهاينة حول موائد السلام سلام الخانعين، ورضي الفلسطينيون بالحكم الذاتي لكنهم لما ينالوه حتى يومنا هذا.

كان الإسلام وعمله الروحاني غائبين في كل تلكم الحوادث والتواريخ. ولو كانا حاضرين لكان النصر كما في أيام خيبر وأيام الفتوحات الكبرى في آسيا وإفريقيا وأوروبا. فالمؤمن ذو قلب في مقام الإحسان هو غير المسلم الضعيف الواهي الجنان!

وذاك إنما هو مثل. ثم إذا علمت أنه بعد حصول الهزيمة الشنعاء دأبت دول الاستعمار على الإيعاز إلى مأجوريها بإشاعة فكرة في الدول الإسلامية خلاصتها أن علة الهزيمة إنما هي الديانة التي يسير عليها المسلمون، وأنهم لو جدّوا في العلمانية لما صارت الهزيمة نصيبهم ـ نقول إذا فقهت هذه الأكذوبة المبثوثة لقد وعيت لا محالة أن الحضارة الأوروبية الغالبة اليوم هي التي تصارع بقايا الحضارة الإسلامية المنحسرة عن أوطانها صراعاً تستعمل هي فيه النقائض والأضداد والعلم والجهل والصهيونية والدين والكتاب المقدس الذي نصفه يهودي ونصفه مسيحي.

ويوم تعـون ذلـك كله ـ أيهـا المسلمـون ـ فيومئذ تدركون أن التربية الـروحـانية التي جاء بهـا الإسـلام لجميع المسلمين يجب أن تعم جميع المسلمين كمـا عمتهم في عهـود السعـادة، لا أن تجعل حكراً على صفوة الصفـوة أو تكتنـز بعـد التـزييف والتشويه في التكايا ومقابع العاطلين. إن المساجد هي المنابر لتعميم التربية الروحية للإسلام. والعلماء المسلمون، أيا كان مجال اختصاص أيّ منهم، هم من أوائل من يجب عليهم أن يتثقفوا بثقافة الروح في الإسلام، وأن يقبلوا كل الإقبال على إغناء عقولهم وقلوبهم بتربية الروح الإسلامية، ثم أن ينهضوا بأجيال المسلمين شيبهم وشبانهم باثين إليهم أصول هذه الثقافة العصماء وغارسين أقاحيها في مواضع الخصب من أفكـارهم وحـاملين أمامهم مشكاة المصابيح إلى أبواب الاعتصام بالكتاب والسنة حتى تخشع القلوب لذكر اللّه على منازل الذكر ومقام الإحسان فتأبى النفوس الكفر والذلة والهوان.

والكتاب الذي أمامك ـ أيها الرفيق القارىء ـ إنما هو حق اللّه على عبد اللّه وإنعامه عليه وتوفيق منه، عسى العبد أن يصبح قد أدى بعض ما يجب أداؤه وارتجى العفو والغفران لما وراءه يوم يقوم الحساب.

وهـذا هو جهـاد النفس أساس الأنواع الأخرى للجهاد ومبناه العظيم القـويم المتين. وقـد عنـونا له بالجهاد الأكبر لأن رسول الله ﷺ قال فيه: «المجـاهـد من جاهد نفسه»، رواه فضالة بن عبيد رضي الله عنه في آخر حديث أثبتناه عند ختام الفصل الحادي عشر.

ولقد وصلنا الآن مشارف جهاد الإرشاد فلننتقل إليه في الفصل العاشر التالي بحول الله سبحانه وحسن توفيقه ـ جلّ جلاله وعمّ نواله.

الفصل العاشر
جهاد الإرشاد والدحض

أيها الإنسان: هنالك في الكون خالدات ومنها الباقيات الصالحات. فاحرص أن يكون لك منها نصيب وافر لمستقبل زاهر يوم تعنو الوجوه للحي القيوم ويفنى ما هنا وما هناك يدوم: -

- «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى اللّه وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين».

(فصلت: ٣٣).

- «قل هذه سبيلي أدعوا إلى اللّه على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان اللّه وما أنا من المشركين».

(يوسف: ١٠٨).

- «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللّه يد اللّه فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللّه فسيؤتيه أجراً عظيماً».

(الفتح: ١٠).

امدد يدك فهذه البيعة باقية لكل إنسان. والإرشاد إلى الله ورسوله باق ما بقي الخافقان. وما عليك إلا أن تعتصم بحبل الله، وسيؤتيك الله العزة في الدنيا، وفي الآخرة أجراً عظيماً. والإرشاد إلى الله في الإسلام يكون حال السلم ويكون حال الحرب والقتال: «**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنَّ ربَّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**» (النحل: ١٢٥).

وأخرج البخاري في صحيحه (القسطلاني ج ٦ ص ٢٤٢): «حدثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي حدثنا عبد العزيز ابن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد رضي الله عنه سمع النبي ﷺ يقول يوم «خيبر»: «لأعطينّ الراية رجلاً يفتح الله على يديه». فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى فغدوا وكلهم يرجو أن يعطاها. فقال[عليه الصلاة والسلام] «أين علي». فقيل يشتكي عينيه. فأمر فدعي له. فبصق في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء. فقال[عليّ كرم الله وجهه] نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا[؟] فقال[ﷺ]: «على رِسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم. فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم».

وأيضاً أخرج البخاري ما سبق أن ثبتناه في أوائل الفصل الخامس من الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله

به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به» .

وينقسم هذا الصنف من الجهاد إلى اثنين: جهاد الإرشاد وجهاد الدحض. أولهما ذو صلات بكل من البيعة والنصيحة والعلم ونشر الإسلام، فهو لذلك منشعب على حسب صلاته. وسنلم بكل من هذه الشعب إلمامة إيجاز نافع.

الارتباط بالبيعة والحرص على النصيحة منصوص عليهما في السنة المطهرة ببيان كاف. أخرج الترمذي (في الجامع الصحيح ج ٤ ص ٣٢٤): «حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل ابن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم عن جرير بن عبد اللّه قال: بايعت رسول اللّه ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم». وأخرج ـ رضي الله عنه ـ (في الموضع المشار إليه): حدثنا محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة» ثلاث مرار. قالوا: يا رسول اللّه لمن. قال: «للّه ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم». وليس يخفى الارتباط بين البيعة وبين النصيحة للمسلمين عامتهم وخاصتهم.

أما الارتباط بالعلم وبنشر الإسلام فآت مما أسهبنا الحديث بصدده في الفصول المتقدمة من آساس العقيدة والإسلام والإيمان والعلم وآدابه وعقاب الذين يكتمون ما نزّل من البينات والهدى. ونشر الصنوين المتلازمين العلم والإسلام يكون للمسلمين ويكون لغير المسلمين. وفي المجالين يتحقق بالتعليم والتثقيف وبالقول والكتابة والتأليف وبالأعمال الحسنة والقدوة

الصالحة.

وزاد اللّه بلطفه العلماء المسلمين الصالحين خيراً. لقد ملأوا أرجاء الأرض بكتبهم ومؤلفاتهم من كل نوع ونمط وفي غلائل اللغات الإسلامية جميعها. ولعل في ذهن القارىء الكريم صورة لحجم المطبوعات من الكتب الإسلامية في المكتبات العامة وفي أسواق الكتب. فليعلم أن المخطوطات الإسلامية المحصَيات الباقيات في المكتبات العامة والخاصة حول الأرض تبلغ نحواً من ثلاثة ملايين مخطوطة. «**علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم**». وجهاد العلماء المسلمين في مجال الإرشاد ما يزال مستمراً والحمد للّه على الرغم من العقبات. ولا مجال للإحاطة بذلك كله في هذه الورقات.

فلنعرّج على ما صنع أصحاب الطرق الصوفية في نشر الإسلام ـ ولا سيما الكتاب مخصوص بالعمل الروحي في الإسلام. وهٰهنا لا بد من التنبيه على ثلاثة أمور مهمة: ـ

الأول: أن الطرائق المشار إليها هنا نرى أنها كانت في مناشئها سليمة مستقيمة على أحكام الشريعة الغراء. ويدل على ذلك ما نعلم من السيرة الصالحة والعلم والفضل والتقوى عند السادة الذين نسبت هذه الطرائق إليهم.

الثاني: أن نحلة «الدجل والاستغلال» (تلك التي كشفناها في أواخر الفصل الثامن) حينما تسربت إلى تلكم الطرق دفعت شعباً من هذه إلى الحيدان عن مسالكها الأصل فعن الشريعة الغراء. ولما كانت كلمات التصوف والصوفية وطرق الصوفية قد عمت المستقيمات والمنحرفات على حدّ سواء فإن صاحب الكتاب الذي تقرأه قد تحاشاها قدر الإمكان أو أفصح عن مراده

منها حيثما وردت. ولقد استكره إطلاق هذه الكلمات لهذه الأسباب، ولما سبق ذكره من أن تلقيب «الزهاد» بهذه الألقاب إنما ابتدأت من أعداء الزهد والزهاد المسلمين الصادقين.

الثالث: لعل دواعي تمييز الصالح من الطالح والصحيح من الفاسد والاستقامة من الانحراف في هذا المجال تصبح خير مبرر لتوجه العلماء والمفكرين والمثقفين منذ الآن إلى استعمال «عمل الروح» و«العمل الروحي» و«الطريق الروحاني» و«المسالك الروحانية»، كلها مضافة أو منسوبة إلى الإسلام، للدلالة والإشارة إلى المناهج الروحية المستقيمة على صراط الإسلام وشرعته الغراء؛ ومن ثم حصر الألقاب المشتقة من «الصوف» في نطاق الإشارة إلى المفسدات المنحرفات إلى مضادة الإسلام وشريعته ونهجه المبين في الكتاب والسنة وآثار أسلافنا الموفقين المرشدين إليه بجهاد الأقوال والأعمال. فأما هذا النهج المبين في الإسلام فإن لفظة الصوف ومشتقاتها عاجزة عن الدلالة والإنطباق على حقائقها. ففيم الالتزام بما اصطنع الأعداء؟!

الطرق الروحانية في عهود استقامتها كانت سبل نفع للعالمين بالإرشاد إلى دين الحنيفية السمحاء: ـ

ـ ففي شبه الجزيرة الهندية إنما انتشر الإسلام بجهاد طرق روحانية بالإرشاد والقدوة الحسنة والعمل الصالح.

ـ وفي أفريقيا، في السنغال ومالي والنيجر وغينيا وغانا ونايجيريا وجاد، يعود الفضل الكبير في انتشار الإسلام إلى جهاد طرق روحانية بالعمل الصالح والإرشاد.

ـ وكثير من الوثنيين والهندوس وسكان ملايو قادتهم إلى الإسلام القدوة الحسنة من أصحاب طرق روحانية. وإذا أحب القارىء المستزيد من أخبار ما عملت هذه الطرق في نشر الإسلام، أو من تأريخ العمل الروحي الإسلامي خلال القرنين الهجريين الأولين، فليقرأ «تأريخ التصوف الإسلامي» (الطبعة الأولى **١٩٧٥**) للدكتور عبد الرحمن بدوي.

وحول محيط الأرض اليوم بضع عشرات من الطرائق بعضها طرق روحانية وبعضها طرق تصوف، ولا تجمعها جامعة. ولو وجدت دار الإسلام في هذا العصر لأمكنت الهداية إلى قواسم مشتركة من أحكام الشريعة الغراء تجمع الطرق كلها على نهج الروح وأعماله في صميم حضارة الإسلام، ولأمكن الإلتيام بعد التمزق والاعتصام بحبل الله بعد التفرق، ولاستيسر المسلمون أمر وحدتهم الروحية بتشريع من الشورى يعيد إلى عقولهم وقلوبهم الوحدة والعزة والمحبة من طراز عهود الشورى. فأما الجانب العلمي لالتماس «طريق موحد» مستنبط الآساس والمعالم والآداب من الكتاب والسنة ومدارك الشريعة الغراء ـ أما هذا الجانب فهو مبتغانا في هذه الرسالة التي أتضرع إلى خالق السماوات والأرضين أن يجعلها فاتحة للمسعى إلى وحدة العالم الإسلامي بوحدة أعماله ومعالمه الروحانية. إنه هو السميع المجيب. «**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**».

وما تقدم كله من جهاد الإرشاد. أما جهاد الدحض فذلك أن الإسلام كان ولا يزال معرّضاً للطعن والتلبيس فيه والافتراء والعدوان عليه. هٰكذا يبغي عليه بدون الحق أعداؤه. وعدوان الأقلام الكذابة والعقول الدجالة أعتى وأشد فتكاً من الرماح والسيوف والقنابل والصواريخ. فكان ولا يزال حتماً على علماء

الأمة أصحاب الغيرة والحمية والهمة أن يذبوا عن الحياض ويصونوا جوهرة الإسلام فيجاهدوا في سبيل اللّه بما آتاهم اللّه من قوى العلم وسلاح الأقلام .

ولقـد وفى بالعهد وأوفى علماؤنا الأعلام وأسلافنا العظام، وخلفوا لنا ذخائر العقائد والتوحيد وعلم الكلام . وإن من هذا الضرب من الجهاد : «شرح المقـاصـد» للعـلامة سعد الدين التفتازاني ؛ و«شرح العقائد» له؛ و«شرح المواقف» للعلامة عضد الدين الإيجي والسيد الشريف؛ ومصادر أخرى كثيرة لا تحصى في هذا المكان بل تجدها في فهارس كتب الحضارة الإسلامية. أما الفارس المجلّي حامل العلم الخفاق في هذا الميدان فهو الإمام الهمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ولا سيما في كتبه الثلاثة : «مقاصد الفلاسـفة» و «تهافت الفلاسفة» و «الإقتصاد في الاعتقاد» .

وفي عصرنا الحاضر ذاد عن حضارة الإسلام من علمائها من ذاد . لكن الجهد جهد أفراد والحكومات الإسلامية قابعه في غير واد . وإن من قبيل هذا الجهد كتابنا «الحرية الجامعية»، هذا الذي سبقت الإشارة إليه . ولعلمائنا الروحانيين حظ وافر من سالف ذلك الجهاد . وكان لهم في جهاد الرباط أوفر الحظوظ بين العباد . وهذا هو موضوع الفصل التالي، فلنتنقل إليه ونتلمس جدواه .

الفصل الحادي عشر
جهاد الرباط

عهد ما اتسعت رقعة دار الإسلام، وضمت بحاراً وبراري وجبالاً وسهولاً وأقطاراً وجملة من الأقوام، اشتدت الحاجة إلى مسلمين من طراز فريد ذوي همم أصلب من زبر الحديد وأصحاب قلوب في المناجاة أرق من نسمات الفجر الجديد.

ثغور قصية على أطراف دار الإسلام يجب ألا تهمل، ومظان ضعف في أقاصي التخوم ينبغي أن تقوّى وتُرجّل. والجيش العرمرم لا يتسنى إبقاؤه في كل مكان، ولا استبقاؤه كحال الحرب في كل زمان. ففي ذلك ضياع جهود العباد وخسران اقتصاديات البلاد. فالحاجة القصوى إذن ماسة إلى جيش من نوع آخر.

جيش يزوّد نفسه بنفسه فلا يريد ميرة ولا مدداً. ويهوى الشهادة في سبيل الله لا يستبدل بها مالاً ولا ولداً. يعفّ عن الشهوات والمناعم. ويجد في عزلة التخوم الجوّ الملائم. يعمد للاكتفاء الذاتي إلى شيء من الزراعة وتربية الدواجن ورعي الأغنام. وتعمد أزواجهم المؤمنات الماجدات إلى الغزل والنسج وتنشئة الطفل وإدامة البيت وإطعام الطعام. واحدهم بعَشَرة،

كالعشْرة المبشرة. في النهار عمل وصيام. وفي الليل ذكر وفكر وقيام. يعبدون اللّه جل جلاله في كل أعمالهم. ويحرسون تخوم بلادهم ومستقبل أجيالهم. فيا لهم من عظماء!

وجلّ هؤلاء العظماء، إن لم يكن كلهم، هم من الروحانيين والروحانيات المرابطين والمرابطات ـ رضي اللّه عنهم أجمعين وجزاهم عن دار الإسلام خيراً، ورزقنا من بركات أعمالهم وقلوبهم طيباً وذكرى وفكراً. وليس هٰذا كتاب سيرة وإلا استطبت لها نشراً. فإليك منها بعض الأسماء والتواريخ لعل أن تنفع الذكرى: ـ

ـ مدينة «عبادان» الحالية في إيران إنما كانت «رباط» عبّاد تجمّع فيه الزهاد المتطوعون من البصرة للدفاع عن هذا الثغر الإسلامي. وفيه رابط عدد كبير من مشايخ العمل الروحي الإسلامي: منهم مقاتل بن سليمان (المتوفى عام ١٥٨هـ) الذي قال فيه الإمام الشافعي كلنا في تفسير القرآن عالة على مقاتل بن سليمان. ومنهم حماد بن سلمة المحدث الفقيه (المتوفى عام ١٦٧هـ). ومنهم بشر الحافي الشهير (المتوفى عام ٢٢٧هـ). روى عن مالك؛ وكان يقول لأصحاب الحديث: أدوا زكاة هذا الحديث؛ قالوا وما زكاته؟ قال اعملوا من مائتي حديث بخمسة أحاديث.

ـ ومثل رباط الزهاد هذا كل من: «رباط الفتح» وهو الآن «الرباط» عاصمة المملكة المغربية؛ و«رباط المنستير» في تونس؛ و«رباط العبّاد» في تلمسان بالجزائر؛ و«رباط تسكيدلت» في الجنوب الغربي إلى وهران. وكثير غير هذه في تأريخ الإسلام الأقدم.

ـ وفي التأريخ الأقرب إلينا (٥٤٣هـ) أنشأ نور الدين زنكي «الرباط

الخانقاه» في حلب. وكان رباطاً ومدرسة لعلوم الشريعة أيضاً؛ فاسم «خانقاه» تركيب مزجي من لفظتي «خان فقهاء» أي «دار الفقهاء»، فمزجت الكلمتان فصارتا خانقاه وخانقاء على غرار سامراء. ومن «خانقاه» أسرة «الهرشمي» بمدينة أربيل العريقة في التأريخ انطلق المجاهدون لقتال جيوش روسيا القيصرية حين أرادت اجتياح جبال «كردستان» الشماء، وفيهم والد مؤلف هذا الكتاب واثنان من أعمامه.

وإذا كانت هذه هي مثابة الزهاد في العلم والعمل فقد وجب علينا هٰهنا أن نذكر الزهد والزهاد ذكراً. سيد الزاهدين وإمامهم ومقتداهم هو سيد الخلق أجمعين حبيب رب العالمين خاتم النبيين محمد المصطفى الأمين ـ صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله وأصحابه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين. لئن كان فقيراً عند نشأته فقد أغناه اللّه عند بعثته. فانظر إلى زهده في حاله وإلى سخائه وصنيعه في ماله. أخرج الترمذي في «الجامع الصحيح» (ج ٤ الصفحات ٥٧٩ ـ ٥٨٩) الآثار التالية: ـ

ـ «حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو داود أنبأنا شعبة عن أبي إسحاق قال سمعت عبد الرحمن بن يزيد يحدث عن الأسود بن يزيد عن عائشة قالت: «ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض».

ـ «حدثنا عبد الله بن معاوية الجمحي حدثنا ثابت بن يزيد عن هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس قال: «كان رسول اللّه ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير».

ـ «حدثنا أبو عمار حدثنا وكيع عن الأعمش عن عِمارة بن القعقاع عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل

محمد قوتاً».

- «حدثنا موسى بن عبد الرحمن الكندي حدثنا زيد بن حُباب أخبرني المسعودي حدثنا عمرو بن مُرّة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال نام رسول اللّه ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً فقال: «ما لي وما للدنيا. ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

- «حدثنا قتيبة حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال: «كان النبي ﷺ لا يدّخر شيئاً لغد».

- «حدثنا أحمد بن بَديل بن قريش اليامي الكوفي حدثنا أبو بكر بن عيّاش عن أبي حُصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس».

وروى ابن سعد (المتوفى عام ٢٣٠هـ) في موسوعته الشهير «كتاب الطبقات الكبير» (ج ١ ص ٤٠٩): «أخبرني الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يجوع. قلت لأبي هريرة وكيف ذلك الجوع؟ قال لكثرة من يغشاه وأضيافه وقوم يلزمونه لذلك فلا يأكل طعاماً أبداً إلا ومعه أصحابه وأهل الحاجة يتتبعون من المسجد. فلما فتح اللّه خيبر إتسع الناس بعض الاتساع وفي الأمر بعدُ ضيقٌ والمعاش شديد. هي بلاد ظلف لا زرع فيها. إنما طعام أهلها التمر وعلى ذلك أقاموا». «قال مخرمة بن سليمان وكانت جفنة سعد [ابن عبادة] تدور على رسول الله ﷺ منذ يوم نزل المدينة في الهجرة إلى يوم توفي وغير سعد بن عبادة من الأنصار يفعلون ذلك فكان أصحاب رسول اللّه ﷺ كثيراً يتواسون ولكن الحقوق تكثر والقدّام يكثرون والبلاد ضيقة ليس فيها

معاش» .

أما المؤمنات الزاهدات فقدوتهن من النساء أمهات المؤمنين وأهل بيت النبوة . لقد مر علينا قبل قليل حديث ابن عباس الذي أخرجه الإمام الترمذي بطريق عبد الله بن معاوية الجمحي . وأخرج الترمذي (في الجامع الصحيح ج ٤ ص ٥٨٠) «حدثنا عباس بن محمد الدوري حدثنا يحيى بن أبي بكير حدثنا جرير بن عثمان عن سليم بن عامر قال سمعت أبا أُمامة يقول : «ما كان يفضل عن أهل بيت النبي ﷺ خبز الشعير» .

وهذه عائشة أم المؤمنين انظر ماذا تقول . روى ابن سعد في «الطبقات» (ج ١ ص ٤٠٥) بسنده عن أبي نضر قال سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : «إني لجالسة مع رسول اللّه ﷺ في البيت فأهدى إلينا أبو بكر رجل شاة فإني لاقطّعها مع رسول اللّه ﷺ في ظلمة البيت . فقال لها قائل أما كان لكم سراج؟ فقالت : لو كان لنا ما يسرج به أكلناه» .

وهذه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء انظر ماذا صنعت وقالت . روى ابن سعد في «الطبقات» (ج ١ ص ٤٠٠) بسنده عن أنس بن مالك : «أن فاطمة عليها السلام جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ فقال : «ما هذه الكسرة يا فاطمة» . فقالت : قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة . فقال : «أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام» . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين .

أمـا أصحابه الكرام فإليك غيض يغنينا للإيجاز عن فيض من أحوال ثلاثة من قادتهم وعظمائهم ـ رضي اللّه عنهم أجمعين وجزاهم خيراً عن المسلمين : ـ

ـ أخـرج الترمذي في «الجامع الصحيح» (ج ٤ ص ٥٨٣ ـ ٥٨٤):

«حدثنا محمد بن إسماعيل [هو الإمام البخاري من شيوخه] حدثنا آدم بن أبي إياس حدثنا شيبان أبو معاوية حدثنا عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد. فأتاه أبو بكر فقال: «ما جاء بك يا أبا بكر». فقال خرجت ألقى رسول اللّه ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه. فلم يلبث أن جاء عمر. فقال: «ما جاء بك يا عمر». قال الجوع يا رسول اللّه. قال فقال رسـول الله ﷺ: «وأنـا قد وجـدت بعض ذلـك». فانـطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التَيهان الأنصاري وكان رجلاً كثير النخل والشاء ولم يكن له خدم. فلم يجدوه فقالوا لامرأته أين صاحبك. فقالت انطلق يستعذب لنا الماء. فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يزعبها [يتدافع بها لثقلها] فوضعها ثم جاء يلتزم النبي ويفدّيه بأبيه وأمه. ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً. ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقنو فوضعه. فقال النبي ﷺ: «أفلا تنقيت لنا من رطبه». فقال يا رسول اللّه إني أردت أن تختاروا أو قال تخيّروا من رُطبه وبُسْره. فأكلوا وشربوا من ذلك الماء. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة. ظل بارد ورطب طيب وماء بارد». فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً. . .». إلى آخر الحديث المفصل.

ـ وأخرج الترمذي في «الجامع الصحيح» (ج ٤ ص ٥٨٢): «حدثنا عمرو بن إسماعيل بن مجالد بن سعيد حدثنا أبي عن بيان عن قيس بن أبي حازم قال سـمعت سعد بن أبي وقاص يقول: إني لأول رجل اهراق دماً في سبيل اللّه وإني لأول رجل رمى بسهم في سبيل اللّه. ولقد رأيتُني أغزو في

العصابة من أصحاب محمد ﷺ ما نأكل إلا ورق الشجر والحَبَلة حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة أو البعير. وأصبحت بنو أسد يعزّروني في الدين لقد خبت إذاً وضلّ عملي».

وبعد الذي علمنا من جوع أبي بكر وعمر وسعد رضي الله عنهم نستزيد خيراً بذكر أنفس آخرين من الروحانيين الزاهدين المجاهدين المرابطين من الأصحاب فالتابعين فالذين جاءوا من بعدهم. نذكرهم ليطلع الرفيق القارىء بعض الاطلاع على طراز الزهاد الروحانيين من أسلاف الأمة الذين هم سادات أصحاب العمل الروحي وأسانيدهم إلى رسول الله صلى الله وسلم عليه وآله وأصحابه والمهتدين بهديه. ونبين تأريخ وفاة كل واحد منهم تحت اسمه بين قوسين وفق تأريخنا الهجري القمري:

سلمان الفارسي
(٣٥هـ)

يكفيه فضلاً وشرفاً أن النبي ﷺ عدّه من «أهل البيت». ترجم له الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» (ج ٢ ص ٥٦ - ٦١). أخرج الحافظ بسنده عن عليّ كرم الله وجهه أنه سئل عن سلمان فقال: «علِم الأول والآخر بحر لا ينزف وهو منا أهل البيت». شهد «الخندق» مع رسول اللّه ﷺ، وهو الذي أشار بحفره، ولم يفته بعد ذلك مشهد. كان رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين أبي الدرداء. وهذا من نص جواب من سلمان لكتاب مَن أخيه: «أما بعد فقد كتبت إليّ أن اللّه رزقك مالاً وولداً. إعلم أن الخير ليس في المال والولد وإنما الخير أن يكثر حلمك

وينفعك علمك. وكتبت إلي أنك نزلت في الأرض المقدسة[بالشام]. إعلم أن الأرض لا تقدس أحداً وإنما يقدس الإنسان عمله». دخل قوم على سلمان وهو أمير على «المدائن» وهو يعمل الخوص فقيل له: تعمل هذا وأنت أمير يجري عليك رزق. فقال: إني أحب أن آكل من عمل يدي. كان عطاؤه (أي راتبه السنوي) خمسة آلاف[درهم] فإذا خرج عطاؤه تصّدق به. وقال الإمام مالك كما روى عنه ابن وهب وابن نافع: «كان سلمان يعمل الخوص بيده فيعيش منه ولا يقبل من أحد شيئاً». وذكر الحافظ أبو عمر: «وروينا عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول اللّه ﷺ». (لكل ما أثبتناه هنا راجع «الاستيعاب»، إلا نص رسالة سيدنا سلمان إلى أخيه فقد نقلناه من «الشريعة الإسلامية» لأستاذنا الشيخ السيد محمد الخضر حسين ـ رحمة الله عليه ـ ص ١٧٨).

أُويس القرني
(٣٧هـ)

هو من زهاد التابعين. روى ابن سعد في «الطبقات» (ج ٦ ص ١٦٢ ـ ١٦٤) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأويس: استغفر لي. قال: كيف أستغفر لك وأنت صاحب رسول اللّه ﷺ. قال[عمر] سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن خير التابعين رجل يقال له أويس». ومن حكيم أقواله: «طلبت الرفعة فوجدتها في التواضع. وطلبت الرئاسة فوجدتها في نصيحة الخلق. وطلبت المروءة فوجدتها في الصدق. وطلبت الفخر فوجدته في الفقر. وطلبت النسبة فوجدتها في التقوى. وطلبت الشرف فوجدته في القناعة. وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد». وقال: «عليك بقلبك».

الحسن البصري
(١١٠هـ)

هو الإمام النبيل الزاهد المجاهد الذي يقول فيه ابن سعد في «الطبقات» (ج ٧ ص ١٥٧): «وكان الحسن جامعاً عالماً عالياً رفيعاً فقيهاً ثقة مأمونا عابدا ناسكا كبير العلم فصيحا جميلا وسيما». جاهَد ثلاث سنين متواصلات في حروب كابل والأندغان وزابلستان ثم عاد إلى البصرة واستوطنها فنسب إليها.

اسم أبيه «بيروز» (ومعنى الكلمة في اللغة الكردية «مبارك») فهو كردي المحتد أو فارسية. وأمه «خيرة» مولاة «أم سلمة» أم المؤمنين رضي اللّه عنها. ويذكر أن أمه ربما غابت فيبكي الصبي فتعطيه أم المؤمنين ثديها تعلله بذلك إلى أن تجيء أمه. ولد رضي الله عنه بالمدينة المنورة عام **٢٢** من الهجرة.

تولى القضاء. وكان لا يأخذ على قضائه أجراً. وبعد عهد الراشدين تجنب الخلفاء والولاة. حتى كان عهد عمر بن عبد العزيز (**٩٩ ـ ١٠١**) رضي اللّه عنه فاتصل بالحسن وجرت بينهما مراسلات رائعة في الصلاح والزهد والعدل ورعاية الإسلام والمسلمين. رضي الله عنهما وجزاهما عن دار الإسلام خيراً.

كان ينقد من الخلفاء الأمويين دونما هوادة واستخفاء؛ وطعن في استخلاف يزيد بن معاوية لأنه كان «سكّيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير». ولما تولى عمر بن هُبَيْرة الفزاري ولاية العراق وخراسان من قبل يزيد بن عبد الملك (سنة ١٠٣هـ) استدعى الحسن البصري في جماعته يسأله عن وجه تنفيذ أوامر الخليفة. فقال له الحسن: «يا ابن هبيرة خف اللّه

في يزيد، ولا تخف يزيد في اللّه. إن الله يمنعك من يزيد، ويزيد لا يمنعك من اللّه. وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصر إلى ضيق قبر. ثم لا ينجيك إلا عملك. يا ابن هبيرة إن تعص اللّـه فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده، فلا تركبنّ دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية خالق».

إبراهيم ابن أدهم
(١٦١هـ)

إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر التميمي العجلي، وكنيته أبو إسحاق. سكنت أسرته الكوفة ثم انتقلت إلى بلخ. بلغ الإخباريون بأخباره حد الأساطير، وليس هو من الأساطير في شيء. أرخ له الإمام البخاري وابن عساكر. ونحن نقتصر على ما بلغنا من حقائق أحواله.

«صحب سفيان الثوري، وجمع بين الزهد ورواية الحديث؛ ويروي عنه الثوري والأوزاعي. وكان لا يأكل إلا من عمل يده: كالحصاد وحراسة البساتين... ومن دعائه: اللهم انقلني من ذلّ معصيتك إلى عز طاعتك». (راجع الشيخ الأستاذ السيد محمد الخضر حسين، «الشريعة الإسلامية» ص ١٨٦).

لقي الإمام أبا حنيفة ببغداد. وقال فيه أبو حنيفة في جماعة: هو سيدنا. فقيل وبأي شيء بلغ هذا المقام. فأجاب أبو حنيفة: لأنه مشغول بخدمة ربه، وأنتم مشغولون بخدمة أبدانكم.

ذهب مجاهداً على تخوم دار الإسلام وحدودها مع الإمبراطورية

البيزنطية، وجاهد في موقعتين كل واحدة منهما أشد من الأخرى: غزاة الأنطاكي وغزاة محكاف. وما أخذ سهماً ولا نفلاً. وما أكل من متاع «الروم» وطرائف العسل والدجاج. وقال: هو حلال ولكن أزهد فيه. كان يأكل مما حمل معه. وغزا في البحر غزاتين وما أخذ سهمه وفرضه. إنه لم يجاهد لنوال مال، بل في سبيل اللّه وحده ـ وأجره عند اللّه جل جلاله وعم نواله. وتوفي مبطوناً شهيداً وهو مرابط مجاهد. (راجع لما تقدم الدكتور عبد الرحمن بدوي، «تأريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني» ص ٢١٨ ـ ٢٣٩).

أولئك هم الروحانيون المجاهدون المرابطون حقاً. وكما يقول أستاذنا السيد محمد الخضر حسين (في كتابه المذكور آنفاً ص ١٨٠): «يصف لنا التأريخ صوفية القرن الثالث[يعني علماءه الروحانيين] فنرى كثيراً منهم على طريق سلمان الفارسي والحسن البصري، مثل أبي القاسم الجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، ويحيى بن معاذ الرازي، وذي النون المصري، وبشر الحافي، وسري السقطي وأبي يزيد البسطامي». وهؤلاء هم ساداتنا وأساتيذنا في طريق الروح علمه وعمله، تلقوا أصوله وفروعه ومعالمه كابراً عن كابر من حضرة درة صدفة الوجود خاتم النبيين المخصوص بالشفاعة العظمى والمقام المحمود ـ صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين.

ولننظر الآن كيف هو ثواب المرابط وأجره عند الله تبارك وتعالى؟ وجواب هذا السؤال هو أفضل ما نختتم به هذا الفصل لننظر عقيبه في «جهاد الذب عن الحياض». أخرج الترمذي في «الجامع الصحيح» (ج ٤ ص

١٦٥): «حدثنا أحمد بن محمد أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا حيوة بن شريح قال أخبرني أبو هانيء الخولاني أن عمرو بن مالك الجنبي أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «المجاهد من جاهد نفسه». وأخرج أبو داود في «السنن» (ج ٢ ص ٩) مثل هذا الحديث مختصراً بطريق سعيد بن منصور حدثنا عبد الله بن وهب حدثنا أبو هانيء.
وجهاد الرباط مشتمل أيضاً على جهاد الذب عن الحياض.

الفصل الثاني عشر
جهاد الذبّ عن الحياض

حينمـا تمت بيعـة العقبـة الثـانية، وأوشكت نبأتها تتسرب إلى آذان قريش، وقال العباس بن عبـادة «واللّه الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل «منى» غداً بأسيافنا»، كان جواب رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، أي لم نؤمر بقتال.

ولما راجعه أوائل أصحابه، منهم عبد الرحمن ابن عوف والمقداد ابن الأسود وسعد ابن أبي وقاص، يقولون له: «يا رسول الله كنا في عزّ ونحن مشركون فلما امنا صرنا أذلة فأذن لنا في قتال هؤلاء»، كان جوابه ﷺ: «كفوا أيديكم عنهم فإني لم أومر بقتالهم».

ثلاث عشرة سنة عانى المسلمون الأولون من الظلم والقهر والتعذيب والحصـار الإقتصـادي والاجتماعي في مكة، وهاجر منهم من هاجروا إلى الحبشة رجالاً ونساء مرتين، دون أن يسلموا من أذى المشركين وملاحقتهم إياهم في مهجرهم؛ وما تزحزح رسول الله وأصحابه صلى الله عليه وعليهم أجمعين عن سنن الإسلام في بلاغ رسالة اللّه تبارك وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة وابتغاء السلم وحرية العقيدة لهم ولسائر الناس.

ثم اضطر الرسول ﷺ اضطراراً هو **وأصحابه** إلى الهجرة النهائية إلى يثرب تاركين وراءهم كل ما يملكون، وما سلموا من عدوان قريش والمشركين وإيذانهم إياهم بالحرب والمداهمة في ديار مهجرهم النهائي. ومع كل ذلك لم يلجأ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه إلى حرب وسوق جيش إلى بلد الأعداء الألداء، بل ظل يدعو إلى اللّه بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً بالوحي الأمين وكتاب اللّه المبين؛ وصبر فصبر معه أهل بيته وأصحابه كما أمر هو وكما أُمر: «**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون**». (الأحقاف: ٣٥).

ومـا انفكت قريش ومن معهـا من المشـركين يهـددون المسلمين ويتوعدونهم بالحرب الشاملة وسوق الجيوش على يثرب. فأمر رسول الله ﷺ بسرايا صغيرة مدى حركاتها على الأغلب ما بين يثرب وساحل البحر الأحمر لتحقيق المقاصد التالي ذكرها البعيدة كل البعد عن حرب شاملة أو موقعة حرب: ـ

أ ـ موادّة قبائل بين يثرب وسواحل البحر الأحمر، وإبرام عهود صلح أو حلف معها.

ب ـ إظهار القوة والإشعار بأن المسلمين ما عادوا منهيين عن القتال، وبأن لهم قوة ضاربة منها خرجت هذه السرايا. لعل ذلك يردع قريشاً والمشركين عما نووا وهدّدوا به من حرب شاملة على يثرب، ويردع يهود يثرب نفسها من مواصلة التأليب على المسلمين.

ج ـ التعـرض لبعض القوافل التجارية لقريش والمشركين الذاهبة الآيبة

بين ديار مكة والطائف وبين بلاد الشام، لعلهم يكفّون عن مهاجمة المسلمين ويجنحون إلى عقد صلح يكفل أمان الطريق لتجارتهم الواسعة العظيمة (التي ربما بلغت قيمة ما تحمل القافلة الواحدة منها خمسين ألف دينار ذهب) ويكفل للمسلمين حرية العقيدة والدين في موطنهم الجديد وسلامة الذهاب لحجاجهم والمعتمرين إلى بيت اللّه الحرام.

د ـ التصدي لما يكون من إغارة الأعداء بسرايا خاطفة على دار الإسلام.

هـ ـ استطلاع أحوال الأعداء وأوضاعهم عن بعد.

أما قوام أهم هذه السرايا وقياداتها وتتابعها تأريخاً فكما يلي سرده وبيانه: ـ

١ ـ سرية «العيص»: خرجت في شهر رمضان المبارك من العام الأول للهجرة. عدتها ثلاثون رجلاً قائدهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله وسلم عليه وآله وأصحابه.

٢ ـ سرية «رابغ»: خرجت في شوال من العام ذاته. عدتها ستون رجلاً قائدهم عبيدة بن الحارث، ابن عم حمزة ـ رضي الله عنهما.

٣ ـ سرية «ودان»: قادها الرسول ﷺ في أوائل العام الثاني من الهجرة. وعدتها ستون نفساً.

٤ ـ سرية «بواط»: قادها الرسول ﷺ في ربيع الأول من العام الثاني. وعدتها مائتا رجل.

٥ ـ سرية «العُشَيرة»: قادها الرسول ﷺ في جمادى الأولى من العام

الثاني . وعدتها مائة وخمسون رجلاً .

٦ ـ سرية «سفوان»: **قادها الرسول ﷺ بعد الإياب من العشيرة بعشرة** أيام . وعدتها نحو من اثني عشر أو ثمانية عشر رجلاً .

٧ ـ سرية «نخلة»: وهذه كانت سرية استطلاع صغيرة من ثمانية رجال والقائد منهم عبد الله بن جحش ـ رضي الله عنهم . خرجت في شهر رجب الخير من العام الثاني للهجرة .

٨ ـ سرية «بدر الكبرى»: قادها الرسول ﷺ في شهر رمضان المبارك من العام الثاني للهجرة . عدتها ثلاثمائة وثلاثة عشر نفساً .

كل هذه الأحداث خلال مدة عام من رمضان إلى رمضان من العامين الأول والثاني للهجرة . وإنما كان بعد الهجرة المباركة أن رفع المنع من القتال دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ودار الإسلام :

ـ «إن اللّه يدافع عن الذين آمنوا إن اللّه لا يحبّ كل خوّان كفور . أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا اللّه ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبِيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن اللّه من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وللّه عاقبة الأمور» .

(الحج : ٣٨ ـ ٤١) .

هٰكذا شرّع القتال للذب عن حياض العقيدة والإسلام، ودفع الظلم والقهر، وحفظ البيع والصوامع والمساجد والصلوات، وصون المقاصد النبيلة في مجتمع الإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ـ جل جلاله وعم نواله.

أما السرايا فقد حققت جلّ غاياتها. كلها أظهرت الاقتدار وأعلنت حال الدفاع عن النفس، فارتدع كثيرون ممن كانت شرور أنفسهم تدعوهم إلى معاداة المسلمين ومناصرة قريش. وحققت السريتان الثالثة والخامسة: أولاهما معاهدة صلح مع «بني ضمرة» على «أنهم آمنون على أنفسهم، ولهم النصر على من رامهم، وأن عليهم نصرة المسلمين إذا دعوا»؛ والأخرى حلفاً مع «بني مدلج» وجميع حلفائهم. ولا حقت السرية السادسة حملة كرز بن جابر الفهري ومن معه من المشركين الذين أغاروا على سرح المدينة، فلاذوا بالفرار مهزومين، ولاحقتهم السرية حتى وادي «سفوان» من ناحية «بدر»؛ ولذلك عرفت هذه الحركة في كتب السيرة والمغازي بلقب «بدر الأولى». فأما السريتان البادئتان فقد سار حمزة رضي الله عنه بالأولى حتى ساحل البحر الأحمر من ناحية «العيص» حيث التقوا بعير لقريش فيها أبو جهل وأصحابه المشركون؛ وحجز بين الفريقين مجديّ بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين، فانصرفا دونما قتال. وسار بالثانية عبيدة بن الحارث إلى ماء بوادي رابغ حيث التقوا بجمع من المشركين يزيدون على مائتين ويرأسهم أبو سفيان؛ وإثر تراشق خفيف بالنبال انسحب المشركون مسرعين بالفرار ظناً بأن سرية المسلمين إنما كانت كميناً وراءه جيش كبير. وفي هذا التراشق كان أن رمى سعد ابن أبي وقاص بأول سهم في الإسلام. وما لاحق عبيدة الجمع اللائذ

بالفرار.

هذه أهم السرايا حتى بدر الكبرى. وهذه غاياتها. إنها لم يقصد بها إلى مواقع حرب. وما وقع قتال من أي واحدة منها، ما خلا سرية نخلة وسرية بدر الكبرى ـ فنخصهما بشيء من التفصل.

السابعة من السرايا المذكورة إنما جعلت سرية استطلاع سريعة الحركة بعيدة المدى: ألفت من ثمانية رجال يسهل مسيرهم، ومنتهى وجهتهم «نخلة» بين مكة والطائف على بعد ستمائة وخمسين كيلومترا تقريباً من المدينة المنورة. وقد بلغت نخلة بالفعل. لكنها تجاوزت مهمتها المرسومة ـ على الرغم من أن عدد رجالها عندئذ تناقص إلى ستة أنفس بعد رجوع اثنين من الثمانية كانت راحلتهما قد ضلت. وإذ هم بالنخلة مرت بهم عير لقريش فيها: عمرو ابن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان. لم يتمالك رجال السرية زمام أنفسهم، وهم يقابلون هؤلاء الأعداء الألداء الظلمة، فمالوا عليهم ميلة عارمة: قتل ابن الحضرمي؛ وهرب نوفل؛ وأخذوا عثمان والحكم أسيرين؛ واستاقوا العير إلى يثرب. وقع القتال في آخر يوم من رجب، أي قبل ساعات من انتهاء هذا الشهر الحرام.

فلما عادوا إلى يثرب عنّفهم إخوانهم المسلمون على ما فعلوا؛ وقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم ـ: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ـ أو كما قال، وأبى أن يأخذ من الغنيمة والأسيرين شيئاً. فندم أصحاب السرية ندماً شديداً. وبقيت العير المستاقة موقوفة الأمر. إذّاك سرّى عنهم الوحي الكريم وطيّب حالهم فنزل قوله تعالى: «**يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد**

الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». عندئذ قبل الرسول فدية الأسيرين بيد أن الحكم بن كيسان أسلم وحسن أسلامه مع إخوانه المسلمين. (للمعلومات والوقائع التأريخية السابقة واللاحقة في هذا الفصل راجع «نور اليقين» للشيخ محمد الخضري، ولا سيما الصفحات ١١٢ ـ ١٤٢، و«حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، ولا سيما الصفحات ٢٤٢ ـ ٢٧٦. وهذا الكتاب الأخير سفر قيّم).

فأما الأخيرة من السرايا التي ذكرناها فقد خرج بها الرسول ﷺ لاعتراض عير تجارة عظيمة آيبة من الشام واشتركت في أموالها قريش جمعاء وصحبها أبو سفيان. لكن مقادير اللّه سبحانه جل جلاله دفعت هذه السرية إلى موقعة حرب ضد جيش لقريش كامل العدد والعدة؛ واختارتها لأن تصبح أجلى مظهر للأعمال والتجليات الروحانية وغلبة الفئة القليلة فئة كثيرة بإذن اللّه تعالى ونصر منه. ما كان الرسول ولا أحد من أصحابه ـ صلى اللّه وسلم عليه وأصحابه ـ على علم بأن جيشاً مهاجماً قد توجه من مكة صوب يثرب. فلما انكشف الأمر عند «بدر» وأبت السرية المؤمنة الهرب والفرار وتقرر القتال والصدام قال سعد بن معاذ سيد الأوس: «يا نبي اللّه ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعدّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا. فإن أعّزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا. وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا. فقد تخلّف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولا أطوع لك

منهم؛ لهم رغبة في الجهاد ونية؛ ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك؛ إنما ظنوا أنها العير؛ يمنعك اللّه بهم ويناصحونك ويجاهدون معك». فأجابه النبي ﷺ على يقين وعزم: «أو يقضي اللّه خيراً من ذلك». وجرت الأحداث على النحو الذي نقتضبه في ما يلي: -

أ - تقاربت الفئتان القليلة والكثيرة على غير ميعاد وراء كثبان ولمّا تتراءيان. أرسل النبي ﷺ علي ابن أبي طالب والزبير ابن العوام وسعد ابن أبي وقاص إلى ماء بدر للاستطلاع أمام السرية. فرأوا على الماء غلامين لقريش يستقيان فأتوا بهما النبي فعرف منهما أن جيشاً عظيماً لقريش وراء الكثيب بالعدوة القصوى. وسألهما عن عدة الجيش فلم يحصياها لكنهما ذكرا أن أشراف قريش جميعاً هم مع الجيش. فسألهما كم ينحرون كل يوم فأجابا يوماً تسعا ويوماً عشرا (من الإبل). فعرف أن عدة الجيش نحو من ألف محارب.

ب - أما العُدد والسلاح فقد كانت مع جيش المشركين مائة فرس وستمائة درع ومئات من الرواحل وآلات الحرب والقتال. وما كانت تملك سرية المؤمنين غير فرسين وستين درعاً وسبعين بعيراً يعتقبونها كل ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة - والرسول كأي واحد من جنده يمشي ويعتقب بعيراً مع علي ابن أبي طالب ومرثد بن مرثد الغنوي.

ج - بدأ النبي ﷺ يستشير أصحابه قائلاً «هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ أكبدها». فقام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله إمض لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما

مقاتلون . . .» ثم قال النبي : «أشيروا عليّ أيها الناس»، وأراد الأنصار لأنهم كانوا بايعوه بالعقبة على الحماية بين ظهرانيهم بيثرب لا على الحرب والقتال خارجها. فالتفت سعد بن معاذ صاحب راية الأنصار قائلاً : «لكانك تريدنا يا رسول الله»؟ قال : «أجل». فقال سعد : «لقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلّف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصبر في الحرب صدُق في اللقاء. لعل اللّه يريك منا ما تقرّ به عينك. فسِر بنا على بركة اللّه». فسّر النبي لما وجد في أصحابه من الإيمان والعزم وحب الجهاد، وقال : «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. واللّه لكأني أرى مصارع القوم». فمضت سرية المسلمين حتى اتخذت موقعها عند آخر ماء في «بدر».

د ـ والتقى الجمعان. وأخذا للقتال يصطفان. وقام النبي على رأس جنده يعدّل صفوفهم ويحرضهم على القتال والجهاد والجلاد ويبشرهم بالنصر وبالجنة. فلما جال بين صفوفهم ورأى قلة رجاله وضعف عُدتهم للقتال، وشاهد جيش الكفر وكثرة رجالهم وقوة عُدتهم للحرب والقتال، توجه إلى عريش القيادة فوق المرتفع المشرف على ساحة الوغى، وخلفه أبو بكر وأمام المقر سعد بن عبادة متوشحاً سيفه، فاستقبل ربه وجثا على ركبتيه ورفع وجهه ويديه إلى السماء وأخذ يناجي اللّه رب العالمين بالتوبة والاستغفار والتضرع والدعاء بالنصر قائلاً مردداً: «اللهم هذه قريش أتت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك. اللهم فنصرك الذي وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة

اليوم لا تُعبد. اللهم أُنشدك عهدك ووعدك». وجعل أبو بكر من ورائه يردّ على منكبيه رداءه ويقول: «يا نبي اللّه حسبك فإن الله منجزك وعدك». وظل النبي يناجي ويبتهل إلى اللّه جل جلاله وهو أشد ما يكون توجها إليه واستعانة به على هذا الموقف الذي لم يتوقعه المسلمون ولم يتخذوا له عُدته، حتى وافته سكينة كالتي تعقب الوحي. فنهض إذّاك مسرعاً إلى المقاتلين المجاهدين وجال بينهم منادياً: «سيهزم الجمع ويولّون الدبر».

هـ ـ أجل، عند المسلمين نقص في العَدد ونقص في العُدد. سرية غير مستعدة تقابل جيشاً كامل الاستعداد. بيد أن اللّه جلت قدرته وعدهم بالنصر وأمدهم بألف من الملائكة مسوّمين فوق رؤوس المجاهدين متوجهين إلى قلوبهم بالقوة الروحانية، تلك التي جعلت كل واحد منهم يعدل عشرة من المشركين في العزم والحزم والبأس والقوة والانطلاق في القتال وحب الشهادة في الإسلام.

و ـ هٰكذا ازدهى يوم السابع عشر من شهر رمضان المبارك بالنصر المؤزر الموعود به للمؤمنين المجاهدين، والخذلان المحقق لجيش المشركين الظالمين. فقتل منهم من قتل، وهرب منهم من هرب، فهزم الجمع ومن قتلاهم صناديد الكفر: كأميّة ابن خلف الذي قصده بلال بن رباح وعمار بن ياسر جزاء ما كان يصنع بهما من صنوف التعذيب في مكة، وأبي جهل الذي أثخنه غلامان صغيران من الأنصار. هذه هي موقعة «بدر الكبرى» التي يذكرها المسلمون كلما أقبل عليهم يوم السابع عشر من شهر رمضان المبارك شهر الصيام والقيام في الحرب وفي السلام.

ز ـ فلما حسمت المعركة بنصر مؤزر للمؤمنين وهزيمة منكرة للكافرين

شرع المسلمون بتشييع شهدائهم إلى قبورهم هناك ببدر ـ وما هي إلا رياض من رياض الجنة. ثم أمرهم النبي ﷺ بدفن قتلى الكفار، فإنهم كانوا بشراً وإن كانوا أعداء؛ ووقف هو على القليب الذي دفنوا فيه ينادي صناديد قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم: «فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً»؟! فقال عمر ابن الخطاب: «يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها»؟ فأجاب النبي ﷺ: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». ثم يمّموا نحو «طيبة» يحفهم النصر والعز ورضوان ربّ العالمين.

فتأمّل ـ أيها الرفيق القارىء ـ أي قوة روحانية عظيمة هي تلك التي ناجى بها النبي ربه تعالى ينشده النصر المبين! وأي قوة روحانية عظيمة تلك التي وجه بها قلوب أصحابه إلى الله جل جلاله وإلى حب الجهاد والشهادة في سبيله! وأية قوة روحانية عظيمة هي تلك التي توجهت بها الملائكة ـ رضوان الله عليهم ـ إلى أفئدة المجاهدين حتى صار الواحد منهم يغلب عشرة من الكافرين العتاة! اللّهم إنها القوى الروحانية العظيمة التي أمدّ بها الخلاق العظيم نبيّه وملائكته والمجاهدين من عباده ـ جل جلاله وعمّ نواله. تأمل هذه ـ أيها الرفيق القارىء ـ ثم اقرأ فيها قوله تعالى: ـ

ـ «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع

طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين» .

(آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٧).

ـ «**وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ يستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم**» .

(الأنفال: ٧ ـ ١٠).

والظاهر من الآيات التي في السورتين أن النبي وعد المؤمنين بعون الملائكة ثلاثة آلاف، وأن رب العالمين طمأنه بأن الهجوم عليهم إن يقع فوراً يمددهم بخمسة آلاف. ثم تراخت الموقعة بعض الوقت وزادهم اللّه ثباتاً وجلداً، فلما وقعت إستجاب لهم وأمدّهم بألف من الملائكة مردفين للمجاهدين على قدر الكفاية والوفاء بالنصر.

وكذلك يتضح من الآيات الكريمات أن الملائكة كانوا مردفين للمقاتلين مسوّمين يسندونهم بالمدد الروحي الذي استغاثوا بالله سبحانه لأجل خلقه وتحقيقه، لا أن الملائكة أُرسلوا حملة سيوف ورماح يباشرون الضرب والقتل بأيديهم. ولربما ألقى الملائكة الرعب والخور في نفوس الكفار المحاربين. وهذه كلها من وسائل الحرب والغلب، وما النصر إلا من عند الله الذي أراد أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين.

فأما هذه القوى الروحانية التي جعلها اللّه جلت قدرته في أرواح النبي والملائكة والمؤمنين ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ فإنها لم تذهب ولم تنضب ولم يقض عليها بفناء. لقد جعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وارتضى له الإسلام خاتم الأديان في العالمين، فكتب البقاء لما آتاه من الحكمة والشريعة وقوة التزكية في قلوب أتباعه الآخرين كأتباعه الأولين.

إن اللّه حيّ لا يموت. وإن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه. وإن الرسول قد ورّث العلم والحكمة ونور التزكية للعلماء الصلحاء المتنورين من أبناء أمته الوارثين، حملة الرسالة العظمى إلى الناس أجمعين. فما بالمدد الرباني من انقطاع. وإنه وحده في ذلك كله المعبود والمطاع. فانهج أيها المسلم نهج نبيك. واختر من وارثيه أستاذاً لك في مهمات دينك. وتوجه بكل قلبك إلى اللّه، فإنه هو خالقك ومولاك، فنعم المولى ونعم النصير.

وقد الآن حان الأوان لنستشهد بالحديث والأثر لوقائع في الصفحات السابقة أخذناها من كتب التأريخ والسير. ونكتفي في ذلك بما أخرج الإمام البخاري ـ رضي الله عنه وجزاه خيراً: ـ

ـ أخرج في صحيحه (القسطلاني ج ٧ ص ٧): «حدثني يحيى بن بكير حدثنا الليث[ابن سعد] عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب أن عبد الله بن كعب قال سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يقول: «لم أتخلف عن رسول اللّه ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك. غير أني تخلفت عن غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها. إنما خرج رسول الله يريد عير قريش حتى جمع اللّه بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد».

ـ وأخرج في صحيحه (القسطلاني ج ٧ ص ١١): «حدثنا مسلم [الفراهيدي] حدثنا شعبة عن أبي إسحٰق عن البراء قال «استصغرت أنا وابن عمر» . [قال البخاري] وحدثني محمود حدثنا وهب عن شعبة عن أبي إسحٰق عن البراء [ابن عازب] قال: «استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر. وكان المهاجرون يوم بدر نيّفاً على ستين والأنصار نيفاً وأربعين ومائتين» .

ـ وأخرج في صحيحه (القسطلاني ج ٧ ص ٢٤): «حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه [سعد بن إبراهيم] عن جده قال قال عبد الرحمن بن عوف: «إني لفي الصف يوم بدر فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن فكأني لم آمن بمكانهما إذا قال لي أحدهما سرا من صاحبه يا عمّ أرني أبا جهل. فقلت يا ابن أخي وما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه. فقال الآخر سرا من صاحبه مثله. قال [عبد الرحمن] فما سرني أني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه [إلى أبي جهل] فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه. وهما ابنا عفراء» [معاذ ومعوّذ من الأنصار والدهما الحارث بن رفاعة] .

ـ وأخرج في صحيحه (القسطلاني ج٧ ص١٨ ـ ١٩): «حدثني عبدالله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا [أي دفنوا] في طويّ [أي قليب مبني بالحجارة] من أطواء بدر خبيث مخبّث [لصيرورته مدفناً للمشركين] . وكان [ﷺ] إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال. فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى وتبعه أصحابه وقالوا ما نُرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى

قام على شفة الركيّ فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان: «أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً». قال [أبو طلحة] فقال عمر يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها. فقال رسول ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

وما ارتدع الكفار بل ازدادوا كفراً. واستزادوا من القوة يعودون بها إلى هجمات أخرى على دار الإسلام. «طيبة» هي المقصودة بالحرب. فساقوا إليها جنود الظلم أخرى ثم أخرى. فوقعت معركة «أحد» ثم معركة «الأحزاب». والله سبحانه وتعالى نصر المسلمين وهزم الأحزاب.

ويهود «يثرب» و «خيبر» وإخوانهم عاثوا فساداً داخل طيبة ودار الإسلام. فما تركوا عهداً ما نقضوه، ولا شراً وعدواناً على المسلمين ما ارتكبوه. فاضطر المسلمون اضطراراً إلى إجلائهم.

والعظميان، دولة فارس ودولة الروم، ناصبتا الإسلام والمسلمين كل صنوف العداء. وأرادت كل واحدة منهما القضاء على دين التوحيد في مهده.

بادرت الدولة الساسانية العظمى إلى تقويض مجتمع الإسلام الفتي. فقوضها العزيز المقتدر من آساسها، وفتح للمسلمين ديارها، فنشروا العلم والحكمة والعدل والهداية ونُزُلَ الكرامة لبني الإنسان مسلمين وغير مسلمين.

ومضت الدولة الرومانية العظمى تكيد للإسلام والمسلمين مكايد الحرب ومكايد السلم، فطالت معها المعاناة واستطالت أزمنة الجهاد. لكن العرب المسلمين عجلوا بطرد أولئك الأوروبيين الغزاة من بلاد الشام، فأحلوا

بذلك العدل مكان الظلم والعلم مكان الجهل والهداية موضع الغواية والضلال.

وعلى الجملة فإن حروب دولة الإسلام ما كانت قط، طوال تأريخها، حرب قهر وغلبة واستعباد، ولا حرب نشر لدين الإسلام، بل حروب دفاع عن دار الإسلام وذبّ عن حياضها أن يدنسها المعتدون والغاصبون ـ ولا سيما الغاصبون الأوروبيون الأشرار الذين تعودوا احتلال بلاد الشرق وإفساد الأحوال فيها منذ عهد الاسكندر المكدوني.

ولما دالت الدولة العباسية العظمى، ودارت في أدمغة الملوك الأوروبيين نشوة الاتفاق على استعباد الشرقيين كرة أخرى واحتلال بلادهم، بلاد الإسلام هذه المرة، وعلى إعادة العزة للدولة الرومانية العظمى، لما دارت في الرؤوس تلكم النشوة الهوجاء هبت أوروبا كلها، شعوبها وملوكها وأمراؤها وقادتها وجنودها وبغاياها حتى نهاية الجزر البريطانية في الغرب، هبت لشن حرب نكراء على ديار المسلمين وساقت جيوشها في البر والبحر فأحالت مروج بلاد الشآم وجبالها وسهولها ووديانها الخضراء إلى عرصات قتال وساحات حرب وجحيم. وجاءت الملوك على رؤوس جيوشها وأجمعوا على استعباد المسلمين واحتلال بلادهم هذه الكرة تحت ظلال الصليب وفوق أحابيل الدين وباسم السيد المسيح ـ عليه وعلى أخيه أحمد المختار أفضل الصلاة والتسليم.

هل قرأت ـ أيها الشرقي ـ تأريخ الحروب الصليبية؟ إذا لم تكن قرأت فاقرأ، إنه تأريخ بلادك مسلماً كنت أو غير مسلم. واقرأ تستلهم جهاد المسلمين للذبّ عن حياض وطنك، وتستعظم جهاد أبطال الإسلام صلاح الدين

الأيوبي وإخوانه المسلمين الأكراد. لكن الدولات دول والأحوال حول.

وخير من كال الصاع صاعين للأوروبيين وحضارتهم الهوجاء قد كان الأتراك المسلمون الذين استأصلوا شأفتهم من بلاد الشرق، وفتحوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ من الميلاد، وأعادوا العزة لحضارة الشرق حضارة الإسلام يتفيّأ ظلالها أبناء كل الملل والأديان. لكنها سنة الأمم والدولات أن تصعّد وتصوّب في مسار الحياة، وكما قبل فصول أنشدناك:

«لتريك كيف إذا استتمت دولة

أعمى الغرور رجالها لتدولاً».

وإثر انقضاء الدولة الرومانية العظمى وجلائها التام عن بلاد الشرق، أفاق الأوروبيون وتطلعوا إلى بناء الحضارة الأوروبية المعاصرة على قاعدة من الأخذ بمعارف الحضارات الثلاث السابقة (اليونانية والرومانية والإسلامية) ومن الكراهية والعداوة الراسختين لدين الإسلام وللمسلمين. ومضت نزعة البناء ونزعة العداء على قدم وساق: ابتكار وصنعة في السلاح والعتاد، وأطماع في بلاد المسلمين لأوبة ومعاد. فعلى امتداد بضعة قرون شنت حروب وتفاقمت شؤون واصطنعت مذاهب وخلافات وشجون حتى كان القرن الميلادي العشرون وعاد إلى الاجماع السادة الأوروبيون وفي إمرتهم هذه الكرة خدم وعملاء شرقيون فقضوا على آخر دولة للإسلام ومزّقوا أوصالها إرباً إربا ووقف «الجنرال اللنبي» خطيباً عندما احتل القدس الشريف يقول: يا صلاح الدين الآن فقط إنتهت الحروب الصليبية. أجل، مزقوا أوصال الدولة العلية إرباً إربا فاستعمروا بلاد الإسلام ثم قضوا على ما كانوا زوقوا للعملاء من أحلام لكنهم صاروا لأشخاص العملاء وبيوتهم وجيوبهم أماً وأبا. ويا

لسوء المنقلب للمسلمين في هذا المهبّ.

فالصـراع اليوم بين الشرق وبين الغرب إنما هو صراع حضاري. إنه لصراع حضاري. تريد الحضارة الأوروبية المسيطرة القضاء على البقية الباقية من حضـارة الإسـلام. إنهمـا حضـارتان متعارضتان متطاردتان. فالحضارة الأوروبية الحديثة قوامها ما ترى: ـ

في العلم: ترجيح أسباب الموت والدمار على أسباب العيش والحياة. تنفق الأمـوال بلا حسـاب على القنـابل الذرية والنووية والشعاعية والسمية والجرثومية وكل ما يصنع الهلاك والدمار الجماعي للبيئة ولبني الإنسان. هذا وفي أبناء بلادها من يعانون قلة الرفاهية وعطالة اليد العاملة.

في الاستخـراب: يستبيحـون استعمار شعوب الشرق ونهب ثرواتهم وهـدر دمـائهم وإلقـاء الفتن والقتال بينهم وتسبيب المجاعات في بلدانهم ومحاربة الإسلام الناهي عن كل هذه الشنائع.

وفي المجتمع والحياة: همجية نكراء؛ وإشاعة للخنى والوباء؛ وإعاقة لتكوين العوائل والأسر؛ وأمهات كثيرات دونما زواج وأزواج؛ وأطفال كثيرون دونما آباء؛ وآخرون ولائد مطروحة في محطات القطار أو أقفاص الهاتف دونما آباء ولا أمهات؛ وتسييب لنوازع الشهوات من كل الجهات.

في الدولة والكنائس: يقولون «الدولة علمانية» (بفتح صوت العين). وليس المراد أن الدولة لا دينية. وأيضاً ليس المراد أن الدولة منسوبة إلى العلم (بكسر صوت العين). إذ أن لفظة «علمانية» نسبة على خلاف القاعدة إلى «العالم» (بفتح صوت اللام) أي الناس. ذلك أن الشعب عندهم منقسم من

حيث الأساس إلى طبقتين من البشر: قلة عليا ممتازة متميزة هم الكهان ورجال «الأكليروس»؛ وكثرة كاثرة سفلى هم عامة الناس أجمعين من أبناء الشعب. فحين يقال «الدولة علمانية» فالمعنى أن الناس أيضاً على اختلاف صنوفهم يشتركون في أعمال إدارة الدولة، وأن هٰذه الإدارة ليست منحصرة من جميع جوانبها في أيدي طبقة الكهان كما كان الشأن في قديم الزمان. فأما الكنيسة قبل ذلك وبعد ذلك فلها المقام الأعظم دون مراء ولها الحب والولاء والطاعة والوفاء، وكل طفل يولد فلا بد أن يسجل في الكنيسة أو يعمّد. وللكنيسة سلطات ماثلة وأموال طائلة ورجال ونساء في كل مرفق من مرافق الدنيا: في المجالس التشريعية والمجالس البلدية والجامعات والمختبرات والمستشفيات والمعسكرات وبواخر السفر والسياحة وجماعات التبشير وبين المتخصصين في إدارة الجاسوسية والاستعمار. وليغنك تصوراً لرفعة رجال الدين في الحضارة الأوروبية الحديثة مقامان معظمان في دول هذه الحضارة: مقام «البابا» الكاثوليكي؛ ومقام «الباترياركْ» الأنكليكاني. عرش أولهما في حاضرة «الفاتيكان» في قلب العاصمة «روما». وعرش الثاني في صدر «مجلس اللوردات» في قلب العاصمة «لندن». كل هذا، ويستعبطون عقول الشرقيين، يقولون لهم إفصلوا الدولة عن الدين. ويا لهم من دجالين! ويا لمسلمي العصر من مغفّلين!

وفي الدجل: حدث عن الحضارة الأوروبية ولا حرج. فالدجل خاصتها المميزة. السيد المسيح الزكي الرحمة السلم العميم نصبوا اسمه ودينه شعاراً للاستعمار والحروب والظلم والسلب والنهب. المسيح الزكي عند المسلم جزء من إيمانه و«**كلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم**» العذراء. والمسيح عند

اليهود هو ذلك الرجل الذي يكفرون به ويكفّرونه ويقولون فيه ويتقولون عليه شنائع لا يحتمل لسان المسلم نقله ولا قلمه كتابته. وكنائس الحضارة الأوروبية الحديثة تعادي المسلمين كل صنوف العداء وتوالي اليهود والصهيونيين كل صنوف الموالاة والولاء. المسيح الزكي ابن الشرق، ابن ديار الشرق المقدسة، مفخرة الشرق للعالم كله. وكنائس الغرب تعادي شرق المسيح، وتستخرب بلاده، وتشوه سمعته وزكاءه، وتستصغر كنائس المسيح الشرقية الأصيلة وتحاول اتخاذها تبعاً وأداة لها فللاستعمار أو استبقاءها تضعف رويداً رويداً حتى تنقضي. وبعد كل هذه الخبائث والكبائر في النوايا والأعمال، تقول كنائس الحضارة الأوروبية الحديثة إنها هي التي تحب المسيح وتمثل المسيح وتدين بدين المسيح! يا ويله من دجل غليظ غليظ في الأقوال والأعمال! وأيضاً وقبل ظهور الإسلام رفضت الكنائس الغربية وثائق الكنائس الشرقية وجملة صالحة من سجل الدين الصحيح وآداب الدين المنقولة عن السيد المسيح. ذلك في مؤتمر «إزنيق» سنة **٣٢٥** من الميلاد. (انظر «مجمع الأشتات» ص **٣٢ ـ ٣٣**).

وفي الشرق اليوم من المسيحيين، كما في الشرق اليوم من مواطنيهم المسلمين، أغرار غير واعين، ومخدوعون بالدجل الغربي غير نابهين، وشباب يداف لهم السم في العسل، فيقطعون عن أقوامهم وأوطانهم أسباب النهضة والعزة ونشدان الأمل. ألا استفيقوا ـ أيها المسيحيون الشرقيون ـ وجاهدوا كما جاهد أجدادكم في عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب العربي العدوي، وفي عهد قائد الشرقيين صلاح الدين الكردي الأيوبي. ألا واستفيقوا ـ أيها المسلمون الشرقيون ـ فإن الحضارة الأوروبية سم في دسم

وهلاك للشرق وسقم واستخراب لأوطانكم وندم وتمزيق لأمتكم بين الأمم.

والصراع اليوم بين الشرق وبين الغرب إنما هو صراع حضاري. إنه لصراع حضاري. تريد الحضارة الأوروبية المسيطرة التي عرفنا سداها ولحمتها وسجاياها قبل قليل، تريد القضاء على البقية الباقية من حضارة الإسلام، هذه التي هي لكل الأنام، لجميع الملل والأقوام. فحضارة الإسلام قوامها ما ترى: -

في العلم: حضارة الإسلام حضارة روحانية علمانية (بكسر صوت العين) ليس فيها مقام اعتزاز بالإلحاد وبالجهل. عد - أيها الرفيق القارىء - إلى ما تقدم من فصول العلم وآساس العقيدة تجد ذلك جلياً واضحاً كل الوضوح. ثم اقرأ قوله تعالى: «**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**». (البقرة: ٢٨٥). وقوله تعالى: «**ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**». (الإسراء: ٣٦).

في المجتمع والحياة: حضارة أصلها وسيماها «**الأُخوّة والتعارف**»: أُخوّة الإنسان للإنسان، وأن يصنع بعضهم لبعض معروفاً أفراداً وجماعات. وأيّ كلام أبلغ في تصوير هذا الأصل من قوله تعالى: «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**».

في الدين والدولة: ليس يوجد في حضارة الإسلام كهان وطبقة

«أكليروس» ينفردون بالسلطة أو يشتركون فيها. الناس فيها سواسية كأسنان المشط. كل يعمل في مجال مهنته وحقل اختصاصه. ثم التفاضل إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح والتقوى في أداء مهام الحياة للدنيا وللآخرة. وما من حضارة كالإسلام بنيت على الردع والرفض والمقت لسجايا فرعون وقارون. وهذا أصل توزع الأعمال في حضارة الإسلام، وقد أحسن إيجازه شاعر من أبناء هذه الحضارة إذ قال:

«الناس للناس من بدو ومن حضر
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم».

حرية العقيدة: لها في حضارة الإسلام ساحتها الفسيحة التي اتسعت للناس حتى الذين يؤثرون الكفر على الإيمان: «**لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ**...». (البقرة: ٢٥٦). «**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**...». (الكهف: ٢٩). فأما أهل الكتب السماوية - والمسلمون أنفسهم أصحاب كتاب سماوي - فلهم في حضارة الإسلام الرعاية والاحترام ويترجّحون في بعض أحكام الرعاية على أبناء دين الإسلام. فالإيمان في الإسلام لا يصح على إكراه. والاستثناء الوحيد من هذا الأصل قد كان حكم مشركي جزيرة العرب أيام تأسيس الدولة الأولى. وقد انقضى عهد أولئك المشركين وانتهت حالة الاستثناء هذه التي أحدثها مشركو الجزيرة دون من سواهم. وكل من يتفقّه في قانون الإسلام يجد حرية العقيدة مكفولة لكل الأنام. أما الدعوة إلى الإسلام فإن أصلها الراسخ: «**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**» (النحل: ١٢٥).

وبعد، فهذا العصر عصر جهاد بكل صنوف الجهاد رجاء الخلاص من حضارة الكفر والدجل والفساد. فالجهاد الجهاد: إن دار الإسلام مفقودة، والمسلمون فقدوا ثقافة الإسلام. وهل الجهاد إلا من العمل الصالح في حياة الإنسان. وقد خصصناه بركن كامل لما له في التربية الروحية من شان. فلنتطلع في الركن التالي الرابع والأخير إلى سائر الأعمال الصالحة. فإنما **«المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً»**.

الركن الرابع
العمل الصالح

الفصل الثالث عشر: تقسيم الأعمال.

الفصل الرابع عشر: أعمال الجوارح.

الفصل الخامس عشر: أعمال القلوب.

الفصل الثالث عشر
تقسيم الأعمال

ما أظنك ـ أيها الرفيق القارىء ـ بحاجة إلى أحد يعلمك أنك ذو روح، وأن سائر الناس بني الإنسان هم ذوو أرواح وشأنكم جميعاً في ذلك سواء.

وما أظنك أيضاً بحاجة إلى أحد يخبرك بأن في الناس كل الناس من يحسنون الصالحات من الأعمال ومن يقترفون الطالحات من الأعمال.

ولست أظنك غافلاً الآن بعد كل الذي تدبّرته في الفصول السابقة من دليل وبرهان عن حقيقتين إحداهما ماثلة للعقل والآخرى للعيان. الثانية أن الجسد الدنيوي للإنسان يموت ويستحيل إلى تراب. والأُولى أن روحه يخلد ويبقى ليوم الحساب وبعد يوم الحساب.

فليكن عندك بُعد نظر، واعتبر بمن جاء وعبر. وانظر إلى العمل الصالح كيف يقبل ويحمد، وإلى العملِ الطالح كيف يرفض وينقد. هذا في عالم الفناء، فكيف بالشأن في عالم البقاء.

وقد علمنا من قبل أن الموضوع الكلّي للشريعة الغراء هو «عمل المكلف»؛ وأن أعمال المكلفين والمكلفات أنواع وأصناف تندرج تحتها جزئيات أعمال زيد ونزار ونازك وأنوار. وأيضاً قد علمنا كيف تنقسم في

الشريعة كليات الأحكام. فلنعلم الآن على وجه الإجمال كيف تنقسم الأعمال.

وإذ كانت أحكام الشريعة تنصب على الأعمال، فمهما قسمت الأعمال قسمت الأحكام، ومهما قسمت الأحكام قسمت الأعمال. فلننظر إلى تقسيمات منهجية في هذا المجال. بيد أن غايتنا هنا غاية الاختصار فليس المقام مقام الإطناب والانتظار. أصحاب المصادر المعتمدة اتبعوا واحداً أو آخر من الأساليب التالي ذكرها وفق التسلسل المتبع لصنوف الأحكام والأعمال بتتابع الكتب الأصول المنقسم إليها كل مصدر: -

الأسلوب الأول

١ ـ الطهارة	٢ ـ الصلاة	٣ ـ الزكاة	٤ ـ الصوم	٥ ـ الحج
٦ ـ النكاح	٧ ـ الرضاع	٨ ـ الطلاق	٩ ـ الإيمان	١٠ ـ الحدود
١١ ـ السرقة	١٢ ـ السير	١٣ ـ اللقيط	١٤ ـ اللقطة	١٥ ـ المفقود
١٦ ـ الشركة	١٧ ـ الوقف	١٨ ـ البيع	١٩ ـ الصرف	٢٠ ـ الكفالة
٢١ ـ أدب القضاء	٢٢ ـ الشهادات	٢٣ ـ الرجوع عن الشهادة	٢٤ ـ الوكالة	٢٥ ـ الدعوى
٢٦ ـ الإقرار	٢٧ ـ الصلح	٢٨ ـ المضاربة	٢٩ ـ الوديعة	٣٠ ـ العارية
٣١ ـ الهبة	٣٢ ـ الإجارات	٣٣ ـ الإكراه	٣٤ ـ الحجر	٣٥ ـ المأذون
٣٦ ـ الغصب	٣٧ ـ الشفعة	٣٨ ـ القسمة	٣٩ ـ المزارعة	٤٠ ـ المساقاة
٤١ ـ الذبائح	٤٢ ـ الأضحية	٤٣ ـ الكراهية	٤٤ ـ إحياء الموات	٤٥ ـ الأشربة
٤٦ ـ الصيد	٤٧ ـ الرهن	٤٨ ـ الجنايات	٤٩ ـ الديات	٥٠ ـ المعاقل
٥١ ـ الوصايا	٥٢ ـ الخنثى	٥٣ ـ مسائل شتى.		

الأسلوب الثاني

١ ـ الطهارة ٢ ـ الصلاة ٣ ـ الزكاة ٤ ـ الصيام ٥ ـ الحج
٦ ـ الجهاد ٧ ـ الإيمان ٨ ـ النذور ٩ ـ الضحايا ١٠ ـ الذبائح
١١ ـ الصيد ١٢ ـ العقيقة ١٣ـ الأطعمة والأشربة ١٤ ـ النكاح ١٥ ـ الرضاع
١٦ ـ الطلاق ١٧ ـ الإيلاء ١٨ ـ الظهار ١٩ ـ اللعان ٢٠ ـ الإحداد
٢١ ـ البيوع ٢٢ ـ الصرف ٢٣ ـ السلم ٢٤ ـ الجعل ٢٥ ـ القراض
٢٦ ـ المساقاة ٢٧ ـ الشركة ٢٨ ـ الشفعة ٢٩ ـ القسمة ٣٠ ـ الرهون
٣١ ـ الحجر ٣٢ ـ التفليس ٣٣ ـ الصلح ٣٤ ـ الكفالة ٣٥ ـ الحوالة
٣٦ ـ الوكالة ٣٧ ـ اللقطة ٣٨ ـ الوديعة ٣٩ـ العارية ٤٠ ـ الغصب
٤١ ـ الاستحقاق ٤٢ ـ الهبات ٤٣ ـ الوصايا ٤٤ ـ الفرائض ٤٥ ـ الجنايات
٤٦ ـ القصاص ٤٧ ـ الجراح ٤٨ ـ الديات ٤٩ ـ القسامة ٥٠ ـ الزنا
٥١ ـ القذف ٥٢ ـ السرقة ٥٣ ـ الحرابة ٥٤ ـ القضاء.

الأسلوب الثالث

١ ـ الطهارة ٢ ـ الصلاة ٣ ـ الجنائز ٤ ـ الزكاة ٥ ـ الصيام
٦ ـ الاعتكاف ٧ ـ الحج ٨ ـ البيوع ٩ ـ الرهن ١٠ ـ الصلح
١١ ـ الحوالة ١٢ ـ الضمان ١٣ ـ الشركة ١٤ ـ الوكالة ١٥ ـ الوديعة
١٦ ـ العارية ١٧ ـ الغصب ١٨ ـ الشفعة ١٩ ـ القراض ٢٠ ـ المساقاة
٢١ ـ الإجارة ٢٢ـ السبق والرمي ٢٣ـ إحياء الموات ٢٤ ـ اللقطة ٢٥ ـ اللقيط
٢٦ ـ الوقف ٢٧ ـ الهبات ٢٨ ـ الوصايا ٢٩ ـ الفرائض ٣٠ ـ النكاح
٣١ ـ الصداق ٣٢ ـ الخلع ٣٣ ـ الطلاق ٣٤ ـ الإيلاء ٣٥ ـ الظهار
٣٦ ـ اللعان ٣٧ ـ الإيمان ٣٨ ـ العدد ٣٩ ـ الرضاع ٤٠ ـ النفقات
٤١ ـ الجنايات ٤٢ ـ الديات ٤٣ـ قتال أهل البغي ٤٤ ـ السير ٤٥ ـ الحدود
٤٦ ـ الأقضية ٤٧ ـ الشهادات ٤٨ ـ الإقرار.

وليلاحظ أن أصحاب هذا الأسلوب يبحثون القرض والسلم في كتاب البيوع، والتفليس في كتاب الرهن، والمزارعة في كتاب المساقاة، والجعالة في كتاب الإجارة، والذبائح في الحج.

الأسلوب الرابع

١ ـ الطهارة	٢ ـ الصلاة	٣ ـ الجنائز	٤ ـ الزكاة	٥ ـ الصيام
٦ ـ المناسك	٧ ـ الجهاد	٨ ـ البيع	٩ ـ الوقف	١٠ ـ الوصايا
١١ ـ الفرائض	١٢ ـ النكاح	١٣ ـ الطلاق	١٤ ـ الإيلاء	١٥ ـ الظهار
١٦ ـ اللعان	١٧ ـ العدد	١٨ ـ الرضاع	١٩ ـ النفقات	٢٠ ـ الجنايات
١٧ ـ الديات	٢٢ ـ الحدود	٢٣ ـ الأطعمة	٢٤ ـ الإيمان	٢٥ ـ القضاء
٢٦ ـ الشهادات	٢٧ ـ الإقرار.			

أما «كتاب البيع»، وهو الثامن في التتابع، فمشتمل على أحكام الأعمال التالية في عشرين فصلاً: الربا والصرف، الأصول والثمار، السلَم، القرض، الرهن، الضمان، الحوالة، الصلح، الحجر، الوكالة، الشركة، المساقاة، الإجارة، السبق، العارية، الغصب، الشفعة، الوديعة، إحياء الموات، اللقطة، اللقيط.

الغالب في التأليف هو اتباع مسلك من الأساليب الأربعة. وقد يتخذ غيرها. بيد أن المطولات من مصادر الفقه تحوي مباحث الفقه ومسائلها جمعاء. ومنها موسوعات وخزائن لمعرفة الفقه والقانون: «كالمبسوط» للسرخسي، «والبسيط» للإمام الغزالي. أما الأساليب المعروضة: فأولها المتبع عند فقهاء كبار مثل صدر الشريعة والكمال ابن الهمام وصاحب التكملة في «فتح القدير» من مراجع المدرسة الفقهية المنسوبة إلى الإمام التابعي

الجليل أبي حنيفة؛ وثانيها عند كبار من فقهاء المدرسة المنسوبة إلى إمام دار الهجرة مالك ابن أنس، كابن رشد الحفيد في سِفره المفيد «بداية المجتهد»؛ وثالثها من أجلاء المدرسة المنسوبة إلى إمام أهل الحديث محمد ابن إدريس الشافعي، كما في «المهذب» لأبي إسحاق الشيرازي، وفي «المجموع» شرحه لأبي زكريا النواوي؛ والرابع من خيرة فقهاء المدرسة المنسوبة إلى الإمام المبجل أحمد ابن حنبل، كأبي النجا الصالحي في متن «زاد المستقنع» ومنصور بن يونس البهوتي في شرحه المسمى «الروض المربع». وكل واحد من هذه المراجع مقسم تقسيماً رئيساً إلى «كتب»: مثل «كتاب الصلاة»، «كتاب البيع»، «كتاب القضاء»، وهكذا. وكل «كتاب» من هذه هو في واقع الأمر كتاب مستقل برأسه في موضوعه. ثم الكتب مقسومة إلى أبواب ففصول أو إلى فصول مباشرة. جزى الله بلطفه الفقهاء العظام ولهم منا السلام والدعاء والاحترام.

والحق أن «الوسيط» للغزالي، و«بداية المجتهد» لابن رشد، و«فتح القدير» للكمال ابن الهمام، و«المحلى» للإمام الظاهري ابن حزم، و«المغني» لابن قدامة، و«المدونة الكبرى» لأسد ابن الفرات، أن هذه وأمثالها مصادر للفقه الإسلامي المقارن، ومصادر للقانون المقارن عزيزة الوجود خارج نطاق الحضارة الإسلامية العصماء.

وإذا قارنا بين الأربعة الأساليب المتقدمة رأينا مواقع التطابق ومواضع التفارق. وبعض التفارق راجع إلى مجرد اختيار الفقيه المؤلف في التقديم والتأخير بين الكتب، في حين أن بعض هذا التقديم والتأخير ينبني على تغاير النظر الفقهي إلى المباحث المدرجة تحت الكتب أو الأبواب. مثال هذا

«كتاب النكاح»: هو في نظر الفقيه الحنفي يغلب عليه جانب العبادة فيقدم إلى جنب كتب العبادات؛ وهو في نظر الفقيه الشافعي والفقيه الحنبلي يغلب عليه جانب العقد فيؤخر إلى جنب كتب العقود والمعاملات. وهنالك أحياناً اختلاف في المصطلح المتخيّر أو في مشتقات المصطلح: الثاني كما في «كتاب الصوم» عند المؤلف الحنفي و«كتاب الصيام» عند المؤلف الحنبلي؛ والأول «كالمضاربة» عند الفقيه الحنفي و«القراض» عند الفقيه المالكي - وهما مصطلحان لمدلول واحد. والغرض من كل هذه الأساليب هو الإحاطة بقوانين الإسلام لجميع الأعمال، إما على إيجاز كما هو الشأن في «الروض المربع» أو علي إطناب كما في «البسيط» و«المحلّى» و«المبسوط» أو على توسط كما في «المهذب» و«الوسيط».

وههنا ينبغي التنبيه إلى أنا تركنا الأبواب المتعلقة بالرق والرقيق فلم نوردها ضمن تقسيمات الأساليب المتقدمة. تركناها لأن الرق استؤصلت شأفته وقطع دابره بالنظام القانوني المحكم الذي أبدعته شريعة الإسلام. فلقد كان الرق وكانت العبودية لغير اللّه - جل جلاله - من آساس المجتمع المستقرة في الحضارات العتيقة جميعها السابقة زمانا على حضارة الإسلام الجديدة. وكان الرق العماد الراسخ لاقتصاديات الإمبراطورية الرومانية وفي معاش الناس في بلدان الحضارتين أليونانية والرومانية وغيرها من البلدان الوارثة أفواج الإماء والعبيد. أجل كان العبيد عصرئذ، كما النفط ومشتقاته في هذا العصر، عماد الإنتاج والتجارة واقتصاد البلدان والدولات والأمم.

فلما أشرق شمس الإسلام، وإنساب شعاعه إلى القلوب والعقول بمبادىء العدل والمساواة بين الناس وتفريد العبادة والعبودية للّه وحده الخالق

البـاريء دون من سواه وما سواه، صار أن أفاض على مجتمع بني الإنسان بنظام محكم دقيق رفيق متين من قوانين متناسقة متدرجة استهلت بالتسوية في العقيدة والعبادات بين الأحرار والعبيد، واستكملت بجعل العتق والتحرير أنبل عبادة للّه تعالى وأفضل مرقاة لنعمى الحياة الخالدة، وأبدرت بما ألغت من اتخاذ الحروب مصدراً للاستحواذ على المغلوبين عبيداً رقيقاً وعلى أراضيهم وبلدانهم نهباً فوضى تحت أيدي الجيوش الغالبة القاهرة. ففي العهود القديمة قد كانت الحرب أوسع باب إلى اتخاذ الرقيق. وفي عهد الإسلام الجديد سدّ هذا البـاب وتمت كلمـة الإسـلام في إلغـاء الـرق بين النـاس في مجتمع المسلمين مجتمع الإنسان المكرّم.

سدّ الإسلام ذريعة الحرب إلى استعباد الإنسان للإنسان. وأحكم السدّ بأحكام من الشريعة الغراء اشتملت عليها القرارات التشريعية التي توصّل إليها مجلس الشورى عند فتوحات العراق في عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ـ رضي اللّه عنـه وأجـزل عطاءه. فلقد أجمع المجلس على هذه الأحكام المستنبطة من نصوص الكتاب المجيد: ـ

أ ـ الناس من شعوب الأقطار المفتوحة أحرار لا يسترقّون بالفتح.

ب ـ الأراضي الزراعية تبقى في أيدي أولئك الذين يزرعونها.

ج ـ في غلة الأرض الزراعية ضريبة العشر للأراضي المسقية سيحا، ونصف العشر للمسقية إرواء، تدفع «لبيت المال»، خزانة الدولة.

ثم إن العاجزين عن الكسب ونفقات العيش بسبب من السن أو الزمانة أو التعرض للعطالة الإجبارية، إن هؤلاء جميعاً تقع مسؤولية إعالتهم على بيت

المال (خزانة الدولة) في دار الإسلام. إنها لعمر الحق أحكام جليلة أبدعتها حضـارة الإسـلام الـروحـانية وأحكمتها قبل ما تعرف اليوم «بلائحة حقوق الإنسـان» بقـرون طويلة وعصـور. وليس هنـا من مجـال لتفصيل في هذا الشـأن، . فليرجـع الرفيق القارىء إذا شاء إلى «كتاب الخراج» للإمام أبي يوسف ـ رحمه اللّه وجزاه خيراً ـ وإلى «الحرية الجامعية» (ص ٢٢١ ـ ٢٢٤). إنه لقول الإسلام الذي اشتهر على لسان عمر ابن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!».

أمـا عصر الحضارة الأوروبية الحديثة (عصر حقوق الإنسان !) فقد لطخت جنباته بأبشع ما عرف الإنسان في تأريخه الطويل من جرائم الاستعباد وتجارة العبيد والرقيق. اشتركت فيها دول وحكومات وشركات، وخصصت لها أسـاطيل وقـوافـل تجوب البحار وتقطع البراري. والقدح المعلّى في تلكم الجرائم وأساليبها النكراء قد كان لأسبانيا وأمريكا وإيطاليا وبريطانيا العظمى وفرنسا وهولندا. هذه كلها في عصر الحضارة الأوروبية المحدثة وفي أمّات ديارها. (وقد تحولت تجارة الرقيق بعد إعلان حقوق الإنسان إلى ضروب من استرقاق النساء لتجارة الدعارة ونشر البغاء في بلاد تعمد إلى تحديد النسل وتعميم الخنى). فأما ما اقترفت في بعض أوطان المسلمين في هذا العصر (كمثـل ما أشـرنـا إليها في الفصل الثامن ص ١٤٨) فعلى مخالفة لقوانين الإسـلام ومجـافـاة لمعقـول أحكـامـه وروح شريعته ـ تلك التي ذكرنا آنفاً الأساليب الأربعة للفقهاء في عرضها وتبويبها.

على أن فقه الإسلام زاخر بمنهاج آخر في عرض الشريعة الغراء تفرّد به الإمـام الغـزالي في «إحياء علوم الـدين»، ثم نسـج على منواله آخرون

لاحقون كالعالم المفضال ابن قيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد» ـ جزاهم اللّه عنا وعن سائر المسلمين خيراً. كتاب الغزالي مؤلف من أربعة أرباع: ـ

١ ـ ربع العبادات؛

٢ ـ ربع العادات؛

٣ ـ ربع المهلكات؛

٤ ـ ربع المنجيات.

الربع الأول: مشتمل على الكتب العشرة التالية: كتاب العلم، قواعد العقائد، أسرار الطهارة، أسرار الصلاة، أسرار الزكاة، أسرار الصيام، أسرار الحج، آداب تلاوة القرآن، الأذكار والدعوات، ترتيب الأوراد في الأوقات.

الربع الثاني: وفيه الكتب العشرة التالية: كتاب آداب الأكل، آداب النكاح، أحكام الكسب، الحلال والحرام، آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، العزلة، آداب السفر، السماع والوجد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

الربع الثالث: وفيه العشرة الكتب التالي ذكرها: كتاب شرح عجائب القلب، رياضة النفس، آفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج، آفات اللسان، آفات الغضب والحقد والحسد، ذم الدنيا، ذم المال والبخل، ذم الجاه والرياء، ذم الكبر والعجب، ذم الغرور.

والربع الرابع: يكتنف العشرة الكتب الآتية: كتاب التوبة، الصبر والشكر، الخوف والرجاء، الفقر والزهد، التوحيد والتوكل، المحبة والشوق والأنس والرضى، النية والصدق والإخلاص، المراقبة والمحاسبة، التفكر،

وكتاب ذكر الموت.

وعند قراءة هذا المنهاج عقيب الأساليب الأربعة السابقة ينتبه القارىء إلى أنه تبويب إنتقائي. ما أراد الإمام استغراق أبواب الشريعة جمعاء مثل ما صنع في كتبه في مجال الفقه. إنما انتقى أبواباً وموضوعات معينة من الشريعة الغراء، وانتهج في عرضها أسلوباً غاير به أسلوبه في كتب الفقه. فما هو مجمل ما صنع الإمام وذكر في هذا المنهاج؟

الغزالي هو الذي يجيب ويفصح عن هذا: «فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه. وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهيات. «وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها، وهي مما لا يستغني عنها متدين.

«وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه. وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم الآفات التي عليها تترتب، ثم العلامات التي بها تتعرف، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص. كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار.

«وأما ربع المنجيات فاذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين. وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها، وسببها الذي به تجتلب، وثمرتها التي منها تستفاد، وعلامتها التي بها تتعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغّب ـ مع ما

ورد فيها من شواهد الشرع والعقل». (ولكل ما نقلناه هنا من كلام الغزالي راجع «إحياء علوم الدين» ج ١ ص ٣ ـ ٤).

ونحن نفهم مما تقدم و من تفحص الكتاب كله أن الغزالي قد توفّر على صنيعين جليلين حققهما بمنهاجه الانتقائي الذي انتهجه. أولهما الجمع بين «علم الفقه» و «علم الحديث» جمعاً محققاً بالإكثار من أدلة الآثار (حتى الضعيفة منها في فضائل الأعمال)، وبالتوسع في الأخذ من أبواب (كالرقائق والشمائل) نجدها في كتب الحديث وقد نفقدها في كتب الفقه. والثاني تزويد الناس في مجتمع حضارة الإسلام بكتاب للثقافة العامة في الإسلام جامع وقابل للقراءة والإفادة متصلاً أو على أجزاء. والبديع في الكتاب بعد ذلك كله أنه جامع على جزالة بين ما ينفع جمهور المتعلمين وما ينفع المتخصصين منهم، وأنه كتاب عملي ويري المتثقف بثقافته سبل التطبيق. ويكفي إشارة إلى جودة «الإحياء» ومنافعه في ثقافة الإسلام أن الحافظ العراقي هو الذي عني بتخريج أحاديثه ـ وهو ذاك السند المرموق في علماء الحديث وأحد الحافظين الكرديين الجليلين.

على أن هذه المسالك والمناهج المذكورة لم يكن لينفع سلوكها في مقاصد كتابنا الذي بين أيدينا. فهذا ليس بكتاب في الثقافة الشرعية العامة ولا في تفاريع علم الفقه. إنما هو كتاب ينصب معالم الإسلام في طريق الإسلام لأعمال الروح. وكفى لهذا الغرض أن يطلع القارىء على مجمل أنواع الأعمال التي يحيط بها نطاق الشريعة الغراء، وعلى بعض وجوه الانتقاء من هذه الأنواع بغية إفادة الناس وتثقيفهم في مسار الحياة. ووفت بهذا الورقات القليلة السابقة، ممهدة لما سيأتي من مجمل تقسيمنا للأعمال

تقسيماً وافياً بمقاصد هذا الكتاب.

أعمال الإنسان، مهما تعددت أنواعاً وأصنافاً كمثل ما تقدم، لا تخلو أن تكون من إحدى فصيلتين: ـ

أ ـ أعمال مادية جسمانية تأتي بها الجوارح دونما ظاهر علاقة بأعمال معنوية روحانية.

ب ـ أعمال معنوية روحانية تؤديها قوى روح الإنسان دونما كبير علاقة بالأعمال المادية الجسدية.

وهذا تقسيم منهجي من طراز «أصول الفقه» يعين على فهم القسمين ومعرفة المتداخلات والمتخارجات من أعمال الإنسان الغالب فيها الترابط. وليس بتقسيم من قبيل «المنطق الصوري» يفترض انعزال الأقسام بعضها عن بعض حتى ينفصل قسيم عن قسيم.

وإن لا يكن كذلك فأين من الإنسان عمل مادي جسماني ينعزل انعزالاً تاماً عن الروح حتى ألطف خلجة من خلجاته؟! إن لا تكن حياة لا يكن عمل جوارح؛ وإلاّ يكن روح لا تكن حياة إنسان. وهل نميت عمل جسماني دنيوي؟ لكنّ للإنسان الحي أعمالاً يبرز فيها الجانب المادي من حركات الجوارح؛ وأعمالاً يتجلى فيها الجانب المعنوي من قوى الروح. وعزلة المنطق الصوري غير موجودة في حقيقة الإنسان ـ هذا الإنسان الذي يخلق الربّ جسمه بأسباب من عناصر التراب، ويبدع روحه بسرّ الأمر دونما أسباب. ولله الخلق والأمر جل جلاله وعمّ نواله.

ولذلك كله رتبنا هذا الركن الخاتم من الكتاب على ثلاثة فصول. بيّن

الأول (وهو الثالث عشر في نسق الفصول) مجمل أنواع الأعمال وأصنافها التي يحيط بها الموضوع الكلي العام لعلم الأحكام؛ ونقل منهاجاً انتقائياً يثقف تفصيله الإنسان المسلم بثقافة أعمال النجاح والإخفاق في الدنيا وفي الآخرة على وجه العموم؛ ثم عرض منهاجاً جديداً لقسمة «العمل الصالح» من حيث كونه ركناً من أركان معالم الطريق الروحاني في الإسلام لابتغاء الحياة الخالدة. فأتى الفصل على هذا النحو بما لزم تقديمه للخوض في المعارف المدرجة في الفصلين الأخيرين (وهما الرابع عشر فالخامس عشر) من آخر الأركان.

وسيتناول الفصل التالي (وهو الرابع عشر) أعمال الجوارح المادية من أول القسمين المذكورين آنفاً، مضموماً إليها آراء منقوضة في وجه العلاقة بين الخالق سبحانه وبين عالم المادة.

أما آخر هذه الفصول فيهدي إلى القارئات والقارئين نور أزهار المنقول والمعقول وحق العلم واليقين من عمل الروح وقواه وصلته الوثقى برب العالمين بديع السماوات والأرضين واهب الحياة الخالدة للطيبات والطيبين.

الفصل الرابع عشر
أعمال الجوارح

كان للناس صلاة وصيام قبل الإسلام. وفي الإسلام للمسلمين صلاة وصيام.

وكان للناس أحكام زيجة وأسرة قبل الإسلام. وللمسلمين في الإسلام أحكام زواج وتنظيم أسرة.

وكان للناس قبل الإسلام أحكام المعاملات المالية والتجارية. وفي الإسلام أحكام معاملات التجارة والمال.

وكذلك كان للناس قبل الإسلام أعمال روحانية ورياضات.وفي الإسلام للمسلمين عمل روحي تنظمه شرعة الإسلام. وهٰكذا الشأن في أكثر تصاريف الحياة للأنام.

بيد أن الصلاة والصيام والزيجة والمعاملات والعمل الروحاني في الإسلام، كل هذه لها طابعها المميّز المتميّز في نظامها وأحكامها وآدابها وغاياتها ومقاصدها العلياً ـ وكل هذه طباق الشريعة الغراء الشاملة المستغرقة أحوال الإنسان الخاصة وأحواله العامة في الدنيا وفي الآخرة. والموضوع

الكلي العام للشريعة الغراء هو (كما ذكرنا في الفصل السابق وبادىء هذا الكتاب) عمل الإنسان المكلف ـ سواء كان العمل جسمانياً أو روحانياً أو مركباً منهما.

وعديمة هي في الإسلام أعمال جسمانية غير ذات صلة بالروحانيات ـ اللهم إلا في مجال المحرمات والمكروهات. بل حتى هذه لها صلة. لكنها صلة سلب ومحق. فإن الأعمال المحرمة تميت القلب وتورث العقل الغشاوة والقصور عن فهم الروح ومنازل الروح والحياة الخالدة. ثم إن هذه موصولة الأسباب بالإرادة، والإرادة من أعمال الروح ـ كما تقدم بادىء الكتاب. فلنقبل الآن على شرح أعمال الجوارح، ونعرضها في نبذ مميزات بعناوين.

١
ألتوبة

إذا أراد الإنسان التشرف بالعمل الروحاني، والتشوف إلى نعمى الحياة الخالدة، فالطريق إلى هذا مفتوح له في الإسلام كل الانفتاح. كلنا مقصر تجاه الخالق العظيم ـ جل جلاله وعم نواله. لكن غفرانه أحاط بكل ذنب، ورحمته وسعت كل شيء ـ حتى صار القنوط منها مأثمة كبرى. فسواء كان أحدنا ممن أتى المكروهات، أو ممن ارتكب المحرمات أو تمادى إلى اقتراف الكبائر والموبقات، فليتذكر إن «اللّه» هو خالقه وربه، وإنه به لرؤوف رحيم، ثم ليقرأ قوله تعالى:

ـ «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم».

(الزمر: ٥٣).

ـ «والــذين إذا فعلوا فاحشــة أو ظلمــوا أنفسهم ذكـروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين» .

(آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦) .

ـ «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى» .

(طه : ٨٢) .

وأخرج الترمذي في «الجامع الصحيح» (ج ٢ ص ٢٥٧) : «حدثنا قتيبة حدثنا أبو عوانة عن عثمان بن المغيرة عن علي بن ربيعة عن أسماء بن الحكم الفـزاري قال : سمعت علياً يقول إني كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثـاً نفعني اللّه منـه بمـا شاء أن ينفعني وإذا حدثني رجـل من أصحابه استحلفتـه فإذا حلف لي صدّقته . وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ثم يستغفر اللّه إلا غفر اللّه له . ثم قرأ هذه الآية : «**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا اللّه ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون**» . فإذا ثبت هٰكذا ـ أيها المتطلع إلى حياة الروح ـ فاجتهد بعده في العمل بنوعيه الموجزين في النبذة التالية .

٢
أعمال الإقامة والامتناع

إعلم أن الأعمال على نوعين : أعمال امتناع ، وأعمال إقامة . أولهما كامتناعك عن أن تسرق وأن تكذب وأن تقتل . والثاني كإقامك الصلاة وإيتائك

الزكاة وبرك بوالديك.

وإن أعمال الامتناع صنفان: منه ما يتعلق بمآثم ظاهرة كالتي ذكرناها من السرقة والكذب والقتل؛ ومنه ما يتعلق بآثام باطنة في النفس خفيـة كالنفاق والحسد في نفس المنافق والحاسد. وقد نهانا ربنا عن الآثام الظاهرة والآثام الباطنة بقوله جل شأنه: «**وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون**». (الأنعام: ١٢٠).

وكذلك الشأن في أعمال الإقامة: منها ظاهرة كالصلاة والزكاة والبرّ التي أوردناها مثلاً؛ ومنها خفية كإخلاصك النية لطاعة اللّه سبحانه في دفع الزكاة وسفر الحج وما إلى ذلك.

ونحن نوجز البحث هنا بذكر بعض ما يبطن من أعمال الامتناع المتعلقة بالمآثم المهلكات، وبإجمال القول في بعض ما يتخفى من أعمال الإقامة المنجيات. ومن أراد تفصيل الكـلام في هذه أو تلك فليرجع إلى الأحكام الموزعة في مراجع الشريعة الغراء على الكتب التي أوردنا عناوينها في الفصل السابق، أو ليرجع إلى خلاصاتها المدونة في «إحياء علوم الدين» (ولا سيما ربعي المهلكات والمنجيات) للإمام الهمام علامة الإسلام أبي حامد الغزالي ـ فهذا كتاب في ثقافة الإسلام لا يستغني عنه مسلم ولا راغب في الحياة الخالدة.

وقـد يخـطر بالبـال أن المذكورات هنا لما كانت من البواطن فلماذا أدرجت في هذا الفصل دون الفصل الأخير. واقع الأمر هو أن هذه الخفيات من الأعمال لها متلازمات ونتائج مادية ومن أعمال الجوارح هي معدودة في

حكمة النهي المتعلق بالخفيات. ولقد علمنا من قبل أنّ الباطن والظاهر في الإسلام ليسا بمنعزلين عزلاً تاماً ـ بل هما مترابطان دائماً على درجات متفاوتة من الترابط والتقارب. فآثرنا أن نبحث في هذا الفصل أكثر ما تقترب علاقته بالماديات وأعمال الجوارح، لكيما ينفرد الفصل الأخير بما هو أقرب إلى التمحّض في الروحانيات من الأعمال.

٣
السيئات الباطنة

وقانا اللّه بلطفه شرور هذه المرديات في الدنيا والآخرة، هذه المفسدات مجتمع الإنسان: أفراده وجماعاته وانتظامه الحضاري النافع. هي هذه التي نكتفي هنا باقتضاب منابعها، ونحيل الرفيق القارىء لبيانها الوجيز النافع إلى كتابين للإمام الغزالي هما: «معراج السالكين» و «روضة الطالبين»، وهما من المطبوعات الموجودة في المكتبات العامة وفي سوق الكتب.

المنبع الرئيس هو مجافاة الكتاب والسنة: فمنها يتولد سوء الخلق. وسوء الخلق هيئة نفسانية باطنة تتولد منها السيآت الرئيسة التالية: النفاق، الرياء، الكذب، الطمع، الحسد، العُجب (ومنه الكبر)، الغفلة. ومن كل مأثمة من هذه المآثم الباطنة آثار مادية وأعمال جوارح فيها هلاك الإنسان الفرد وخراب المجتمع. فكم من قتل أفضى إليه طمع، وكم من غيبة أدّى إليها حسد! وكم من مجتمع أفسد أحوالها النفاق والرياء والكبر! وإذا أحببت الوقوف على تفصيلات هٰذه العلل ومداخلها ومخارجها وطرق علاجها فعليك «بربع المهلكات» الذي أشرنا إليه آنفاً من «إحياء علوم الدين».

٤
الحسنات الخوالد

«المال والبنون زينة الحيوة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا». والمنبع الرئيس لكل الباقيات الصالحات هو الاعتصام بالكتاب والسنة: فمنه يتولد حسن الخلق. وحسن الخلق هيئة روحانية في قلب الإنسان تنبعث منها الحسنات التالية: الصبر، الشكر، التوكل، الحب، الذكر، الخوف، الرجاء. وكل هذه الحسنات الخوالد ثابتة بنصوص مبينات من القرآن المجيد والحديث الشريف. فمن أراد فليقرأ كتاب اللّه جل شأنه، ويبحث عن تلكم الأبواب في مجامع السنن، أو ليرجع إلى «ربع المنجيات» من «إحياء علوم الدين» أو إلى الكتابين اللذين ذكرناهما في النبذة السابقة إذا أحب الاختصار والسرعة في الإحاطة.

ونحن جميعاً معاشر أهل الإيمان، مسلمات ومسلمين، مخاطبون بالتزام هذه المحاسن، كما نحن باجتناب تلكم المقابح. خذ الصبر مثلاً، واقرأ له (في سورة البقرة: ١٥٥ - ١٥٧) قوله تعالى: **«ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا للّه وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون»**. وللشكر اقرأ (في سورة النساء: ١٤٧) قوله تعالى: **«ما يفعل اللّه بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان اللّه شاكراً عليماً»**. واقرأ للحبّ (في سورة آل عمران: ٣١) قوله تعالى: **«قل إن كنتم تحبون اللّه فاتّبعوني يحببكم اللّه ويغفر لكم ذنوبكم واللّه غفور رحيم»**.

ثم اتلوا للحسنات وللسيأت قوله تعالى (في سورة آل عمران: ٢٩ -

٣٠) : «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمْه اللّه ويعلمُ ما في السماوات وما في الأرض واللّه على كل شيء قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذّركم اللّه نفسه واللّه رءوف بالعباد»

الخطاب في كل هذه الآيات وأمثالها العديدة في القرآن المجيد موجه إلى الناس المكلفين عامة، غير مخصوص بفئة دون فئة من الناس. كما نحن منهيون عن السيأت فكذلك نحن مأمورون بالحسنات. وهذه الخوالد المذكورة هنا واجبات ينبغي أداؤها والإقبال على التخلق بها. ولذلك سميت مقامات. فأنت إذا أديت واجب الصلاة بضع مرات فقد وفيت بواجب صلواتك المؤداة لكنك لست مقيماً على أداء الصلوات. أما إذا أقمت الصلوات كلها دائماً مواظباً عليها فأنت بعدئذ في مقام الصلاة، مقام المواظب عليها المتخذ إياها عملاً يومياً لا ينفك عنه.

وكالصلاة الحب والشكر. حتى إذا أديتهما بضع مرات تكون قد وفيت بواجبهما للمرات المعدودة حسب. أما إذا جعلت الحب والشكر لخالقك ورازقك ومحييك أمرين تقيمهما وتستقيم عليهما فأنت عهدئذ في مقام الحب ومقام الشكر - جزاك اللّه سبحانه على مقاميك خير الجزاء.

فهذه أعمال روحانية يواظب عليها وتتجدد وقائعها تجدد فيض واستغراق كلما سنحت سوانحها. كمثل الصبر المتجدد فور حدوث البلاء، والشكر المتجدد عند حصول النعم غير المرتقبات.

ومن يفهم ما أسلفْناه يعلم أن ما يقال من كون هذه المقامات مشروعة في الدين لبعض الناس دون بعض، وما يتصور من أنها مواضع مادية عالية في

السماء مفتوحة لقلة ممنوعة على سائر الناس أجمعين، أن ذلك كله راجع إلى فقدان الاستيعاب العلمي لخطاب الشرع وإحلال المتوهمات محل العلم اليقين. أما أن في الملأ الأسفل أناساً يصبرون ويشكرون وأُناساً لا يصبرون ولا يشكرون فالشأن فيه كالشأن في الصلاة والصيام بين من يقبلون ومن يدبرون ـ وفي العمل الإرادي يتأتى الإقبال والامتناع.

٥

رعاية الأعمال

قد علمنا التفاعل الواقعي بين رذائل الأعمال وبين كينونة الهيئة النفسانية السوءى عند الإنسان، كما علمنا التفاعل الواقعي بين فضائل الأعمال وبين كينونة الهيئة الروحانية الحسنى في قلب الإنسان. ولما كان اختيار الأعمال أمراً إرادياً وجب على الإنسان العاقل مجانبة السوءى ورعاية الحسنى. والرب العظيم قد منحنا الإرادة، وأولانا الاختيار، وبلّغنا الرسالة: ـ

ـ **«فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى»**.

ـ **«وأما من بخِل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسره للعسرى»**.

(الليل: ٥ ـ ١٠).

فبعد أداء الفرائض، هذه التي ما اقترب الإنسان إلى ربه بعمل أحب إليه منها، تأتي السنن والمندوبات وأعمال البرّ. ورب نقص في الفرض المؤدى جبرته سجدتان من راتبة، أو إتيان بمكروه دفعه عمل من أعمال

الخير.

فاحرص - أيها المسلم النبيه - على السنن الرواتب مع الواجبات الفرائض، وعلى ما استطعت من أعمال الخير والبر المستحسنة في الشريعة الغراء.

واحرص أن ترافق الصالحين وتوافق الطيبين أولئك السائرين في نهج الدين المبين. واحذر المغافل عن اللّه ولا تكن من الغافلين.

٦

نصف ساعة

الغفلة عن اللّه تعالى مصيبة دهياء تصيب الإنسان في حياته الدنيوية المؤقتة وينساق شرورها معه إلى حياته الأخروية الدائمة. والوقوع فيها مع ذلك أسهل ما يكون إلا إذا انتبه الإنسان على نفسه، فانتبه إلى ربّه، وكرر هذا الانتباه عدة مرات في يومه إن لم يستطع إدامة الانتباه طوال أوقاته. ولعلك تعي من هذه الحقيقة منفعة الإنسان العظمى من توزيع الصلوات المكتوبة على الخمسة الأوقات. ولعلك تفهم أيضاً وجه استحسان السنن والتطوعات. فإن الصلاة تذكر باللّه جل جلاله، ومن يذكر اللّه يرتدع عن الفحشاء والمنكر.

ولما كانت الغفلة علة دهياء وآفة نكراء لزم الإنسان الحصيف أن يستزيد من أسباب الوقاء والشفاء. فلنصف في هذه النبذة مزيداً مما يمنع وينجع، وفي النبذة التالية ما هو أدفع وأنجع.

يومك - أيها الإنسان - نهار وليل، أربع وعشرون ساعة لا حول لك ولا طول في زيادة منها أو نقصان. وأنت تصنع بهذه الساعات كيف تشاء. فهلا

جعلت نصف ساعة منها لربك: لك ثلاث وعشرون ساعة ونصف ساعة؛ ولربك نصف ساعة حسب. قسمة ضيزى، لكنها الحد الأدنى الذي يقدر عليه كل إنسان. عيّن أي وقت تشاء من أوقات فراغك في ليل أو نهار: فاقعد أو اجلس طاهراً مستقبلاً القبلة واقرأ من حفظك كما في صلاة السر «الفاتحة» مرة واحدة، و «آية الكرسي» مرة واحدة، و «سورة الإخلاص» ثلاث مرات؛ فصلِّ على رسول الله ﷺ ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً أو تسعاً كما تشاء؛ فاغمض عينيك (حتى لا تشغلاك) واذكر الله جلّ جلاله بفكرك في رأسك (دونما لفظ ولا كلام) كما تذكر ابنك أو أمك أو أباك؛ وابق ذاكراً ربك شاغلاً فكرك به وحده دون ما سواه إلى آخر الوقت المخصوص ـ النصف الساعة أو نحوه. ثم واظب على هذا الذكر الخفي مرة كل يوم تجد منافع الرحمة والخشوع وانشراح الصدر وقوة الإرادة. وتذكّر قوله تعالى: «**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**». (البقرة: ١٥٢)

هذا للمسلمين كل المسلمين. وللناس كل الناس أن يذكروا اللّه على الوجه الذي وصفنا وإن لم يتلوا ما أسلفنا: عسى اللّه الغفور الرحيم أن يشرح صدورهم للإيمان بالحي القيوم الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وبملائكته وكتبه ورسله دون تفريق بين رسله ولا اغترار بسلطان هذه الدنيا التي يعلم كلنا أنها فانية.

أما السائرون في نهج الروح فهم لا يقتصرون في عملهم الروحاني على النصف الساعة وردها. إن للسائر جلسة خاصة بالنهار بعد صلاة الفجر حتى شروق الشمس، وجلسة بالليل بين صلاتي المغرب والعشاء أو بعد العشاء حينما يفرغ. وإنه يذكر اللّه كثيراً ما بين هٰذين الوقتين أثناء نهوضه

بأعماله الدنيوية، فهو يسعى أن يكون ممن قال فيهم رب العالمين: «. . . **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه وإقام الصلاة . . .** » وإنه إذا شغله عائق عن جلسة عقد الجلسة في وقت آخر. وهو يقرأ في جلساته (مخفتاً كما في صلاة السر) الأذكار والأوراد التي يرشده إليها مرشده العالم مما في الكتاب المجيد والسنة المطهرة. ثم يضيف السائر إلى هذه الأعمال تلاوة القرآن العظيم، ومراجعة الحديث النبوي الكريم، ومطالعة الكتب في ثقافة الإسلام، ومصاحبة المؤمنين الصادقين السائرين لمرضاة رب العالمين. وله إلى ذلك نعمة الختم الشريف.

٧
الختم الشريف

ماذا عساي أقول لك ـ أيها الرفيق القارىء ـ بعد المقال عن الاعتصام بالكتاب والسنة. هما شريعتنا الغراء، وفي الشريعة الغراء تجد كل فضائل الأعمال. وهما منهاج عملنا الروحي، وفي المنهاج كل ما يرفعك إلى الحياة الخالدة في نعيم مقيم. بيد أن الخير يستزاد منه ويعاد في فصول فانظر بادئاً رعاك اللّه إلى هذه الأصول: ـ

ـ **«يا أيها الذين آمنوا اذكروا اللّه ذكراً كثيراً . وسبّحوه بكرة وأصيلاً . هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً»**.

(الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣)

ـ **«أتْلُ ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلوٰة إن الصلوٰة تنهى**

عن الفحشاء والمنكر ولذكر اللّه أكبر واللّه يعلم ما تصنعون» .

(العنكبوت : ٤٥)

- «يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر اللّه ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون» .

(المنافقون : ٩)

- «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدوٰة والعشي يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحيوٰة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً» .

(الكهف : ٢٨) .

- «إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . لتؤمنوا باللّه ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً» .

(الفتح : ٨ - ٩) .

- «سبّح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوّى . والذي قدّر فهدى» .

(الأعلى : ١ - ٣) .

- «فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء اللّيل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى» .

(طٰه : ١٣٠) .

ـ «فاصبر إن وعد اللّه حق واستغفر لذنبك وسبّح بحمد ربك بالعشيّ والإبكار».

(غافر: ٥٥).

هذا بيان القرآن. وليس فوقَ بيان القرآن بيان. فلننظر الآن إلى حديث خاتم النبيين ﷺ كيف يردف الفرقان ويهدينا إلى الأعمال الحسان: ـ

ـ أخرج البخاري في صحيحه (القسطلاني: ج٩ ص ٢٧١): «حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة قال حدثني خُبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي. فقال: «ألم يقل اللّه استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم». ثم قال لي: «لا علّمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد». ثم أخذ بيدي. فلما أراد أن يخرج قلت له ألم تقل لا علمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن. قال: «الحمد للّه رب العالمين. هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

ـ وأخرج البخاري في صحيحه (القسطلاني ج ٩ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥): «حدثنا عمر بن حفص حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا إبراهيم [النخعي] والضحّاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة». فشق ذلك عليهم وقالوا أينا يطيق ذلك يا رسول اللّه. فقال: «اللّه الواحد الصمد ثلث القرآن». [نبّه أبو جعفر محمد بن أبي حاتم، ورّاق الإمام البخاري، على أن ما روى إبراهيم عن أبي سعيد هنا منقطع، وما روى المشرقي متصل.]

ـ وأخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج ١٢ ص ١٠٦): «حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا النضر بن شميل حدثنا عثمان وهو ابن غياث حدثنا أبو عثمان عن أبي موسى الأشعري قال قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدّلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال على كنز من كنوز الجنة». فقلت بلى. فقال: «لا حول ولا قوة إلا باللّه».

ـ وأخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج ١٢ ص ٨٢): «حدثنا أمية بن بسطام العيشي حدثنا يزيد يعني ابن زريع حدثنا روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جُمْدان فقال: «سيروا هذان جُمْدان سبق المفرّدون». قالوا وما المفرّدون يا رسول الله. قال: «الذاكرون اللّه كثيراً والذاكرات».

ـ وأخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج ١٢ ص ١٠١): «حدثنا محمد بن مثنى وابن بشار قالا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال سمعت أبا إسحاق يحدث عن الأغرّ أبي مسلم أنه قال أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون اللّه عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم اللّه فيمن عنده».

ـ وأخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج١٢ ص٩٢ـ٩٤): «حدثنا محمد بن حاتم بن ميمون حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن للّه تبارك وتعالى ملائكة سيارة فُضُلاً يبتغون مجالس الذكر. فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم وحفّ بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا. فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء. قال

فيسألهم اللّه عز وجل وهو أعلم بهم من أين جئتم. فيقولون جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبّحونك ويكبّرونك ويهلّلونك ويحمدونك ويسألونك. قال وماذا يسألوني. قالوا يسألونك جنتك. قال وهل رأوا جنتي. قالوا لا أي رب. قال فكيف لو رأوا جنتي. قالوا: ويستجيرونك. قال وممّ يستجيروني. قالوا من نارك رب. قال وهل رأوا ناري. قالوا لا. قال: فكيف لو رأوا ناري. قالوا ويستغفرونك. قال[أي الرسول ﷺ] فيقول[الرّب جل جلاله] قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا. قال يقولون ربّ فيهم فلان عبد خطّاء إنما مرّ فجلس معهم. قال فيقول وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

من هذه الأصول الراسخة، مضمومة إلى آيها آية الصلاة والتسليم (التي تلوناها في الفصل الثاني)، استنبط اسلافنا العلماء الصالحون المرشدون أعمال «الختم» الشريفة التي هي جملة من الصلاة والتسليم والذكر والتسبيح والقرآن المأمور بها آناء الليل والنهار وأدبار السجود. ويقام بها على النسق التالي: ـ

ـ يتخذ المؤمنون الحاضرون مجلسهم في حلقة فيها تتساوى المجالس، ويستشعرون بأنهم الساعة مقبلون على ذكر اللّه جلّ جلاله. وإذا تمت الحلقة نادى مقيم الختم الخاشع مسمعاً الحاضرين: «أستغفر اللّه، أستغفر اللّه، استغفر اللّه العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين». عندئذ يغمض الحاضرون أجفانهم ليتخلصوا من شواغل الأعين، هذه التي تلهي، فيتمحّضوا في ذكر الله تعالى بأفكارهم.

ـ وسرعانما يسمعون صوت مقيم الختم ينادي: «الفاتحة المباركة».

فيقرأ كل واحد من الذاكرين سورتي الفاتحة والإخلاص مرة واحدة على إسرار وإخفات كما في صلاة السر غير مسمع أحداً. يُتم هذه القراءة.

ـ فيسمع صوت المقيم يعود ينادي هذه المرة: «الصلوات المباركة». فيقول كل واحد مخفتاً كما في القراءة السابقة وعشر مرات: «اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

ـ فيعود صوت المقيم لينادي: «لا حول ولا قوّة إلا باللّه». فيقرأ كل حاضر مخفتا كما وصفنا هذه التسبيحة عشر مرات. وما إن يتمها حتى يعود النداء بها كرة أخرى، فيقرأ عشراً مرة أخرى. وهٰكذا يسمع النداء خمس مرات، فيتم لهم التسبيح خمسين مرة في مجموعها.

ـ فينادي المقيم: «الصلوات المباركة»، فيصلي ويسلم الذاكر عشراً كما وصفنا وكما بدأ. فينادي المقيم: «الفاتحة المباركة». فيقرأ الذاكرون مثلما قرأوا عند البداية.

ـ ثم تحل فترة صمت مطبق تستمر دقائق ليس فيها من المقيم نداء ولا ممن سواه قراءة. وخلال هذه المدة يتمحض كل مشارك في ذكر اللّه تبارك وتعالى بكل فكره أو قلبه على مقدار طاقته واستعداده ومنزلته في مزاولة الذكر القلبي دونما لفظ ولا كلام نفس.

ـ أما مقيم الختم فإنه يقرأ مخفتاً خلال تلك المدة نصاً محفوظاً فيه الحمد والشكر لرب العالمين على توفيقه إياهم لذكره، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعباد الله الصالحين، وفيه التضرع إلى الله سبحانه لقبول الختم والتلاوة ولا يصال ثوابها إلى روح رسول اللّه وآله وأصحابه وأوليائه السلف الصالحين العلماء العاملين المرشدين وإلى آباء حاضري الختم وأمهاتهم

وسائر المؤمنات والمؤمنين ـ والإهداء طبق مذهب الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه في وصول الثواب من أعمال الخير المهداة إلى الأحياء والأموات. وما إن يفرغ المقيم من عمله هذا حتى ينادي: «آمين والحمد لله رب العالمين».

ـ عندئذ يتلو من يجيد ويزيّن التلاوة منهم عشراً من القرآن المجيد. وبه يتم «الختم» وينتهي.

هذا عملٌ ختمٌ، أي مختوم في كل أجزائه بمطابقة أوامر الكتاب والسنة والوفاء بواجب اتباعها.

وإنا وأيم الحق من الداعين إليه الناس أجمعين، ولا سيما أصحابَ العمل الروحي، ومشايخ طرق الصوفية ـ عسى اللّه البرّ الرحيم أن يوفق المسعى إلى وحدة العمل الروحاني عند المسلمين بالاجماع على اتباع الكتاب والسنة، والامتناع عن كل بدعة وعمل غير مندوب إليه في الشريعة الغراء. ومتى سرت نفحات الوحدة الروحانية بشميم الإسلام تارة أخرى وجدنا المسلمين من حول الأرض مؤمنين، وألفينا الإنسان إنسان الإسلام، والمجتمع مجتمع الإسلام، والعزة عزة الإسلام، والدولة دولة الحضارة الإسلامية العظمى.

٨

فضائل ورذائل

أمرنا الرب العظيم ـ جلا جلاله وعم نواله ـ بالأعمال الفضائل، ونهانا عن الأعمال الرذائل. أمرنا ونهانا لما بين الأعمال ونفس الإنسان من تفاعل، ولما بين الإنسان الفرد ومجتمع الناس من تأثير وتأثر وتعامل. فإليك جملتان

أخـريان من صنفي الأعمـال تزيداننا ثقافة المقابلة والموازنة، فالانتباه إلى عوامل الخراب من عوامل البناء في مجتمع الإنسان. ولنقدم الفضائل: ـ

١ ـ **الاستعانة باللّه**: أخرج الترمذي عن ابن عباس قال «كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام أعلمك كلمات. إحفظ اللّه يحفظك احفظ اللّه تجده تُجاهك. إذا سـألت فاسأل اللّه. وإذا استعنت فاستعن باللّه. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك. رفعت الأقلام وجفّت الصحف». (انظر «التاج الجامع للأصول» ج ٥ ص ٢١٢).

٢ ـ **إمـاطة الأذى**: أخرج مسلم وأبو داود عن عائشة أم المؤمنين عن النبي ﷺ قال: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مَفْصِل. فمن كبّر اللّه وحمد اللّه وهلل اللّه وسبّح اللّه واستغفر اللّه وعزل حجراً أو شوكة عظمـا عن طريق النـاس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثـلاثمـائة السُّلامى فإنه يمشـي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار». (انظر «التاج الجامع» ج ٥ ص ٢١٨).

٣ ـ **الكياسة**: أخرج الترمذي وأحمد بن حنبل عن شدّاد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتْبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأماني». (انظر «التاج الجامع» ج ٥ ص ٢١٢). ولتخريج هذا الحديث مفصلاً راجع الفصل الخامس عشر، ص ٢٨٩.

٤ ـ **السلام**: «أخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أُعبدوا الرحمن وأطعموا الطعام وأفشوا السلام تدخلوا الجنة بسلام». (انظر «التاج

الجامع» ج ٥ ص ٢٤٥).

٥ ـ **المصافحة**: أخرج أبو داود عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا اللّه واستغفراه غفر لهما». (انظر «التاج الجامع» ج ٥ ص ٢٥٧).

٦ ـ **الأدب والأناة**: أخرج الترمذي عن زارع وكان في وفد عبد القيس قال لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد رسول اللّه ﷺ ورجله وانتظر المنذر الأشجّ حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه ثم أتى النبي ﷺ فقال له: «إن فيك خصلتين يحبهما اللّه الحِلم والإناءة». قال يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم جبلني اللّه عليهما. قال «بل اللّه جبلك عليهما». قال الحمد للّه الذي جبلني على خلتين يحبهما اللّه ورسوله». (انظر «التاج الجامع» ج ٥ ص ٢٥٩).

٧ ـ **التوقير والرحمة**: أخرج الترمذي عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ قال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقّر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر». (انظر «التاج الجامع» ج ٥ ص ١٧).

وجزى اللّه عنا رسوله خيراً، فقد ميّز لنا فضائل الأعمال عن رذائل الأعمال. وقد ذكرنا من تلك جملة، ونذكر من هذه جملة: ـ

١ ـ **الغيبة**: **«يا أيها الّذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا اللّه إن اللّه تواب رحيم»**. (الحجرات: ١٢).

٢ ـ **الضرر**: أخرج الترمذي عن أبي بكر (الصديق) عن النبي ﷺ قال:

«ملعون من ضارّ مؤمناً أو مكر به». (انظر «التاج الجامع» ج ٥ ص ٢٣).

٣ ـ الفحش: أخرج الترمذي في «الجامع الصحيح» (ج ٤ ص ٦٣٢): «حدثنا ابن أبي عمر حدثنا عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مَمْلَك عن أمّ الدرداء عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن اللّه ليبغَض الفاحش البذيء».
ثم انظر أيّ فحش وبذاءة أقبح من أن تقول لمسلم «أنت مشرك» أو «أنت كافر» لمجرد أنه يخالفك الرأي في أمر ديني أو مسألة شرعية ـ ولا سيما إذا كان مبعث كلامك الفاحش هذا مسعاك في تفريق شمل المسلمين.

٤ ـ القذف: أخرج الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي عن ثابت بن الضحاك أن رسول اللّه ﷺ قال: «... من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة. ومن لعن مؤمناً فهو كقتله. ومن قذف مؤمناً بكفر فهو كقتله». (انظر «التاج الجامع» ج ٥ ص ٣٦).

٥ ـ الكبر: أخرج مسلم والترمذي عن عبد اللّه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال: «إن اللّه جميل يحب الجمال. ألكبر بطر الحق وغمط الناس». (انظر «التاج الجامع» ج ٥ ص ٣٢).

٦ ـ الظلم: أخرج الشيخان والترمذي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة». (انظر «التاج الجامع للأصول» ج ٥ ص ١٩).

٧ ـ كذب الحكام: أخرج مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ وملك كذاب وعائل مستكبر». (انظر «التاج الجامع» ج ٥ ص ٣٢).

هذه رذائل. والشيء بالشيء يذكر. فلنذكر هنا رذائل أفكار جمعها الوصف وفرّقها عن نهج الإسلام انحرافها عن الشريعة الغراء. تلك هي نحلة «الحلول» ونحلة «وحدة الوجود». ومقالنا عليهما في نبذتين منفصلتين.

٩
نحلة الحلول

هذه ذات شعبتين: الأولى مزعمة أن الله ـ تعالى وتقدس وتنزه عن هذه المزاعم ـ حالّ في أعيان معينة محددة كموجودات أرضنا التي نعيش عليها عيشتنا الدنيا ـ سواء كان العين المعبود إنساناً أو حيواناً أو جماداً. والثانية مزعمة أن الله سبحانه حال في موجودات الطبيعة جمعاء؛ وهذه ترتد إلى «وحدة الوجود» فنذكرها عند نحلتها. فلنخصص المقال هنا بالمزعمة الأولى، مكتفين فيه عن الإسهاب باختصار فصل الخطاب.

مجمع جوامع هذه المعبودات من دون الله هو الدين المعروف بلقب «شنتو» وهو الدين الرسمي والشعبي لدولة اليابان الصناعية المتقدمة اليوم. وتضاهيه الديانة الهندوسية من وجوه عدة. المهم أنك تجد في هذه الديانات تعدد الآلهة ومنها الأوثان والأصنام والأرواح والإنسان وقوى طبيعية. والأهم أنك تجد فيها الاعتقاد بحلول إلّه الكون في هذه المخلوقات. وقصص سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ صريحة في «سورة الأنبياء» في تصوير عبادة الأصنام آلهة، ورامزة في «سورة الأنعام» إلى أجواء الضلال في عبادة ظواهر معينة من الطبيعة.

ومن الأعيان المعينـة شخص إنسان. أجل، لقد عُبد الإنسان إلَهاً، ولا يزال يُعبد إلَهاً في عصرنا الراهن. وهذا هو السرّ في أن القرآن الكريم يستعيد لهذه الضلالة الفكرية والعملية صوراً عديدة بعبارات متنوعة في سور متعـددة. وإن من قديم أمثلتها عبادة العزيز وفرعون، وهذه وثيقة الصلة ببني إسرائيل.

وأشد ما في هذه النحلة خطورة فكرة الأبوة والبنوة والحلول في حق اللّه ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً. لقد زعم اليهود أنهم أبناء الله المتعالون على سائـر بني البشـر، ولا يزالون يزعمونه. ولقد عبد اليهود الأوثان حتى تأريخ أسرهم البابلي، ولم تتم لهم العودة إلى مفهوم نبي اللّه الكليم ـ عليه السلام ـ إلا بعد ذلك التأريخ. و«العهد القديم» شاهد على ذلك. (راجع سفر الملوك الثـاني، الفصل ٢١). ولقد «**قالت اليهود عزيـر ابـن اللّه وقالت النصارى المسيـح ابن اللّه**. . .» (التـوبـة: ٣٠). وإن أوضـح صورة لاعتقاد حلول «الآب» في شخص «الابن» هي تلك التي اتخذت صلاة للكنيسة الأنكليكانية فجعلت صلاة افتتـاح للدروس اليومية في المـدارس الابتـدائية وغيرها في المملكة البريطانية. وهذا نص الصلاة مترجماً إلى العربية: «أنا أؤمن بأن اللّه أظهر نفسه للجنس البشري على شكل لحم ودم فصار شخص عيسى المسيح».

ولا فرق بين اعتقاد حلول ذات اللّه في شخص سيدنا عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وبين اعتقاد حلول الإله في أيّ إنسان آخر، سواء كان هذا شخصاً مثل «كرشنا» أو حفيداً من أسرة آلهة كإمبراطور اليابان، أو رجلاً في ديار المسلمين اختـل توازنه الفكري وتخبّط عقله والتبس عليه ما ليس من الإسلام في شيء بما ظنه هو من الإسلام. وأشد تخبّطاً من مثل هذا، وأغلظ

منه إساءة إلى الإسلام ومجتمع المسلمين، هو ذاك الذي يقذف الإسلام والمسلمين بافتراء أن التصوف الإسلامي إنما هو ذاك الذي زعمه أو ادعاه مثل ذلك المتخبط ـ وهو بهذا إنما يسير على الخطط المرسومة من أساطين الدجل والكفر والتبشير والاستعمار للعمل على تخريب المجتمع الإسلامي وتقويض ما بقي من حضارته والقضاء على كل فكر نيّر نابض بروح الوحدة الإسلامية الكبرى. **«ومن أظلم ممن منع مساجد اللّه أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم»**. (البقرة: ١١٤).

فأما الإسلام عقيدته الإلهية وطريقته الروحانية فقد عرضناهما في هذا الكتاب إجمالاً أو تفصيلاً من أوله إلى آخره. ولنا فوق ذلك من «سورة الإخلاص» و «آية التنزيه» أفضل إيجاز وأتم بيان. ونشهد أن لا إله إلا اللّه الذي **«ليس كمثله شيء»** و **«لم يكن له كفواً أحد»**.

ثم اعلم أن مزعمة الحلول مبنيّة على الأوهام فلم يتوفر لها قط دليل معقول. أما بطلانها فقد انتهضت له أدلة وبراهين عقلية عديدة ذكرها العلامة التفتازاني في «شرح المقاصد» (ج ٢ ص ٦٨ ـ ٦٩). ويكفينا هنا أن نعلم أنه لو حل في جسم إنسان على ما زُعم فإنه إما أن يكون حالاً في ذلك الجسم كله أو في جزء منه دون جزء. فإذا قيل الحلول في كله اقتضى ذلك أن يكون ذات الإله قابلاً للقسمة، وهذا يناقض الألوهية وينافيها، فيتحتم الجزم إما بأن الحالّ ليس هو اللّه سبحانه أو بأن الحلول ممتنع أصلاً. أما إذا قيل الحلول هو في جزء من ذلك الإنسان، دون كله، فلا بدّ لهذا القائل من ادعاء كون الجزء المحلول فيه غير قابل للقسمة أبداً، وإلا عاد عليه لزوم الإنقسام بإبطال

مدعاه كرة أخرى.

فانحصر الإدعاء في كون الحلول في جزء واحد غير قابل للتجزئة، أي جزء لا يتجزأ، وعلة انحصار الحلول فيه كونه غير قابل للانقسام كما هو ظاهر. فنقول: الجزء الذي لا يتجزأ إنما هو من الأجزاء «الدوذرية» للذرة. ولما كانت حقيقة هذه متماثلة في المخلوقات الطبيعية جميعها المؤلفة من الذرات، على ما هو مقطوع به في علم الفيزياء الذرية، وكان اختصاصها بالمحليّة راجعاً إلى انعدام التجزئة ليس إلا، تحتم انتقاض مزعمة الحلول في ذلك الإنسان وحده دون غيره ـ لجواز الحلول عندئذ في جذع نخلة وقوام نحلة، وهذه النتيجة تضادد ما زعمه صاحب نحلة الحلول. **«أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكّرون»**. ! (النحل: ١٧). لكن لننظر في تربها الأخرى، نحلة وحدة الوجود.

١٠
وحدة الوجود

وهذه ذات ثلاث شعب: أ ـ أن اللّه تعالى حال في موجودات الطبيعة كلها دون استثناء حلولاً ذاتياً بحيث اتحد الحال والمحلول فيه اتحاد ذات واحدة. ب ـ أن الموجود بالذات إنما هو واحد هو اللّه تعالى وحده دون موجودات الكون هذه التي ليس لأعيانها ذوات موجودة وإنما تتشخص بالأعراض والكيفيات الطارئة وذاتها هو هو ذات اللّه تعالى. ج ـ أن الكون المادي هو الموجود الوحيد الأزلي الأبدي السرمدي يجدد أبعاض ذاته بذاته تضمحل وتتجدد.

الشعبة الأولى منتقضة بالبراهين التي أوردناها في النبذة السابقة في شأن مزعمة الحلول. إذ أن الوارد على الحلول في أجزاء من الشيء وارد على الحول في كله من باب أولى، وتسمية زعم الحلول في الكل باسم وحدة الوجود لا يغير من الحقيقة شيئاً.

الشعبة الثانية سداها ولحمتها توهمات باطلة إذ لم يستقم لها دليل مطلقاً، لا من المعقول ولا من المنقول. وتدحضها أدلة وبراهين جدّ كثيرة. منها أنها تقتضي طريان الأعراض والكيفيات على اللّه تعالى ـ وهذا يناقض الألوهية والسرمدية. ومنها أنها تستلزم تجزئة الإلّه أو تعدده، حيث الإلّه في تفاحة إما أن يكون عين الإلّه في سيارة أو إلّهاً آخر ـ فإن قيل هو عينه تجزأ الإلّه ذاتاً بين السيارة والتفاحة، وإن قيل هو غيره تعددت الآلّهة تعدداً لا حصر له. ومنها أن توهمات الشعبة تفضي إلى تأليه كل شيء من موجودات الطبيعة، ومن ثم إلى لزوم العبادة والسجود لزهرة ولبعرة متعددتين بالأعراض متحدتين بذاتهما الإله ـ أعاذنا اللّه بلطفه من مثل هذه العبادة والجاهلية. وهذا المقدار يغني عن تسويد الصفحات بمزيد.

أما الشعبة الثالثة والأخيرة فأساسها نفي وجود اللّه تعالى وإقامة العالم المادي مقامه موصوفاً عند أصحابها بالأزلية والأبدية والخلق. فالمادة هي الموجودة ولا موجود غيرها وهي التي تغيّر نفسها وتجدّد ـ ولا بأس عندهم بأن هذه المادية الجدلية تفضي لا محالة إلى تناقض الحكم بأن المخلوق هو خالق نفسه. والفرق بين الشعبتين الأخيرتين أن الثانية تؤمن بموجود خالق عالم وأن الثالثة تزعم الخلق والإبداع لموجود لا علم لأصله ولا حياة، بل تغرق في المزاعم إلى حد القول بأن المادة الميتة الجاهلة هي التي خلقت

الإنسانِ الحيّ العالم. وقد فصلنا مجاهل هذه النحلة وأشباهها، وبيّنا افتقارها إلى سند من علم ودليل، وعرضنا أدلة العلوم وبراهين العقول في ثبوت ما يخالفها وينفيها، في كتاب «الرفيق الأعلى» من مجموعة «مجمع الأشتات». فليراجعه القارىء الكريم إذا رغب.

وقد حاول بعضهم أن يجد من المنقول دليلاً يتعكز عليه لترويج النحلة الثانية، كما حاول غيره التعكز عليه لترويج النحلة الثالثة، أي النحلتين المعروضتين في الشعبتين الأخيرتين. أما صاحب الثانية فلإيمانه باللّه يصح منه الاستدلال بمنقول من نبيّ. وأما صاحب الثالثة فاستدلاله به إنما هو اقناعيّ من قبيل اللجوْ إلى ما يقبله الخصم وإن كان المستدل غير مؤمن به ولا معتقد صحته. المنقول هو الحديث الشريف الذي أخرجه الشيخان وأبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال اللّه تعالى يسبّ بنو آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار». (راجع «التاج الجامع» ج ٥ ص **٢٩٣**). ويبدو أن المستدلين فهموا من كلمة «الدهر» معنى الكون الموجود المتقادم، أو شيئاً من قبيل هذا لم يتبيّنوه. وهذا غلط فادح.

لكلمة «الدهر» بضعة مفهومات. منها أنها في أصلها اسم معنى، لا اسم ذات، ومفهومها الأزلية والأبدية معاً. فقولنا اللّه هو الدهر معناه اللّه هو السرمدي، أي هو الأزلي الأبدي لا أول لوجوده ولا آخِر. كما نقول اللّه هو العدل والحق والسلام. وصحّت اسماً وصفياً للذات بناء على اتصاف الذات بذلك المعنى الأصل، مثلما صحّ هو الرحمن الرحيم القدوس. وهذا حصراً هو المعنى المراد في نص الحديث الشريف الذي نقلناه. ولهذا قال الفيروز آبادي ـ رحمه اللّه بلطفه ـ في «القاموس المحيط»: «الدهر قد يعدّ من

الأسماء الحسنى».

وقد وردت الكلمة في اللغة بمعان اخر منها العادة، والنازلة، والأمد المحدود، والزمان الطويل. وأيضاً وردت اسم ذات لرجل في التأريخ ولواد باليمن. ولا يصح ولا يجوز إطلاق لفظ بهذه المعاني في حق اللّه سبحانه وتعالى ـ كما لا يخفى. وقد يكون اشتراك المعاني هو الذي أدى إلى أغلاط الأفهام في معنى هذه الكلمة. بيد أن كثرة المعاني من سعة اللغة وثرائها وكمالها، والخطأ في فهم النص مبعثه قلّة العلم ونقصانه عند من يخطىء ـ وجلّ من لا يخطىء.

على أن في عصرنا هذا، عصر تخلف المجتمع الإسلامي، أناساً يتجاسرون بالخوض في نصوص الكتاب والسنة دونما كفاءة استعداد للتخريج والاجتهاد ولا كفاية علم بعلوم الكتاب والسنة. ولهؤلاء يتيسر المال فيطبعون وينشرون ما لا يفقهون؛ ومغبة الخلط والخطأ والضلة واقعة بكثير ممن يقرأون كتبهم من المسلمين. وأضيع من هؤلاء المؤلفين أولئك الذين يستجيزون الاجتهاد في أحكام الدين دونما أثارة من علم. في كتاب من هذه وقعت على هذه العبارة: «وإن رسل اللّه إخوة لا نفرق بين أحد منهم، ودين اللّه واحد مواز في سباقه مع العلم والزمن. على أن الزمن هو الدهر، والدهر هو اللّه كما جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة. . .» هٰكذا. ونعوذ باللّه من ضلالة القول بأن الزمان هو اللّه ـ تقدس خالق المكان والزمان وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. ونرى في القيلة «وحدةَ وجودٍ» صغرى ـ سواء أدرك قائلها ذلك أم لم يدرك. ولقد ظللنا في هذا الفصل نتنقل بين الصالحات والطالحات من الأعمال، فلنجعل ختامه بنبذة في الباقيات الصالحات.

١١
السمع والقلب

ما أقـرب السمع إلى القلب وما أقرب القلب إلى السمع! حاسة من حواس الجسد الظاهرة، وقوة من قوى الروح الباطنة، بينهما أبلغ ما يكون من صلات التأثير والتأثر. أرأيت كيف تهزّك النغمات الطيبة من صوت جميل: يثيرك ما يبعثه من إثارة، ويشجيك ما يبثه من شجو. والدنيا بعد ذلك حِوَل، وليس ينفع للعقبى إلا الطيبات من النوايا والعمل.

أخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج ١١ ص ٤٣٠): «حدثنا عمرو الناقد حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وعند السماع، أي الاستماع إلى أصوات بألحان، يعمل القلب وتعمل الأذنـان. واختلف فيه العلمـاء بين مجيز ومانع. وتطرف من الفريقين من استحلى التطرف. ولسنا نريد هنا استعراض أدلة الفريقين ولا نرى في التطرف خيراً. وما بغيتنا إلا القول الفصل نقوله في إيجاز ووضوح.

لقد ثبت في السنة النبوية أن رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وآله وأصحابه وسلم ـ استمع إلى الحداء. وثبت أنه استمع إلى «الموشح» الجميل الذي استقبلته به في «طيبة» صبية آل النجار. وثبت أنه استمع إلى القرآن يرتل له بألحـان فتـرقـرت دمـوعه المباركة على لحيته الشريفة. وثبت أن أبا موسى الأشعري كان يتلاحن في تلاوة القرآن. وثبت أن الرسول أثنى على تلاوته

وأصواته بأنه أوتي مزماراً من مزامير آل داوود. وثبت أن أصحاب رسول اللّه كانوا يستمعون إلى هذه الأصوات والألحان. وهل كان في هذه المسموعات كلها غير ذكر اللّه ورسوله والنداء الحق من أصوات جميلة بألحان طيبة. وهل كان من المستمعين إليها غير الخشوع للّه تبارك وتعالى وذكره وفكره والشوق إليه والحضور معه وفيضان المحبة الإلّهية تبهر قلوبهم وتغرقهم إغراقاً. هذا هو السماع المشروع المحمود الممدوح الذي كل ما إليه فهو خير.

وإن من السماع، كما في زماننا، استماعاً إلى خمريات مرغّبة في الخبائث، وغراميات مشوّقة إلى الخنى من وصف النهود المتبرجة والأرداف المجسّمة والأفخاذ المعرّاة والقول المعسول المغري بعسيلة العمل. فقل لي، بربك، هل في هذه المحرمات كلها ما يخفى على أحد تحريمه. أما من لا يعتقد التحريم أو لا يرتدع عن المحرمات فليفعل ما تسوقه إليه نفسه، فقد تبين الرشد من الغي فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليفجر.

هاتان هما الغايتان. إما إلى جنبة الشيطان. أو إلى جنة الرحمن. وبين النهايتين وقائع مختلفات لا يتسنى فيها كلها إقرار حكم واحد. بل ينبغي على الفقيه دراسة كل واقعة على حدة فالتوصل إلى حكمها الشرعي. لكنا نستطيع أن نقول للمسلم: كن أنت المفتي في سماعك؛ فإذا وجدت ما تسمع مباحاً شرعاً وباعثاً إياك على خشوع القلب فانبعث إلى رحمة قلبك؛ وإذا وجدت ما تسمع مراحاً للنفس الأمارة بالسوء فانقطع عن مشتهى نفسك؛ فإن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

صادفت في مسار الحياة الدنيا رجلين: راشداً وغوياً. أما الثاني فكان يستعذب أصوات نفر من قراء القرآن المصريين فيستعيد قراءاتهم المسجلة

عنده على أنها أغان تغنّى، وهو غير عابىء بمعاني القرآن ولا مؤمن بأنه كلام اللّه عز وجل. لقد صرح على مباهاة بأنه دهري لا يؤمن باللّه.

وأما الأول فإذا انساب إلى مسمعه صوت شجي يتغنى بأبيات من النسيب الرزين النزيه كبّر ثم أخبت ثم فاضت عيناه لذكره اللّه ـ جل جلاله وعم نواله. فهل هٰذان يستويان مثلاً؟!

على أنا لم نقف في مدارك الشريعة الغراء على تحبيذ لنمط مما عرف بالشعر الصوفي يشذ عن اللغة والأدب مفاهيمهما ودلالاتهما البيانية ويرمي إلى اصطناع مقاصد باطنة ليست تلتقي مع لغة الشعر لا معاني ولا بياناً.

فأما تضافر الأدلة الشرعية فلتحبيذ التغني بتلاوة القرآن الكريم في المساجد وفي البيوت والاستماع إليه والإنصات له على خشوع وحضور قلب. ويلتحق به التغني بقصائد المناجاة والتضرع إلى اللّه تبارك وتعالى وتحميده وتمجيده، وبشعر التعزير والتوقير والثناء في حق رسول اللّه ـ ﷺ ـ وحق الانتصار والتأييد للإسلام الذي ارتضاه رب العالمين ديناً للعالمين. وقد بينا أحكام الشريعة في التلاوة والترتيل والتغني والتحبير في بحث مفصل ملحق بآخر «مجمع الأشتات»، فاقرأه ينفعك كثيراً.

وأما المناجاة فقد اخترنا لها هنا أنموذجاً يحول دون أيّما إلتباس في المراد بها. هو قصيدة «إنابة ومناجاة»: أصلها للإمام التقي الهمام محمد بن إدريس الشافعي ـ رضي اللّه عنه ـ، وتشطير أبياتها وبيتا مقطعها لمؤلف هذا الكتاب. فإليكها أيها الرفيق القارىء، لعلها تشدوك وتشجوك: ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنابة ومناجاة

«قلبي برحمتك اللهم ذو أنس» … بفيض نور من التوحيد ملتمس
وجهت وجهي إليه عائذاً دنفاً … «في السر والجهر والإصباح والغلس»
«وما تقلبت من نومي وفي سنتي» … ولا تنشدت جهاراً أو على همس
ولا تنفس صبح من مشارقه … «إلا وذكرك بين النفس والنفس»
«لقد مننت على قلبي بمعرفة» … هدت لحب من العلياء مقتبس
حتى تجليت فالأكوان شاهدة … «بأنك الله ذو الآلاء والقدس»
«وقد أتيت ذنوباً أنت تعلمها» … آتيه جهلاً وآتيه على هوس
وأنت في العفو لم تقنط لخاسرف … «ولم تكن فاضحي فيها بفعل مسي»
«فامنن علي بذكر الصالحين ولا» … تقدر عطائي على مقدار ملتمسي
وشفع المصطفى يوم الجزاء ولا … «تجعل علي إذاً في الدين من لبس»
«وكن معي طول دنياي وآخرتي» … وغافر القلب واختم بالرضا نفسي
وراعني يوم ترحالي إلى أبد … «ويوم حشري بما أنزلت في عبس»
وأعمر فؤادي يتيماً لا يقومه … إلا الوداد الذي ترضى لمؤتنس
وصل ربي على الهادي وعترته … وصحبه الصحب في البأساء والعرس

هذه. وقد بحثنا في أنواع الأعمال كثيراً في الفصول السابقة. فآن الأوان للانسياب إلى عمل القلب، هذا الذي نتوجه إليه في آخر الفصول، وهو البديع الفرد من هذا الكتاب.

الفصل الخامس عشر
أعمال القلوب

أغنتنا الفصول السابقة إيماناً بالروح، ومعرفة بأن الإسلام دين روحاني سماوي، وعلماً بأن الروح ذو قوى متميزات.

وهذا الفصل يبين في أوائله أحاد قوى الروح المنصوص عليها في الكتاب والسنة، ثم يعرُج منها إلى أعمال القلب وصلاته الوثقى بخالق السماوات والأرضين ـ جل جلاله وعمّ نواله. وإن معارف القلب وصلته بالرب هي المقصد الأسنى المبتغى من سلوك الطريق الذي وضّح هذا الكتاب معالمه.

هذه القوى ثلاث: الفكر، والنفس، والقلب. والثلاث القوى متمايزات ومتفاعلات في واقع الأمر ـ على ما سنرى.

«الفكر»: قوة روحانية بها يدرك الروح ويعلم ويتأمل ويعقل ويفهم ويتخيل ويتذكر ويستنتج. ومظهر ارتباطها بالجسد الترابي هو الدماغ. وفي آيات عديدة من الكتاب المجيد وردت مشتقات «الفكر» الفعلية للدلالة القطعية على وجود الفكر والمفكّر. ومنها نتشرف هنا بتلاوة سبع آيات: ـ

ـ «ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدوداً . وبنين

شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآيتنا عنيدا . سارهقه صَعوداً . إنه فكّر وقدّر . فقتل كيف قدّر . ثم قتل كيف قدّر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر» .

(المدثر: ١١ ـ ٢٥) .

ـ «والذين كذبوا بأياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأُملي لهم إن كيدي متين . أولم يتفكّروا ما بصاحبهم من جِنّة إن هو إلا نذير مبين» .

(الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٤) .

ـ «أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق اللّه السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمّى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون» .

(الروم: ٨) .

ـ « . . . وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون» .

(النحل: ٤٤) .

ـ «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء

للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون».

(النحل: ٦٨ - ٦٩).

- «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون».

(الروم: ٢١).

- **«إنما مثل الحيوٰة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازَّيَّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون».**

(يونس: ٢٤).

وردت مشتقات الفكر في هذه الآيات لعدة معان: للعلم بالشيء كما في الآية الثانية في تتابعها هنا؛ وللتأمل والتدبر كما في الآية الأولى؛ وللتفكر والاستنتاج كما في الثالثة: وبمعنى يعقلون كما في الرابعة؛ وبمعنى الاستدلال كما في الآيتين الخامسة والسادسة؛ وللتذكر والتخيل كما في الآية السابعة والأخيرة. وهذه المعاني راجعة إلى الإدراك والعقل، وهما راجعان إلى العلم. فكأنّ هذه ألوان من العلم دلت الآيات المتلوة ونبّهت عليها. ومن ثَمّ تمّ عليها بناء تعريفنا المتقدم «للفكر» اتباعاً لدلالات القرآن المجيد ومطابقة لواقع الأمر.

«النفس:» هي القوة الدافعة إلى الشهوات والأمارة بالسوء. ومظهر

ارتباطها بالجسد غدة في الثالث من تجاويف الدماغ قبالة ما بين العينين من الجبهة تقريباً. والغدة قابلة للتكلس المادي دون أن تكون قد ماتت بعد. وقد وردت «النفس» في القرآن المجيد كثيراً.

للإعجاز البلاغي في القرآن الكريم أساليب كثيرة جداً؛ منها استعمال كلمة واحدة للدلالة على معاني متعددة يتعين من بينها المعنى في أيّما نص مشتمل على الكلمة تعيناً محققاً بسياق النص ومقتضى الحال البياني المدرك منه. وإن من هذه لفظة «النفس»، هذه التي نقدم في الذكر معناها المراد بالتعريف ثم نشير إلى مواضع معانيها الأخرى: -

- **«وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى».**

(النازعات: ٤٠ - ٤١).

- **«لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون».**

(المائدة: ٧٠).

- **«. . . أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبم وفريقاً تقتلون».**

(البقرة: ٨٧).

- **«فطّوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين».**

(المائدة: ٣٠).

ـ «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل اللّه بها من سلطان إن يتّبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى».

(النجم: ٢٣).

ـ «وما أبرّىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم».

(يوسف: ٥٣).

ـ «وجاءو على قميصه بدم كذب قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فَصبر جميل واللّه المستعان على ما تصفون».

(يوسف: ١٨).

تلك هي النفس التي تهوى السوء وتأمر بالسيئات. وفي اسم النفس اشتراك معان كما قلنا. أريد به ذات القدوس الرحمن الرحيم: **«فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة»**. (الأنعام: ٥٤). واستعمل بمعنى شخص الإنسان الفرد: **«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة»**. (النساء: ١). وبمعنى الفكر والقلب: **«وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به اللّه»**. (البقرة: ٢٨٤). وأيضاً في معنى «الروح» ذاته: **«يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية»**. «الفجر: ٢٧ - ٢٨). ومرادنا هنا ما في السبع الآيات المتلوات.

«القلب»: قوة روحانية لطيفة ذات مِرَّةٍ لها الإرادة ولها التأثير البليغ في القوتين الأخريين وأيضاً تختص بمعقولات لا تصلها القوتان الأخريان. ومظهر

ارتباطها بجسد الإنسان هو العضو الصنوبري الجسماني الموجود في تجويف الصدر والمسمى باسم «القلب» عينه. والقلب لطيفه الروحاني وكثيفه الجسماني يمدان أعضاء البدن جميعها بالحياة والغذاء، حتى إذا توقفا عن الإمداد انتهت حياة الإنسان الدنيا ومات الكثيف منهما وماتت خلايا الجسد، وانتقل اللطيف إلى العالم الآخر ملازماً أصل الروح خالداً في العالم الجديد إما إلى نار وإما جنة.

قد كثر في التنزيل ذكر القلب اللطيف كثرة مشعرة بمنزلته العلية بين سائر قوى الروح. وقد أحصينا الآيات فيها اسم القلب فبلغت إحدى وثلاثين ومائة آية. بيد أن معناه قد ذكر في التنزيل باسم الفؤاد واللب أيضاً. حتى كأنّ القلب هو الروح عينه، فإن لم يكنه فهو أعظم قواه. فلنقرأ من الآيات البينات تسعاً ترينا من أحوال القلب خيره وشره: ـ

ـ «وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين».

(الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤).

ـ «ما أصاب من مصيبة إلاّ بإذن اللّه ومن يؤمن باللّه يهد قلبه واللّه بكل شيء عليم».

(التغابن: ١١).

ـ «لا تجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي اللّه عنهم

ورضوا عنه أولئك حزب اللّه ألا إن حزب اللّه هم المفلحون» .

(المجادلة : ٢٢) .

- «واعلموا أن فيكم رسول اللّه لو يطيعكم في كثير من الأمر لعَنِتُّم ولكنّ اللّه حبب إليكم الإيمان وزّينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلاً من اللّه ونعمة واللّه عليم حكيم» .

(الحجرات : ٧ - ٨) .

- «ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربّه قل إن اللّه يضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر اللّه ألا بذكر اللّه تطمئن القلوب» .

(الرعد : ٢٧ - ٢٨) .

- «ألَمْ يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون» .

(الحديد : ١٦) .

- «فكأيّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطّلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» .

(الحج : ٤٥ - ٤٦) .

- «ويل يومئذ للمكذّبين . الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذّب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم . ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذّبون . كلّا إنّ كتاب الأبرار لفي عليين» .

(المطففين : ١٠ ـ ١٨) .

- «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل اللّه مولٰكم وهو خير الناصرين . سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً ومأوٰيهم النار وبئس مثوى الظالمين» .

(آل عمران : ١٤٩ ـ ١٥١) .

والقوى الثلاث، النفس والفكر والقلب، متفاعلة فيما بينها يؤثر بعضها في بعض ـ وإن كان للقلب تأثير أتم وسلطان أعظم لأنه منبع الإرادة والقرار الفعّال. وإنما يستقيم له هذا السلطان إذا كان الوحي له ظهيراً وإياه هادياً. فإن شذ عن الوحي أو انحرف غلبه فكر منحرف لا محالة وساقتهما النفس الأمارة بالسوء إلى كل عمل ظاهر أو باطن فيه انقطاع القلب فمساءة الروح. وإذا شئت فعد إلى قراءة الأربع الأخيرات من آي الوحي التي تلوناها آنفاً. ثم اقرأ بعدها هذه الآيات :

- «لا يستأذنك الذين يؤمنون باللّه واليوم الآخر أن يجاهدوا

بأموالهم وأنفسهم واللّه عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون».

(التوبة: ٤٤ ـ ٤٥).

ـ «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكّروا به ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن اللّه يحب المحسنين».

(المائدة: ١٣).

ـ «أفمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر اللّه أولئك في ضلال مبين».

(الزمر: ٢٢).

وعلى الجملة إذا انساق الإنسان مع النفس الأمارة إلى الكبائر والسيئات غلبته على فكره وقلبه بتراكب تلكم الآثام؛ وإذا انساق مع أفكار ضالة عن نهج الهداية الربانية غلبه الفكر الضال على قلبه فأمسى كالحجارة بل هو أشد قسوة. أما من آمن بقلبه واتقى وصدق بالحسنى فذلك الذي يسّر اللّه روحه لليسرى ووفقه لخير الآخرة والأولى. ولنا في الجزء الثلاثين من القرآن المجيد سور عديدة توضّح بأساليب مفيدة أوجه الهداية والضلال والعلاقة بين القلوب والأفكار والأعمال.

ومن القرآن إلى السنة. حديث عظيم الموقع أخرجه أئمة الحديث

البخاري ومسلم والترمذي، ثانيهم بطرق متعددة كلها عن عامر الشعبي، والبخاري بسند أعلى فيه بينه وبين رسول اللّه - ﷺ - أربعة رواة، فوجدناه من رباعيات البخاري فآثرناه هنا سنداً ومتناً: -

- «حدثنا أبو نعيم قال حدثنا زكريا عن عامر قال سمعت النعمان بن بشير يقول سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «الحلال بيّن والحرام بيّن. وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس. فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا وإن لكل ملك حمى. ألا إن حمى اللّه محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب». (القسطلاني ج ١ ص ٢٨٣).

قلنا في سند الحديث إنه من الرباعيات. وفي متنه يقول النووي في شرحه لصحيح مسلم (القسطلاني ج ٨ ص ٤٢٤ - ٤٢٥): «أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائده وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام. قال جماعة هو ثلث الإسلام، وإن الإسلام يدور عليه وعلى حديث الأعمال بالنية وحديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. وقال أبو داود السجستاني يدور على أربعة أحاديث هذه الثلاثة وحديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». انتهى المنقول من شرح الإمام النووي.

ثم انظر - أيها الرفيق القارىء - إلى لطف التصريح والتلميح في كلام خاتم النبيين - صلى اللّه وسلم عليه وعليهم أجمعين - وكيف نبّه على إرادة اللطيف والكثيف معاً من القلب في نص واحد. السياق ومقتضى الحال واضحان في إرادة اللطيف من لفظ القلب إذ المقام مقام الورع والتقوى. فلما

أراد الشارع الجليل التلميح إلى أن الكثيف أيضاً مقصود بالنص استعمل لفظ «مضغـة» الـدالـة عليه ثم قال ألا وهي القلب للدلالة عليهما معاً وبيان أن الكثيف الجسمـاني هو مظهـر اللطيف الـروحـاني فهـو عرش الروح، هذا الممنوح هذه القوة الفائقة والمخاطب من ثمة بأحكام ربّ العالمين خالق الكلّ وقيّوم الكل - جلّ جلاله وعمّ نواله.

وفي هذا المقـام ذهب الأسـلاف الكرام علماء الإسلام مذهبين في مستقر العقل. فمن علماء الحديث المجتهدين من ذهب إلى أن العقل في الدماغ كالإمام أبي حنيفة - رضي اللّه عنه. ومنهم من ذهبوا إلى أن العقل في القلب لا في الرأس، محتجين بهذا الحديث الشريف، وبقوله تعالى: «**أفلم يسيـروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها . . .**» و«**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب . . .**». وهذا هو ما ذهب إليه العلماء الشافعيون ومنهم الشيخ العلامة يحيى النووي، الذي ذكر المنحيين في الموضع الذي أسلفنا الإشارة إليه من شرحه لصحيح الإمام مسلم. أما المتكلمون فجمهورهم في هذا على اختيار القلب؛ وفيهم من اختار الرأس وفاقاً لأبي حنيفة والأطباء.

وإنا بفضل اللّه وحسن توفيقه ذاهبون في هذه المسألة مذهباً موحداً بين المـذهبين السـالفين. فنقول: بأن الحق والصدق هو ما وضّحه رسول اللّه - ﷺ - من أن القلب بروحانيه المصرح به في النص وجسمانيه الملمّح إليه فيه هو مرجـع الصـلاح والفسـاد في جسد الإنسان كله، إذ ليس بعد مقال الرسول من حكم إلا ما يوافقه (أفلا ترى إلى القلب متى فسد فسدت أعضاء الجسم فارتكبت المفـاسد والمحرمات)؛ وبأن المذهبين السالفين كلاهما راجع إلى الصحة وموافقة النص دونما تعارض بينهما إذا دققنا المسألة على

مزيد علم وتحقيق.

لقد بيّنا قبل ورقات أن مظهر الفكر هو الدماغ وأن العقل من الفكر وهما راجعان إلى العلم؛ وقد سبق أن بينا في مباحث العلم (في الفصل الخامس) أن حقيقة العلم حاصلة بنبض كهرومغناطيسي يحصل في الدماغ. ولنعلم الآن أن القلب هو المولّد الذي ينتج منه ذلك النبض الكهرومغناطيسي وكل القوى الكهربائية الأخرى الموجودة في جسم الإنسان؛ وهو أيضاً الذي ينتج قوة كهربائية خفيفة في داخل نفسه لتنظيم نبضاته ـ حتى إذا اختلت درجة قوتها المعينة زيادة أو نقصاناً اختل نظام نبضات القلب ذاته اختلالاً مشعراً بممات الجسد آخر الأمر. وهذه الأخيرة قد أصبحت اليوم معروفة في علم الطب، وأصبح اختلالها يعالج معالجة جراحية بمد رأس سلك إلى داخل القلب الكثيف مربوطة نهايته الأخرى بنضيدة كهرباء جد صغيرة تخبّأ تحت جلد المريض في موضع ملائم من جسده. وهذا وجه من أوجه التمايز بين قوتي الفكر والقلب من قوى الروح الثلاث التي بيناها آنفاً. ومن هٰهنا ما أسلفناه من التفاعل بين هذه القوى ومن أن القلب اللطيف هو صاحب السلطان الأعظم والتأثير الأتم بين قوى الروح.

وهٰكذا يصح قول القائل بأن العقل في الرأس، كما يصح قول القائل بأنه في القلب: الأول باعتبار المظهر المحسوس به، والثاني باعتبار المكمن المؤثر. ومثل الفريقين كمثل اثنين يدخلان غرفة مضاءة بمصباح كهربائي وأحدهما يفقد ثقافة الكهرباء والآخر يجدها: فأولهما يعزو الإضاءة إلى المصباح، والثاني إلى تيار الكهرباء عبر الأسلاك. وكلاهما مصيب عند ذاك.

كل ذلك ونحن في مجال بعض وظائف الأعضاء في جسم الإنسان،

وبعض القوى الكهربائية، وبعض علاقاتهما بقوى الروح. فأما الأمر الأدق من هذه كلها في صلة الروح صاحب القوى الثلاث بمكونات جسد الإنسان كلها من «الذرات» و«الدوذريات» فارجع للعلم به إلى المبحث التاسع من كتاب «الرفيق الأعلى» حيث الكلام في مجال الفيزياء النووية.

وتأمل بعد ذلك كله في الحكمة وفصل الخطاب عند خاتم النبيين كما وجدنا في حديثه الشريف المستنار به هٰهنا. علومه وحي فلا يحتاج هو فيها إلى فسلجه وفيزياء ولا إلى تجميع مقدمات وآراء. ثم ارجع الفكر كرتين في حديثه الشريف تستزد من فوائده أنه ﷺ رمى إلى الورع والتقوى باجتناب حمى اللّه وتعظيم شعائره ـ ومن يتّق ويعظّم شعائر اللّه فذلك من تقوى القلوب. وأنّى لي أن أجمع في هذا الكتاب جميع المحارم والشعائر! قد عرضنا منها في الفصل السابق وسائر الفصول. وإذا الرفيق القارىء استزاد مزيداً فله الإفاضة في جوامع السنن، ولا سيما أبواب البرّ وأبواب الرقائق، حيث أنوار الورع والتقى والإيمان ومصابيح الهداية إلى جنتين ذواتي أفنان.

لكني أملك هنا أن أقدم إليه صورة من صور الورع عند المؤمنين والمؤمنات صدقاً؛ وهذه في قصة جد قصيرة ذكرها العلامة القسطلاني في شرحه لصحيح الإمام البخاري (ج ١ ص ٢٨٥). ذهبت مسلمة إلى الإمام أحمد ابن حنبل تستفتيه في واقعة شرعية فقالت له: «إنا نغزل على سطوحنا [ليلاً] فيمرّ بنا مشاعل الظاهرية [أي قوافل الركائب حاملات الأثقال] ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها»؟ فقال لها الإمام أحمد: «من أنت عافاك اللّه»؟ قالت: «أخت بشر الحافي». فبكى الإمام وقال: «من بيتكم يخرج الورع الصادق؛ لا تغزلي في شعاعها». أخرج الترمذي في

الجامع الصحيح (ج ٤ ص ٦٣٤): «حدثنا أبو بكر بن أبي النضر حدثنا أبو النضر حدثنا أبو عقيل الثقفي عبد الله بن عَقيل حدثنا عبد الله بن زيد حدثني ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس عن عطية السعدي وكان من أصحاب النبي ﷺ قال «قال رسول اللّه ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس».

لينظر الإنسان، إذن، في شأن روحه مع القوى الثلاث، وفي أمر معاشه هنا ومحياه في دار المقام، وفي الطريق الذي مهده سيد الأنام إلى رياض الجنة ولقاء الملك العلام. «**ومن يطع اللّه ورسوله ويخشى اللّه ويتّقْهِ فأولئك هم الفائزون**». (النور: ٥٢)

فحق النفس الأمارة: أن يكبح جماحها، وتكسّر سيوفها ورماحها وتصدّ عن الجوارح والفكر والقلب رياحها، وتقهر حتى ينقطع خداعها وجراحها، وتطوّع كيما يستوى مسراها وغدوها ورواحها، ثم يهدى إليها استقرارها وأمانها وفلاحها. وعندئذ فهي النفس المزكاة مريدة القلب في أمره والإشارات. وقد اخترت هذه الجمل القصيرات المسجّعات خاتمة لما في هذا الكتاب عن «النفس» من مقالات مفرقات أو مجمعات، مع هٰذين البيتين الجميلين من الشعر التصويري للإمام القدوة البوصيري: ـ

«والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على
حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فلا ترُم بالمعاصي كسرَ شهوتها
إن الطعام يقوّي شهوة النهم»

وحق الفكر: أن يستعلم كل معرفة هي فرض عين، ثم كل ما أمكن من

فروض الكفاية، ثم ما تيسّر من النوافل والمبرات والقربات وأن يتجه في العلم والعمل إلى الضروريات للحياة، ومنها إلى الحاجيات ثم من هذه إلى التحسينيات. (وقد مر علينا كثير من هذه المعاني في فصول الركنين الأول والثاني). وأن يصبح للقلب خير معين ورفيق يساوقه ويواكبه ويحاوره، ويستعين به ويعاونه، ويتجه معه إلى كل ما يحيي الفؤاد ويرضي رب العباد.

وحق القلب: أن يتجه إلى الغاية المثلى والمقصد الأسنى لروح الإنسان. وأن يقود الفكر إلى زكاء الأبدان والجنان. وأن يعرج مع الروح إلى عالم القدس وبهجة الرضوان. ولهذا خصصنا القلب بجلّ ما في هذا الفصل الأخير من علم وبيان.

ثم المستخلص مما تقدم كله أن قوة النفس وقوة الفكر لا تستغنيان عن قوة القلب، وأن قوة القلب قد تنفرد عنهما بمعارف وأعمال.

وربما لُقبتْ قوة القلب «بالحاسة السادسة». وجرى إلى ذكرها والحديث عنها أتباع الحضارة الأوروبية الحديثة ـ ولا سيما بعد ما اشتهر أن الحاسة السادسة هي من مكتشفات علماء هذه الحضارة المتخصصين في علم النفس وعلم الروح. والتابع قد يغفل عما يعلم متبوعه، وقد يجهل ما يخفي المتبوع ابتغاء الدجل في العرفان. أما نحن فنعلم أن أخص خصائص الحضارة الأوروبية المعاصرة هو الدجل ـ والحاسة السادسة لم تسلم من هذا الدجل. أول عالم لقّب هذه القوة الروحانية «بالحاسة السادسة» هو الإمام الهمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي المتوفى عام ٥٠٥ من الهجرة، أي قبل أن تنبثق الحضارة الحديثة وتنهض. وإذا شئت فارجع إلى «إحياء علوم الدين»، الربع الرابع، الصفحة ٣٦٣ ـ ٣٦٤. بل كانت علوم الفيلسوف

الغـزالي وعلوم خلفـه ابن رشد الحفيد وكتبهما الكثيرة هي المعين الصافي الصحصـاح الـذي منهـا استقيت المعـارف التي نهضت عليهـا الحضـارة الجاحدة. وليس في هذا الشأن هنا متسع لتفصيل، فإذا أحببت فراجع مقدمة كتابنا «الرفيق الأعلى»، أو الفصول الأخيرة من «الحرية الجامعية».

ألمهم أنا عرفنا الثلاث القوى بالأدلة الثابتة، وتوصّلنا إلى أن القلب قوة برأسها من قوى الروح، فلم يعد بنا حاجة إلى اعتبارها حاسة ولا إلى تلقيبها بالسادسة كما رأيت. ولست في قولي هذا معارضاً الغزالي الإمام ولا آخرين من الأئمة الأعلام هداة الأنام بالإسلام. فهو شيخي في سلسلة الإجازة العامة في علوم الكتاب والسنة، وهم جميعاً أسلافنا الذين بنوا الصروح والشرفات العوالي وعلى مراقيهم صعدنا نحن إلى العلالي. وإنما أنا بعض الغابطين، كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي ـ رحمه الله ـ في «نهج البردة»، مخاطباً الرسول ـ ﷺ ـ في شأن الإمام البوصيري وبردته:ـ

«مـديحـه فيك حب خالص وهـوى
وصـادق الحـب يمـلي صادق الكـلم
ألله يشـهـد أنـي لا أعـارضـه
من ذا يعـارض صوب العـارض العـرم
وإنمـا أنـا بعض الـغـابـطين ومـن
يغـبط ولـيَّك لا يُذمـم ولا يُلم»

والأهم أن نعرف الآن على أتم وجه ما المراد بالغاية المثلى وبالمقصد الأسنى اللذين وضعـا للإنسـان متجهـاً ومراماً وموئلاً رفيعاً مستداما؟ الغاية المثلى: هي «منـازل الـذكـر». والمقصـد الأسنى: هو «مقام الإحسان».

فلنتشرف بالحديث النبوي الآتي مدخلاً إلى الذكر والإحسان: -

- أخرج الترمذي في الجامع الصحيح (ج ٤ ص ٦٣٨): . . . «وحدثنا عبد اللّه بن عبد الرحمن أخبرنا عمرو بن ميمون أخبرنا ابن المبارك عن أبي بكر بن أبي مريم عن ضمْرة بن حبيب عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على اللّه».

قال الترمذي «ومعنى دان نفسه يقول حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة. ويروى عن عمر بن الخطاب قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزيّنوا للعرض الأكبر، وإنما يخفّ الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا».

«منازل الذكر»

أخرج الترمذي في الجامع الصحيح (ج ٤ ص ٦٠٧ - ٦٠٨): «حدثنا أبو عبد اللّه محمد بن أبي ثلج البغدادي صاحب أحمد بن حنبل حدثنا علي بن حفص حدثنا إبراهيم بن عبد اللّه بن حاطب عن عبد اللّه بن دينار عن ابن عمر قال «قال رسول اللّه ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّه. فإن كثرة الكلام بغير ذكر اللّه قسوة للقلب وإن أبعد الناس من اللّه القلب القاسي».

وأخرج الترمذي (عقيب الحديث السابق): «حدثنا محمد بن بشار وغير واحد قالوا حدثنا محمد بن يزيد بن خُنيس المكي قال سمعت سعيد بنُ حسان المخزومي قال حدثتني أم صالح عن صفيّة بنت شيبة عن أمّ حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر اللّه».

للفظ الـذكر ومشتقاتها في اللغة معان عديدة أكثرها راجع إلى اثنين أحـدهما روحاني والآخر جسماني. أولهما معنى الاستحضار في الفكر أو القلب كما في قوله تعالى: «**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه. . .**» (النــور: ٣٧)، «**والـذين إذا فعلوا فاحشـة أو ظلمـوا أنفسهم ذكـروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم. . .**» (آل عمران: ١٣٥). وكما في هذا البيت: ـ

«اذكــرونــا مثــل ذكــرانــا لكــم
رب ذكــرى قربــت من بعُــدا»

والثاني معنى القول والنطق بجهاز الصوت كما في قوله تعالى: «**واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً**». (مريم: ٤١). «**وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك. . .**». (يوسف: ٤٢). ثم يتعين المعنى المراد في كل نص بالعلامات البيانية المعروفة في علوم اللغة والأدب.

ثاني هٰذين المعنيين هو الـظاهـر قصده من لفظ الذكر في الحديثين الشريفين اللذين صدّرنا بهما المبحث رجاء التدرج من الأدنى إلى الأعلى من منازل ذكر الإنسان رب العالمين سبحانه جلّ شأنه. وهٰذا هو المعروف بذكر اللسان.

ولكي يبلغ ذكـر اللســان الحـد الأدنى لكونه ذكر اللّه حقاً يجب أن يصحب الذكر حين النطق به نوع وعي في فكر الناطق به بأنه إنما يذكر اللّه سبحانه. أما إذا قام يردّد بلسانه اسم اللّه تعالى وهو غافل عن اللّه أو سارح الفكـر في أعـلاق الـدنيا فهـذا العمـل ليس يرقى إلى الحد الأدنى للذكر الشرعي. ذلك لأن الذكر في حقيقته ابتهال ودعاء، وقد ثبت في الحديث «إن اللّه لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهي». وقد مرّ علينا وصف هذا في ثقافة

الصلاة في الفصل الرابع. فلنتذكر هنا ما ذكرنا هناك من مثل المصلي يقرأ في صلاته فاتحة الكتاب وهو غافل عن اللّه والفاتحة والصلاة سارح في علائق النفس. ثم لكي يبلغ ذكر اللسان الحد الأدنى للذكر الشرعي يجب أن ينزه عن القران بالمحرمات عند الشرع، كالتي بيناها في أواخر الفصل الثامن. الـذكـر الشـرعي عبادة لله وطاعة، وقرينه المحرم شرعاً معصية للّه وأمره، والعبادة ترتجى في مرضاته لا في معصيته. والذي يتراءى له أن هذه المعصية مشـوّقة إلى الذكر، أو أنها بمقارنتها الذكر تنسلخ عن كينونتها معصية وعن حكم اللّه تعالى فيها، فهو المنقاد في إمرة النفس الأمارة بالسوء العاجز عن صدها لسبب من أسباب عدم الإلمام بعلم الشريعة وعلم الروح في الإسلام أو الضعف عن نبذ تقاليد يجب أن تترك لا أن تتأوّل. ونسأل الهادي العظيم الهداية والصون عن الزلل.

هذا. على أن الأول من الحديثين الشريفين يصح فهمه على أن النهي هو عن الإكثار من الكلام في أيّما شأن إكثاراً محفوفاً بدوام الغفلة عن اللّه تعالى. فالمأمور به فيه هو قطع الغفلة ومعاودة ذكر اللّه سبحانه، سواء كان الذكر أو كانت المعاودة باللسان أو الفكر أو القلب؛ والحديث مدرك شرعي للذكر على منازله الثلاثة.

فذكر اللسان هو المنزل الأدنى من منازل ذكر اللّه، وهو عبادة خير، بالشرائط الشرعية التي وصفناها الحائلة دون انقلابه من طاعة إلى معصية. «والكيّس من دان نفسه».

والمنـزل الأوسطٌ أي الـذي فوق المنزل الأدنى هو ذكر اللّه سبحانه باللسان والفكر معاً، واللسان فيه تابع للفكر الذاكر ذكراً قوياً. ويجب فيه من

باب أولى تحقق الشرائط الشرعية جميعها التي تقدم بيانها مع الحد الأدنى.

يبقى أن نعلم حكم الشارع فيه من حيث الجهر به أو الإسرار. نعلم من أحاديث الأذكار الكثيرة في الصحاح والمدونة في كتب مفردة لها (كالأذكار للنووي رحمه اللّه وجزاه خيراً) أن ذكر اللّه يتحقق بصيغ التسبيح والتحميد والتمجيد والدعاء والثناء والتلبية والتكبير وبصيغة التوحيد. وفي هذا المجال صنع رسول الله ـ ﷺ ـ وصنع أصحابه ما يلي بيانه: ـ

١ ـ التهليل به في موضعين: مناسك الحج وأيام التشريق؛ وعقيب الصلوات المكتوبات في المساجد دائماً.

٢ ـ الإسرار به دونما رفع صوت وتهليل ـ كما في غير الوقتين المشار إليهما في الفقرة السابقة.

٣ ـ ذكر اللّه بقلبه الشريف. وههنا لا صوت ولا لفظ.

أما التلبية والتكبيرات في مناسك الحج فمعروفة مشهورة عند المسلمين معرفة تغنينا عن رواية أدلتها الشرعية في هذه الورقات. وقارىء يريدها، فليرجع إلى مباحث الحج في أيّ من المراجع المذكورة في أوائل الفصل الثالث عشر. وأما ذكر القلب فسيأتي بيانه قريباً.

فأما باقي الأحكام التي لخصناها ضمن الأوليين من الفقرات الثلاث المتقدمة فإليك أدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة: ـ

ـ «فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الّيل فسبّحه وأدبار السجود».

(ق: ٣٩ ـ ٤٠).

والمـراد بالسجـود الصلاة، أي سبّح أعقاب الصلاة. ومن القراءات السبع «وإدبار السجود» بكسر الهمزة، أي فور ما تدبر الصلاة وتنتهي والمعنى واحد هو الأمر بالذكر وجوباً.

ـ أخـرج مسلم في صحيحـه (القسطلاني ج ٤ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦): «وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا أبي حدثنا هشام عن أبي الزبير قال كان ابن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا حول ولا قوة إلا باللّه. لا إله إلا اللّه ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن. لا إله إلا اللّه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». وقال كان رسول اللّه ﷺ يهلّل بهن دبر كل صلاة».

ـ أخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج ٤ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣): «حدثنا داود بن رشـيد قال حدثنا الوليد عن الأوزاعي عن أبي عمار (اسمه شداد بن عبد الله) عن أبي أسماء عن ثوبان قال كـان رسول اللّه ﷺ إذا انصرف من مصلاه استغفر ثلاثاً وقال: «اللّهمَّ أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام». . . وحدثناه ابن نميـر قال حدثنا أبو خالد يعني الأحمر عن عاصم بهذا الإسناد وقال: «يا ذا الجلال والإكرام».

ـ أخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج ٤ ص ٢٦٧): «حدثنا عاصم بن النضر التيمي حدثنا المعتمر حدثنا عبيد اللّه ح (وحدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ليث عن ابن عجلان) كلاهما عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة (وهذا حديث قتيبة) أن فقراء المهاجرين أتوا رسول اللّه ﷺ فقالوا قـد ذهب أهـل الدثور[أي الأموال] بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك».

قالوا يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول اللّه ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم إلا من صنع مثل صنيعكم». قالوا بلى يا رسول اللّه. قال: «تسبّحون وتكبّرون وتحمّدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة».

وجدنا في الحديثين الأول والثاني ما جهر به رسول اللّه ﷺ من الذكر. وفي الحديث الثالث ما أمر به من الذكر. فذهبنا إلى: أن الجهر بالذكر أفضل في المواضع التي جهر به فيها رسول اللّه ﷺ وبمقدار ما جهر به؛ وأن الإسرار هو الأفضل في ما عدا ذلك كله. وفي ما ذهبنا إليه بفضل اللّه وحسن توفيقه تطبيق لقواعد علم أصول الفقه وعلم نقد الحديث ورفع لما ذكره العلامة النووي في شرحه لصحيح الإمام مسلم (القسطلاني ج ٤ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦) من خلاف بين السلف فبين المتأخرين في استحباب الجهر أو الإسرار بالذكر والتكبير. ذلك كله ما قال وما عمل الشارع ﷺ.

وكنا قد أشرنا إلى صنيع الأصحاب أيضاً بادىء التقسيم الثلاثي قبل قليل. أما الإسرار بالذكر على أيامهم كما على أيامنا فواضح أمره حين يسرّ به المسلم مثلما في صلاة السر. وأما جهر الأصحاب ـ صلى اللّه على رسول اللّه وآله وأصحابه وسلم ـ عند مناسك الحج فواضح كذلك ومعروف مشهور. فأما جهرهم بالذكر عقيب الصلاة فمأخذه ما رواه البخاري ومسلم بأسانيدهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي ﷺ». (راجع القسطلاني، للبخاري: ج ٢ ص ٥٠٦؛ ولمسلم: ج ٤ ص ٢٥٥). وكيف لا، وقد رأينا كيف كان النبي ﷺ يصنعه.

فأما أفضلية الإسرار (أعني في ما سوى المواضع التي قلنا الإعلان فيها أفضل) فالأصل فيها من رسول اللّه ﷺ هذا الحديث: ـ

ـ أخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج ١٢ ص ١٠٤ ـ ١٠٥): «حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل وأبو معاوية عن عاصم عن أبي عثمان عن أبي موسى قال كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبي ﷺ: «إربَعوا على أنفسكم. إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً. إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم...» رواه مسلم بطرق عديدة عن أبي موسى الأشعري.

والآن إلى المنزل الأعلى من منازل ذكر اللّه تعالى. هو إذ تنفرد قوة الفكر بذكر اللّه تعالى، وجهاز الصوت متروك منعزل تمام الانعزال. ومدركه الشرعي قوله تعالى:

ـ «واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين».

(الأعراف: ٢٠٥).

وقد تقدم في صدر هذا الفصل أن لفظة النفس استعملت بمعنى الفكر والقلب ولمعان غيرهما. وموضوع الآية الكريمة وسياقها وافيان بأن المراد هو الذكر بالفكر أو القلب أو كليهما دونما قول مجهور به. أما القول الذي هو في النفس فكراً كانت هذه أو قلباً فهو غير مشمول بالاستثناء والعزل ـ كما لا يخفى. ولينتبه الرفيق القارىء إلى أن الكلام ينشأ في فكر الإنسان ثم يتلفظ هو به ويخرجه بجهاز الصوت. ولما كان الأمر في الآية الكريمة بذكر الرب في

النفس خاصة فهمنا أن ليس المراد من الجهر هنا ما يقابل الإسرار بالقول والصوت، بل المراد هو ما يقابل القول داخل النفس أي المجرد من كل تلفظ بجهاز الصوت لا مسرّاً به ولا مجهوراً.

فالذاكر يصدف عن جهاز الصوت واللفظ وينساه ويذكر الله تبارك وتعالى بفكره مستغرق الفكر في اللّه سبحانه. وهذا هو المنزل الأرفع والحد الأعلى للذكر بقوة الفكر من قوى الروح.

بيد أن معارج ذكر اللّه جلّ جلاله وعم نواله لا تنتهي عند هذا الحد. فهذا منزل يعرج منه إلى «مقام الإحسان». وفي النهج البادىء من هذا المقام صنف آخر من الذكر هو بقوة القلب وحده لا الفكر. وإنما يتضح ذلك بعد العلم بمقام الإحسان، وإنما ينكشف بعد الوصول إلى مقام الإحسان.

«مقام الإحسان»

نعلم علم اليقين أن الوحي كان ينزل على رسول الله ﷺ بطريقتين. الأولى: ينزل الوحي على قلب النبيّ ثم يفصم عنه وقد وعى ما نزّل ـ وهذا أشد الطريقتين. والثانية: يتمثل الملك على صورة إنسان، فيأتي ويجلس إلى النبيّ ـ ﷺ ـ فيخاطبه ويحاوره، والنبي هو المنفرد برؤيته وسماع خطابه في أغلب الأحيان دون من عنده من آله وأصحابه الذين كانوا يشعرون بحضور الملك لكن لا يرونه بالأبصار ولا يسمعونه بالآذان. وحينا يرى الحاضرون أيضاً الملك ويسمعون كلامه بأبصارهم وأسماعهم. وإليك بيان ذلك كله. أما من الكتاب المبين فاقرأ البادئة من الآيات التسع التي تشرفنا بها في أوائل هذا الفصل عند الكلام على القلب. وأما من السنة فانظر ما يلي: ـ

- أخرج البخاري في صحيحه (القسطلاني ج ١ ص ١٦٥ - ١٦٩):

«حدثنا عبدالله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي. فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقاً».

- أخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧، ٢٦٧ - ٢٧٣) قال: . . . «وحدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري وهذا حديثه حدثنا أبي حدثنا كهمس عن [عبد الله] ابن بريدة عن يحيى بن يَعْمر قال: . . . «ثم قال [يعني عبد الله بن عمر] حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: «يا محمد أخبرني عن الإسلام». فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: «صدقت». قال [عمر] فعجبنا له يسأله ويصدّقه. قال: «فأخبرني عن الإيمان». قال [النبي]: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: «صدقت». قال: «فأخبرني عن الإحسان». قال [النبي]: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن

تراه فإنه يراك». قال: «فأخبرني عن الساعة». قال [النبي] : «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: «فأخبرني عن أماراتها». قال[النبي] : «أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان». قال [عمر] ثم انطلق فلبثت ملياً. ثم قال لي [النبي] : «يا عمر أتدري من السائل». قلت اللّه ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم». وأيضاً أخرج حديث الإسلام والإيمان والإحسان، وعن غير ابن عمر أيضاً، كل من البخاري والترمذي وأبي داود والنسائي. وأخرجه مسلم بطرق متعددة.

صرّح فيه النبي ﷺ بالنهج البادىء والنهج الأقصى من «مقام الإحسان». البادىء أن تعبد اللّه تعالى تشعر أنه يراك. كل معتقد بوجود اللّه تعالى خالق الأكوان فهو يعلم أن اللّه يرانا. فليس هذا هو المراد من النص. بل المراد أن يصبح المؤمن مستغرقاً في الحضور استغراق خشوع واستحياء بأن اللّه سبحانه حاضر معه يراه ـ كما قال: «وهو معكم أينما كنتم». هذا نهج أتم وأرفع من المنزل الأعلى للذكر بالفكر لكنه يشبهه، ولهذا قلنا آنفاً يتسنى العروج إليه من ذلك المنزل. ومثابة الحضور والخشوع هذه هي المثابة الأولى من النهج البادىء من مقام الإحسان.

فإذا استقام العبد على النهج البادىء ووافاه مدد قوة من الباري عز شأنه ـ (وسيأتي بيان إلتماس هذا المدد) ـ فإنه يرقى في هذا النهج ذاته إلى مثابة أرفع، مثابة ذكر القلب: جهاز الصوت والكلام معطل ومهمل إهمالاً تاماً؛ القلب يشرع يذكر اسم الجلالة «اللّه . . . اللّه . . . اللّه» ذكراً فصيحاً واضحاً يحس به الإنسان، وآونة يسمعه بأذنيه؛ إن القلب الروحاني هو الذاكر، لكن صاحبه يحس بالذكر من القلب الجسماني، أي المضغة الصالحة، لشدة

التلابس بينهما. ويحصل لبعض الذاكرين في هذه الحال تسارع في ضربات القلب والنبض. النهج هو النهج البادىء ذاته، لكن المثابة هي العليا منه.

أما النهج الأقصى، وهو غاية المقصد الأسنى، فنحن لاستبانة حقيقته أحوج إلى صاحب الوحي منا في كل ما تقدم بيانه. رأيت قد عرّفه - ﷺ - بقوله: «أن تعبد اللّه كأنك تراه» - جلّ جلاله وعمّ نواله. فكيف هٰذا، ولا سيما الأمر ليس يخصّ النبي وحده بل يعمّ غيره من المؤمنين؟

فاعلم بادئاً في اللغة أن الإدراك إذا كان بالعين يسمى رؤية، وإذا كان بالقلب يسمى بصيرة. ومن ثم قيل إن للإنسان بصراً وبصيرة، ومن ثم أيضاً استعملت الرؤية ومشتقاتها للإدراك بالبصيرة مجازاً. ثم انتبه إلى أن النبي - ﷺ - ما استعمل فعل «ترى» في معناه المجازي، بل في معناه الحقيقي، لكن أقام تشبيهاً بين الإدراك الحاصل للعابد وبين الرؤية بالعينين؛ فحاصل معنى قوله الشريف هو أن تعبد اللّه وأنت تدركه إدراكاً واضحاً كوضوح رؤيتك بالعينين. والتشبيه - على ما أرى - من قبيل تشبيه الأتمّ بالتام والأعلى بالأدون، كما الشأن في قوله تعالى: «**اللّه نور السمٰوات والأرض مثل نوره كمشكوة فيها مصباح**»... الآية. فالإدراك بالقلب قد يكون أوضح وأصفى وأتم من الرؤية بالعين. أما المهم الذي لا محيد عنه ولا سبيل إلى فهم سواه فهو أن رؤية اللّه سبحانه وتعالى بالباصرة الجسمانية الدنيوية أمر مقطوع باستحالته، فيتعين الإدراك بالقلب والبصيرة. ذلك بقوله تعالى: «**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**». (الأنعام: ١٠٣). ولنتذكر هٰهنا لمجرد التوضيح ما ورد في شمائل خاتم النبيين - ﷺ - من أنه كان يرى من خلفه كما كان يرى من قدامه؛ وهو ما كانت له باصرتان خلف رأسه؛ فقد

كانت رؤيتـه ما وراءه ببصيرة القلب لا محـالـة. بيد أنـه رسول اللّه وخاتم النبيين، وله من شمائله الخصائص التي خلقها اللّه تعالى له دون سائر خلقه. فما هو شأن العُبّاد الآخرين من عباده؟

نرجع كرة أخرى إلى صاحب الوحي - ﷺ - لجواب هذا السؤال: -

- أخرج مسلم في صحيحه (القسطلاني ج ٢ ص ١٩٠): «حدثني زهير بن حرب حدثنا جرير عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هـريرة قال «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به». قال[النبي]: «وقد وجدتموه». قالوا نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان».

أولئـك من أصحـاب رسول اللّه ﷺ، وقد وجدوا في قلوبهم أقصى الإحسان، وجدوا عبادتهم كأنهم يرون اللّه تعالى، فتعاظمهم أن يتكلموا به، فهـرعـوا إلى النبي الكـريم فعـرضوا عليه الشأن. ومن يوازن هذا الحديث بحـديث الإحسـان، ويتـأمـل سؤال النبي الاستحسـاني «وقـد وجـدتمـوه» وجوابهم، ثم الذي بتّ به النبي ﷺ في شأن ما كانوا يجدون وحقيقته «ذاك صريح الإيمـان» أي صرفه الخالص المبرأ من كل شائبة - نقول من يتأمل هذا كله يتحقق من أن سؤال الأصحاب وبيان الرسول إنما هما في شأن النهج الأقصى لمقام الإحسان: «أن تعبد اللّه كأنك تراه». فبرحمة الخلاق المنعم سبحانه فُتح لأمة خاتم النبيين مقام الإحسان يُنعَم بالعروج إليه على المؤمنين المتـوجهين إلى اللّه جل جلالـه المـريدين إياه السالكين طريقه الجاعلينه مقصدهم الأسنى في حياتهم؛ وعلى النهج الأقصى منه يشاهد الروح بقوة القلب تجليّ الجلال اللانهائي السرمدي - منبهراً في حضرته انبهارا يجعله آنة

منقطع الشعور بذاته، وآونة باقيه في صحو كامل. هٰذا الشأن هو الذي تعاظم الأصحاب أن يتكلموا به حتى عرضوه على خاتم النبيين فعرّفهم بحقيقته. جزاه اللّه البارىء الخلاق عن الأمة خيراً، وصلى وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين.

هذا هو مذهب الإسلام الروحاني للصلة بين العبد والرّب، «مذهب الحضور والإحسان» «مذهب صريح الإيمان»: اللّه جلّ جلاله وعم نواله مع العبد أينما كان العبد، وحيثما ولّى العبد وجهه فثمَّ وجه اللّه؛ والعبد يسعى يشهد بقلبه تجلّي الجلال السرمدي على قدر استطاعته، ويجتهد لإستدامة عبادة اللّه سبحانه كأنه يراه حتى ساعة رحلته العظمى إلى عالم الخلود ولقاء ربه. فهذا هو المذهب والطريق الذي نسير في نهجه وندعو المسلمين إليه ـ عسى اللّه البرّ الرحيم أن يتقبل توبتهم، ويحبّب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم، ويجمع شتاتهم ويوحد مسارهم، ويعيدنا أمة واحدة تريد حضارة الإسلام وتبني الدنيا أحسن بناء لتعمرَ الآخرةَ عمارةَ الخالدين، وأن يذيقنا من حلاوة الإيمان والإسلام نشاط العاملين المجاهدين.

ـ أخرج البخاري في صحيحه (القسطلاني ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣): «حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا عبد الوهاب الثقفي قال حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أنس رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان. أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا للّه. وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

علوم ومعارف جليلة تلك التي تلقيناها من الكتاب والسنة حتى هذا

الموضع من فصول هذه الرسالة. يبقى أن نتعلم فنون الإفادة من هذا الطريق والسير على نهجه وعزة الاستقامة لدوام الاستظلال بأفيائه.

التعلم والإرشاد

من الأمثال السائرة: «العلم بالتعلم». وهو قول حق شريف أساسه الكتاب المجيد وحديث من تراجم الإمام البخاري (القسطلاني ج ١ ص ٣١٧). «**علّم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم**». خلق ربّ العالمين - جلّت قدرته - لكل عالم من عوالمه الكثيرة قوانين وسنناً. وهذه لحياة الإنسان الدنيا وعالمه على أرضنا القوانين والسنن التي نعلم ونعرف منها ونشاهد ونطبّق: قوانين الوسائل والغايات والأسباب والمسببات - منها ما لنا عليه قدرة وما ليس لنا عليه شيء من القدرات. ووسيلة استحصال العلم هي التلمذة والتعلم والأستاذ والتعليم. الشأن في كل العلوم هكذا. فأما الجوانب التطبيقية للعلوم والمعارف التي لا ينفع النظري منها مفصولاً عن العملي - أما هذه فالحاجة فيها إلى الأستاذ المرشد وتوجيهاته أشد وأدعى.

خذ علوم الطب والصيدلة مثالاً، وكلاهما من العلوم التطبيقية. أنت لن تصبح طبيباً بمحض المطالعة في كتب الطب وقراءتها. ولن تغدو صيدلانياً بمجرد الخوض في أسفار الصيدلة. وأوضح الأمثلة لذلك في مجال علوم اللغة وفنونها «علم المخارج» و«علم التجويد». فافهم أن علم الروح ليس بمستثنى مرسل عن قوانين الوسائل والغايات؛ فهو علم أجلّ منافعه إنما هو في الجانب التطبيقي منه. فإذا كانت الحاجة في العلوم الأخرى ماسة إلى الأستاذ المرشد المتمكن فالحاجة إليه في علم الروح أمس والاحتياج إليه أوجب من باب أولى.

ثم انظر إلى الشأن في أركان الدين. يرسل رب العالمين ـ جل وعلا ـ رسوله جبرائيل إلى خاتم النبيين ـ صلى اللّه وسلم على رسوليه الكريمين ـ ليعلّمه الصلاة ويؤمّه للتطبيق في الصلوات الخمس المكتوبات في أوقاتها. ارجع لأسانيد ذلك إلى كتاب الصلاة من مصادر الفقه. وهذا خاتم النبيين ـ جزاه اللّه عن المسلمين خيراً وصلى وسلم عليه ـ قد تولى الإرشاد والتعليم في الجانبين النظري والتطبيقي من أحكام الإسلام وشريعته الغراء ـ ولا سيما المخصوصة منها بأعمال القلوب من الورع والتقوى والذكر والفكر ومقام الإحسان. وتولاه من بعده من أتباعه وارثو علمه سادات الأمة الداعون نيابة عنه إلى اللّه ـ جلّ جلاله ـ وإلى خاتم أديانه الذي أكمله وارتضاه وأتم به نعمته على العالمين.

وتتابع العلم والإرشاد والمرشدون، يجيز السلف منهم الخلف، في سلاسل متصلة من لدن خاتم النبيين ـ صلى اللّه وسلم عليهم أجمعين ـ إلى يومنا هذا. وإن من سلاسل المرشدين المجازين المجيزين على «طريق الحضور والإحسان»، «طريق صريح الإيمان»، سلسلة هي أشبه ما تكون بسلسلة الذهب من رواة الحديث، وترقى في أعاليها إلى القاسم بن محمد من فقهاء المدينة السبعة فإلى سيدنا «سلمان الفارسي فسيّدنا أبي بكر الصديق ـ رضي اللّه عنهم ـ؛ وتلقّى الصاحبان الجليلان من منبع العلم والإرشاد والعرفان والإحسان ـ صلى اللّه وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ووارثي علمه إلى يوم الدين.

ويتتلمذ الإنسان حتى يغدو عالماً. فإذا غدا ملك أن يستزيد بالمطالعة في علم قريب من مجال اختصاصه لم يكن تلقاه بعينه من أساتيذه. لكن عالم

الفقه والقانون إذا أحب أن يصبح طبيباً فوسيلته لذلك العودة إلى التلمذة ليس إلا.

والمؤمن المتقن ما افترضه اللّه عليه من واجبات الإسلام ونوافله متى اتجه إلى مرضاة ربه ورافق أصحاب القلوب أمكنه التدرج بقوة الفكر حتى المثابة الأولى من النهج البادىء من مقام الإحسان. فأما المثابة العليا من النهج البادىء وأما النهج الأقصى فلا سبيل إليهما من دون أستاذ مرشد أمده اللّه تعالى بالعلم وبالقدرة على توجيه القلوب بحول اللّه وقوته. ذلك لأن علالي المقصد الأسنى لا تنال ولا يعرج إليها إلا بقوة القلب. والقدرة على استعمال قوة القلب وسيلتها التدرب بين يدي أستاذ مرشد قد بلغ النهج الأقصى من مقام الإحسان واتصلت بالإجازة أسبابه بالسلسة الآنف ذكرها المتشبثة بأذيال خاتم النبيين وقدوة الأولين والآخرين ـ صلى اللّه وسلم على إمام المتقين وآله وأصحابه والمتشبثين بأذيال هدايته إلى يوم الدين.

والغافل عن سنن اللّه تعالى وقوانينه في وسيلة العلم وتلقيه هو ذاك الذي تخيل إليه نفسه أن الأمر أُنُف لكل امرىء في كل زمان وأن ليس من حاجة إنسان إلى إنسان في مجال علوم الدين والروح ومقام الإحسان. والغالب على هؤلاء الغافلين سوء الظن بعباد اللّه المخلصين والإلتهاء بالغيبة والنميمة واقتراف هذه الآثام تزيّنها لهم نفوسهم بأن فيها دعوة إلى الإسلام.

واحب أن أضع لهذا الغافل ميزان اعتدال يزن هو به نفسه ويمتحن الخطأ من الصواب إن أقام فكره ورأسه. ليتعبد كيف يشاء وليتحنّث كيف يشاء شهراً كاملاً أو عاماً كاملاً، ثم ليحرك قلبه كيف يشاء فلينظر هل أصبح قلبه ذاكراً الذكر الذي وصفناه عند بيان المثابة العليا من النهج البادىء لمقام

الإحسان. إنه سيدرك العجز عن إيصال قلبه إلى تلك المثابة. وإذا تبيّن عجزه فليكن بعد العجز حصيفاً يزجر نفسه الأمّارة بالسوء تدعوه إلى الغرور والمكابرة والإهمال، وليتّبع سنة اللّه - جل جلاله - التي سنها للتعلم والتلقي والاسترشاد فيذهب إلى عالم مرشد متخصص وارث لعلوم رسول اللّه، وليقبّل يده وقدمه إخباتاً وتواضعاً ومحبة للّه - كما صنع أصحاب رسول اللّه معْ رسول اللّه. اللهم صل وسلم على هادينا ومرشدنا ومقتدانا محمد وآله وأصحابه ووارثي علومه الشريفة. ولك الحمد والشكر والمنة والعتبى أولاً وآخراً حتى ترضى يا رب العالمين.

ومن يبتغ مزيداً من الأدلة والأسانيد في مجال العلم تعليمه وتعلمه وآدابه فليرجع إلى فصول الركن الثاني من الأربعة الأركان التي جرى على أساسها تقسيم هذا الكتاب.

الرابطة الشريفة

تأمل - أيها الرفيق القارىء - أية قوة روحانية هي تلك التي أودعها الخلاق العظيم في قلب عبد قرّبه هو إليه فرفعه إلى الذروة العليا من مقام الإحسان!! هذه القوة الروحانية، قوة القلب، هي التي يتوجه بها المرشد الروحاني إلى أفكار تلاميذه وقلوبهم فيُشيع فيها بحول اللّه سبحانه وقوته الإصلاح والتدريب على أعمال الروح بأنواعها التي مرت علينا في ثنايا هذا الكتاب.

و«الرابطة» اسم من الربط: فالصداقة رابطة بين صديقين، والمحبة رابطة بين متحابين، والتعليم رابطة بين الأستاذ والتلميذ، والتوجه الروحي رابطة بين المرشد المدرِّب والسالك المتدرب. فالرابطة هي الصلة بين شيئين أو

إنسانين، فإذا كانت في مجال علم الروح فهي بذلك صلة روحانية.

و «الرابطة الروحانية»: هي انتهاضة فكر أو انتهاضة قلب يريد يتصل بذكر اللّه سبحانه على «منازل الذكر» أو «مقام الإحسان»، مبتدئاً عمله الروحي هذا (حينما يتفرغ له ساعة ليل أو نهار) بالاتصال بروح أستاذه المرشد رجاء الإفادة من قوته الفائقة لنيل حسن الارتباط وسرعته بذكر اللّه سبحانه على مدارج تلك المنازل أو ذاك المقام. ومتى بلغ السالك مثابة «ذكر القلب» من «نهج المقام» وجد انتباهته البادئة إلى روح المرشد عند ابتداء الجلسة إنما تمكث دقائق قليلة أو قدر ثوان يبدأ القلب بعدها بذكر اللّه جلّ جلاله فيستغرق الذاكر استغراقاً ـ وكل شيء عندئذ منسيّ إلا اللّه وحده.

والبالغون هذه المثابة، والعارجون فوقها إلى ذروة مقام الإحسان، والمجازون من أهل الذروة إجازة الاستقلال بإرشاد المسلمين، فإنهم لن يتركوا أبداً المرابطة البادئة مع شيخهم حيثما جلس أحدهم أو جلسوا جلسة عمل روحي. فإن أستاذهم هذا هو الذي وفقه اللّه تعالى وجعله وسيلة وسبباً لعروجهم معارج اليقين والإحسان وتجريدهم العبادة لخالق الأكوان. وإنهم يحبونه في اللّه، وإنه يحبهم في اللّه، وإنهم جميعاً يرجون الاستظلال بظل اللّه يوم لا ظل إلا ظله ـ جلّ جلاله وعمّ نواله. وإنهم لذلك كله يذكرون شيخهم في الخلوات والجلوات ويخصونه بصالح الدعوات ويهدون إليه ثواب القراءات عقيب إهدائها إلى رسول اللّه وآله وأصحابه ـ صلى اللّه وسلم عليه وآله وأصحابه.

كذلك يذكر السالكون مرشدهم. فلنتأمل الآن في مزيد من أحكام الكتاب والسنة في هذا الشأن، في قوله تعالى:

ـ «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا اللّه كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» .

(البقرة : ٢٠٠ ـ ٢٠١) .

أتتنا الآية الكريمة بهذه الأحكام : أ ـ الأمر بذكر اللّه ، ب ـ تجويز ذكرنا آباءنا ؛ ج ـ تجويز ذكرنا الناس سوى آبائنا ؛ د ـ الأمر بذكر اللّه ذكراً أشد من ذكر الآباء ؛ هـ ـ الأمر بالدعاء لخير الدنيا مع خير الأخرة . وسياق الآية ومقتضى الحال واضحان كل الوضوح في أن التشبيه بذكر الآباء لا علاقة له بوصف الأبوة على وجه الحصر، بل هو تشبيه لذكر اللّه تعالى بذكر إنسان كالأب مثلاً . وكما أن أقل الذكر قد نصّ على جواز تشبيهه وأُمِرَ بمثله في حق الله تعالى ، فكذلك الشأن في الذكر الأشد أمراً به وتجويزاً لتشبيهه بما هو أشد من ذكر الآباء مما يكون بين بني الإنسان . فكأن الآية الكريمة مبنيّة على مثل صنعة الاحتباك، وصورتها : اذكروا اللّه كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً كذكركم من تذكرونه ذكراً أشد من ذكركم آباءكم . وعلى الحدين تشتمل الآية على تجويز ذكر السالك إنساناً هو شيخه ، بيد أن الذكر الروحاني من السالك أشد من ذكره أباه وأتم . فذكر اللّه تعالى الأتم الأكمل أيضاً مأمور به ، وهو مفضّل على الحد الأقل الذي هو في مستوى ذكر الآباء . والسالك الروحاني إنما يذكر مرشده الروحي لكي يرتقي هو إلى مصاف ذكر اللّه تعالى ذكراً أقوى وأتم وأكمل من كل ذكر حتى ذكره شيخه . ثم إذا علمنا أن ذكر اللّه جل جلاله واجب مأمور به، وأن المبتغى من الرابطة إنما هو التوصل إلى أداء هذا

الواجب على أتمِ وجه، أدركنا أن الرابطة الروحانية حكمها الوجوب للمكلفين الذين لا يقوون على ذكر اللّه من دون تقدمه رابطة، والندب لمن يقوون على الحد الأقل من الذكر لكن لا يقوون لوحدهم على الذكر الأتم. فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم المندوب إلا به فهو مندوب إليه.

ولننظر الآن إلى عمل رسول اللّه وأصحابه ـ صلى اللّه وسلم عليه وعليهم أجمعين. كان يجلس معهم في حلق كمثل ما بيناها للختم الشريف في الفصل السابق. وكان مما يعمل في تلكم الجلسات: نشر الإسلام وتشريع الأحكام وتدبير شؤون الأنام وتزكية القلوب والأفهام وذكر اللّه تعالى بالقلب وبالكلام.

ـ أخرج البخاري في صحيحه (القسطلاني ج ١ ص ٣١٣ ـ ٣١٤): «حدثنا إسماعيل قال حدثني مالك عن إسحاق بن عبد اللّه بن أبي طلحة أن أبا مُرّة مولى عَقيل بن أبي طالب أخبره عن أبي واقد الليثي أن رسول اللّه ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول اللّه ﷺ وذهب واحد. قال فوقفا على رسول اللّه ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الاخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً. فلما فرغ رسول اللّه ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم فأوى إلى اللّه تعالى فآواه اللّه إليه. وأما الآخر فاستحيا فاستحيا اللّه منه. وأما الآخر فأعرض فأعرض اللّه عنه».

في ذروة الحضور والشهود

وإن من هذه الجلسات ما كانت تخصص لتزكية القلوب والنفوس. هم جلوس، وهم سكوت، والرسول يعمر قلوبهم بقلبه الذاكر الزكي المزكي

وروحه العظيم الذي عهد إليه الباريء الرحيم بمهمة تزكية كل من يريد أن يتزكى. **«لقد منّ اللّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين»**. (آل عمران: ١٦٤). أخرج أبو داود في «السنن» (ج ٤ ص ٣): «حدثنا حفص بن عمر النمري حدثنا شعبة عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك قال: «أتيت النبي ﷺ وأصحابَه كأنما على رؤوسهم الطير. فسلمت ثم قعدت. فجاء الأعراب من هٰهنا وهٰهنا فقالوا يا رسول اللّه أنتداوى. فقال: «تداووا فإن اللّه عزّ وجلّ لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد [هو] الهرم». وإن من عظيم آثار هذه الجلسات جلسات الصمت والسكينة، ما يعلمنا به حنظلة الأسيديّ رضي اللّه عنه في الحديث التالي نصه: ـ

ـ أخرج الترمذي في «الجامع الصحيح» (ج ٤ ص ٦٦٦): «حدثنا بشر بن هلال البصري حدثنا جعفر بن سليمان عن سعيد الجُريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسيدي وكان من كتاب النبي ﷺ أنه مرّ بأبي بكر وهو يبكي. فقال: ما لك يا حنظلة. قال: نافق حنظلة يا أبا بكر. نكون عند رسول اللّه ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة كأنا رأيَ عين. فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثيراً. قال [أبو بكر]: فواللّه إنا لكذلك. إنطلق بنا إلى رسول اللّه ﷺ. فانطلقنا. فلما رآه رسول اللّه ﷺ قال: «مالك يا حنظلة». قال: نافق حنظلة يا رسول اللّه نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأيَ عين فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيراً. قال: فقال رسول اللّه ﷺ: «لو تدومون على الحال الذي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم. ولكن يا حنظلة ساعة وساعة وساعة». وسواء

عنى حنظلة بقوله «كأنا رأي عين» أنهم صاروا كأنهم يرون اللّه جلّ جلاله أم كأنهم يرون الجنة والنار رأي عين فالمستفاد من شكاته ثم من جواب النبي ـ ﷺ ـ أنه وأمثاله من الأصحاب قد كانوا في ذروة مقام الإحسان. رضي اللّه تعالى عنهم وأثابهم بجهادهم وجزاهم عنا خيراً، فلقد علّمونا ونقلوا إلينا العلم مدراراً. ثم انظر كيف كان رسول الله ـ ﷺ ـ يزكيهم ويدربهم بقلبه وبحاله وبمقاله: ـ

ـ أخرج البخاري (القسطلاني ج ١١ ص ١٠٨): «حدثني إبراهيم بن المنذر حدثنا محمد بن فليح حدثني أبي عن هلال بن علي عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال[هلال] سمعته يقول: إن رسول اللّه ﷺ صلى لنا يوماً الصلاة[صلاة الظهر على ما قال القسطلاني] ثم رقي المنبر فأشار بيده قِبَل قِبْلة المسجد فقال: «قد رأيت الآن منذ صليت لكم الصلاة الجنة والنار ممثلتين[أي مصوّرتين كما قال القسطلاني] في قُبُل هذا الجدار[أي واجهته] فلم أر كاليوم في الخير والشر فلم أر كاليوم في الخير والشر».

فلنفهم مما تقدم أن مصاحبة أحياء القلوب الصالحين والإفادة من أنوار قلوبهم والتأدب بآدابهم كل هذه مأمور بها في شرعة المسلمين جلية المنافع للدنيا والدين.

مرافقة الصالحين

ويغنينا فيها القول الحق المبين:

ـ «**واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً. واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم**

بالغـدوٰة والعشيّ يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحيوٰة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هوٰيه وكان أمره فرُطاً».

(الكهف : ٢٧ ـ ٢٨).

ـ «هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون . الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين . يا عبادِ لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون».

(الزخرف: ٦٦ ـ ٦٨).

ـ «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوٰة ويؤتون الزكاة ويطيعون اللّه ورسوله أولئك سيرحمهم اللّه إن اللّه عزيز حكيم . وعد اللّه المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبة في جنات عدن ورضوان من اللّه أكبر ذلك هو الفوز العظيم».

(التوبة: ٧١ ـ ٧٢).

ـ «ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً».

(الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩).

وأخرج أبو داود في «السنن» (ج ٣ ص ٢٨٨): «حدثنا زهير بن حرب وعثمان بن أبي شيبة قالا: حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير أن عمر بن الخطاب قال قال النبيّ ﷺ: «إن من عباد اللّه لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللّه تعالى». قالوا يا رسول اللّه تخبرنا من هم. قال: «هم قوم تحابوا بروح اللّه على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها. فواللّه إن وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس». وقرأ هذه الآية: «**ألا إن أولياء اللّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**».

حسن الختام

«يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون اللّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب. ما قدروا اللّه حق قدره إن اللّه لقويّ عزيز. اللّه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن اللّه سميع بصير. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى اللّه تُرجَع الأمور. يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون. وجاهدوا في اللّه حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبلُ وفي هذا ليكون الرّسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة واعتصموا باللّه هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير». (الحج: ٧٣ ـ ٧٨).

والحمد للّه تعالى في البدء والختام والصلاة والسلام على خير الأنام وآله وأصحابه وأتباعه الكرام. سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت

العليم الحكيم. ربّ: إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني - إنك أنت الغفور الرحيم.

وهـذا صباح يوم السبت منتصف شهر ربيع الأول من العام الهجري الثالث عشر بعد الأربعمائة والألف، وفيه اكتمل هذا الكتاب «معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي». وذلك في منزلي «بحي الجامعة» بالجانب الغربي من مدينة بغداد - مدينة الحرب والسلام.

فهرس المراجع

القرآن المجيد

ـ تم الاعتماد (غالباً) للرسم وتسلسل الآي على مصحف الحافظ الخطاط الكبير مصطفى نظيف قدرغه لي ـ أجزل الله المنعم عطاءه وجزاه عن المسلمين خيراً.

السنة السَنية

ـ أبو حنيفة، النعمان ابن ثابت، الإمام ـ (المتوفى ١٥٠هـ): «المسند» أو «مسند أبي حنيفة». تحقيق صفوة السقا. حلب ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م.

ـ أبو داود، سليمان ابن الأشعث السجستاني الأزدي (المتوفى ٢٧٥ هـ): «السنن» الشهير «بسنن أبي داود». الطبعة الأولى بالقاهرة ١٣٧١ هـ. وأيضاً طبعة لبنان بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

ـ البخاري، محمد ابن إسماعيل، الإمام ـ (المتوفى ٢٥٦): «الجامع الصحيح»، ضمن شرح «القسطلاني»: راجعه لتفصيل الطبع.

ـ الترمذي، محمد ابن عيسى ابن سورة، الإمام ـ(المتوفى ٢٧٩): «الجامع الصحيح» أو «سنن الترمذي»، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر،

القاهرة، بوشر بالطبع عام ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م.

ـ الشافعي، محمد ابن إدريس، الإمام ـ (المتوفى ٢٠٤): «المسند» أو «مسند الشافعي». لتفصيل الطبع راجع «الشافعي» «الأم».

ـ مالك، ابن أنس، الإمام ـ (المتوفى ١٧٩): «الموطأ»، رواية الإمام محمد ابن الحسن الشيباني (المتوفى ١٨٩)، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، القاهرة ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

ـ مسلم، ابن الحجاج القشيري، الإمام ـ (المتوفى ٢٦١): «الجامع الصحيح» أو «صحيح مسلم»، ضمن شرح النووي بهامش «القسطلاني»: راجعه للتفصيل.

ـ منصور علي ناصف، الشيخ ـ: «التاج الجامع للأصول» (بدأ به عام ١٣٤١ وأتمه في ١٣٤٧هـ). الطبعة الثالثة، مصر ١٣٨١ ـ ١٣٨٢هـ ١٩٦١ ـ ١٩٦٢م.

سائر الكتب

ـ ابن حزم، علي ابن حزم، الظاهري (المتوفى ٤٥٨): «المحلّى»، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٤٧ ـ ١٣٥٢هـ.

ـ ابن رشد، محمد بن أحمد القرطبي الحفيد، العلامة ـ (المتوفى ٥٩٥): «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، القاهرة ١٣٧١هـ.

ـ ابن عبد البر القرطبي، الإمام الحافظ ـ (المتوفى ٤٦٣): «الإستيعاب في تمييز الصحاب»، مطبوع بهامش «الإصابة» للحافظ العسقلاني: راجع «العسقلاني».

- ابن قدامة، عبد الله ابن أحمد ابن محمد: «المغني»، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، القاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م وما بعدها.

- ابن القيم، محمد ابن أبي بكر، ابن قيم الجوزية المتوفى (٧٥١): «إعلام الموقعين»، طبعة «دار الجيل»، ولم تذكر سنة الطبع.

- ابن القيم: «الروح» (أو كتاب الروح)، بيروت ١٣٩٥.

- ابن القيم: «مدارج السالكين» (شرح «لمنازل السائرين» للإمام الهروي)، بيروت ١٣٩٥.

- ابن الهمام، محمد ابن عبد الواحد، كمال الدين، الكمال - (المتوفى ٦٨١): «فتح القدير للعاجز الفقير» (شرح وتعليق مطول على «الهداية» للإمام المرغيناني المتوفى سنة ٥٩٣)، بولاق ١٣١٥.

- البهوتي، منصور ابن يونس، الشيخ -: «الروض المربع بشرح زاد المستقنع»، إنتهى من تأليفه عام ١٠٤٣هـ (والمتن للإمام أبي النجا موسى ابن أحمد المقدسي)، مطبعة ولاية سورية بدمشق ١٣٠٥هـ.

- التفتازاني، سعد الدين عمر، العلامة - «شرح المقاصد» اسطنبول ٣٠٥هـ.

- جار اللّه، موسى (كان عالماً رحالة معاصراً): «الوشيعة في نقد عقائد الشيعة»، القاهرة ١٣٥٥هـ.

- الخُضَري، الشيخ محمد -: «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»، تحقيق محي الدين الجراح، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت (أهمل تأريخ الطبع).

- خلوصي، الدكتور صفاء -: «فن التقطيع الشعري والقافية»، بغداد ١٩٨٧م.

- دحلان، السيد أحمد ابن زيني -: «الدرر السنية في الرد على الوهابية»، المطبعة البهية ١٢٩٩هـ.

- السرخسي، محمد ابن أحمد، الإمام - (المتوفى ٤٨٣): «المبسوط» (في ثلاثين مجلداً)، القاهرة ١٣٢٤ - ١٣٣١هـ.

- الشافعي، محمد ابن إدريس، الإمام - «ألامّ»، بولاق ١٣٢١ - ١٣٢٦هـ. ويحتوي المجلد السابع منه على الكتب التالية: - ١ - «كتاب اختلاف الحديث». ٢ - «كتاب اختلاف العراقيين». ٣ - «كتاب الرد على محمد ابن الحسن». ٤ - «مسند الشافعي».

- الشافعي: «جماع العلم»، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٥٩هـ. ميلاد الشافعي في ١٥٠ ووفاته في ٢٠٤هـ.

- الشافعي: «الرسالة»، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٥٧.

- عبد الرحمن ابن حسن آل الشيخ (المتوفى ١٢٨٥هـ): «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»، مطبعة الانتصار، بغداد ١٩٩٠م. وللكتاب طبعات أخرى عديدة.

- العسقلاني، شهاب الدين ابن حجر الإمام الحافظ - (المتوفى ٨٥٢هـ): «الإصابة في تمييز الصحابة»، الطبعة الأولى بمصر ١٣٢٨هـ.

- العسقلاني: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، مصر ١٣٧٨هـ.

- عمر فرّوخ، الدكتور - ومصطفى خالدي، الدكتور -: «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»، ألطبعة الخامسة، لبنان ١٩٧٣م.

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، الإمام - (المتوفى ٥٠٥هـ): «إحياء علوم الدين»، طبعة محمد شاهين، مصر ١٢٧٩هـ.

- الغزالي، الإمام -: «ثلاثة كتب هي: - ١ - «معراج السالكين»؛ ٢ - «منهاج العارفين»؛ ٣ - روضة الطالبين: حققها العلامة الشيخ محمد بخيت، وطبعت في مجلد واحد بعنوان «فرائد اللآلي من رسائل الغزالي»، الطبعة الأولى بمصر ١٣٤٣هـ ١٩٢٤م.

- القسطلاني، أحمد ابن محمد ابن أبي بكر، العلامة - (المتوفى ٩٢٣هـ): «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري»، طبع بالمطبعة الميمنية بمصر في اثني عشر مجلداً كباراً وتمت الطبعة عام ١٣٢٦هـ. تشتمل هذه المجلدات في صلب وهوامش صفحاتها على الكتب التالية: -

١ - «إرشاد الساري» للقسطلاني. بأعلى الصفحة.

٢ - «الجامع الصحيح» للإمام البخاري. ضمن شرح القسطلاني معلماً بأقواس. بأعلى الصفحة.

٣ - «تحفة الباري بشرح صحيح البخاري»، لشيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري. بأسفل الصفحة.

٤ - «الجامع الصحيح» للإمام مسلم. بهامش الصفحة، أعلاها غالباً.

٥ - شرح العلامة النووي على صحيح مسلم. بهامش الصفحة معلماً بينه وبين صحيح مسلم بإشارات.

وقد تمت الإشارة إلى هذه الكتب خلال كتابنا بذكر اسم صاحب الكتاب فلقب الكتاب ثم الاكتفاء بذكر كلمة «القسطلاني» فرقم الجلد فرقم الصفحة أو الصفحات. ذلك لكفاية التعيين وتمام الإختصار.

- الكليني، أبو جعفر محمد ابن يعقوب ابن إسحاق الرازي - (المتوفى ٣٢٩هـ): «الكافي»، الطبعة الثالثة، تهران ١٣٨٨هـ.

- مصطفى خالدي، الدكتور -: راجع «عمر فرّوخ».

- مصطفى، الدكتور عبد الله -: «الحرية الجامعية»، مطابع التعليم العالي بجامعة الموصل، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.

- مصطفى، الدكتور عبد الله -: «علم أصول القانون». عدة طبعات خاصة لطلاب القانون في الجامعة المستنصرية ببغداد، في سنوات ١٩٦٧ - ١٩٧٠م.

- مصطفى، الدكتور عبد الله -: «مجمع الأشتات»، مطابع التعليم العالي بجامعة الموصل، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٨٩م. هذا يجمع في مجلد واحد الكتب الأربعة التالية: -

١ - «الرفيق الأعلى»: بحث في برهان العقل والحكمة والفيزياء الكونيتين بغية التوصل إلى معرفة ذات اللّه تعالى وصفاته.

٢ - «الحق والقانون»: بحث في فلسفة القانون لتأصيل مقومات نظرية الحق.

٣ - «المقتضب في علم الوضع»: منهاج جديد لأصول علم الوضع اللغوي.

٤ ـ «المقتطف» منظومة في علم الصوت اللغوي.

ـ مقاتل ابن سليمان البلخي، الإمام ـ (المتوفى ١٥٠هـ): «الأشباه والنظائر في القرآن الكريم»، تحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاته، القاهرة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

ـ نكلسن، رينولد أ ـ المتوفى (١٩٤٥م): «أ لِتْرَري هيستوري أوف نـ أرابس»، كيمبرج يونيفرسيتي بريس، كيمبرج ١٩٥٣م.

ـ وهبه، حافظ ـ: «جزيرة العرب في القرن العشرين»، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م.

ـ الهروي، عبد الله ابن محمد ابن علي، الإمام ـ (المتوفى ٤٨١هـ): «منازل السائرين»، مطبوع ضمن «مدارج السالكين». راجع «ابن القيم».

ـ هيكل، الدكتور محمد حسين ـ، «حياة محمد» الطبعة الثامنة، مصر ١٩٦٣م.

ـ ياقوت الحموي، ابن عبد الله الرومي، البغدادي الدار، (المتوفى ٦٢٦هـ): «معجم الأدباء»، أو ـ كما سماه هو ـ «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»، دار المأمون بمصر ١٣٥٥هـ ١٩٣٦م.

الفهرس المفصل

صفحة العنوان .... ١، ٣
الافتتاح ٥
الإهداء ٧
الابتداء ٩
المقدمة: .... ١١ - ١٣

الركن الأول

الاعتصام بالشريعة الغراء

١٥ - ٨٠

الفصل الأول: آساس الاعتقاد: .... ١٧ - ٣٠
عمل الروح: إسلاميه وغير إسلاميه: ١٧
مقومات الاسلام: الشريعة الغراء: ١٧
خصائص الشريعة الغراء: ١٨
أسس العقيدة في الإسلام: .... ١٨ - ١٩
عمل الروح في أسس العقيدة: .... ١٩ - ٢٠
الإيمان والإرادة: ٢٠
بين الكفر والإيمان: ٢١

التناقض في الفكر: .... ٢١ ـ ٢٢
الإيمان والزندقة: .... ٢٢ ـ ٢٣
الأدلة والصور التوضيحية: .... ٢٣ ـ ٢٤
مدارك الأحكام لآساس العقيدة: .... ٢٤ ـ ٣٠
الفصل الثاني: النبوة والرسالة: .... ٣١ ـ ٥١
العلاقة بين الإنسان وخالق الأكوان: ٣١
ما هو السر الأعظم وراء الخلق والإبداع؟: .... ٣٩ ـ ٤٦
ماذا يريد الخالق منا وما هي العبادة؟: .... ٣١ ـ ٣٣
دار الإسلام وسائر الدول: .... ٣٥ ـ ٣٨
العمل الروحي خارج دار الإسلام: ٣٨
الصفات السرمدية: صفة الخالق: .... ٤٣ ـ ٤٥
خاتم النبيين: منزلته وجاهه عند رب العالمين: .... ٤٦ ـ ٥١
الفصل الثالث: الروح وقواه وخلوده: .... ٥٣ ـ ٦٧
معاني الروح:ـ ٥٣
١ـ القرآن والدين ٢ ـ الملك الكريم
٣ ـ روح الإنسان ٤ ـ بصيرة القلب: .... ٥٣ ـ ٥٤
الأرواح الذكية، وأرواح الحيوانات: .... ٥٤ ـ ٥٥
سر الحياة: ٥٥
نمط خلق الأرواح، ونمط خلق الأجساد: .... ٥٥ ـ ٥٦
التأثير والتأثر بين قوى الروح: .... ٥٦ ـ ٥٧
تفاوت الأرواح في درجات قواها: ٥٧
قوة روح خاتم النبيين: .... ٥٧ ـ ٥٨

هل يفنى الروح بالموت وتفنى معه كل قواه؟
أم هل يخلد الروح وتخلد معه كل قواه؟ .... ٥٨ - ٦٧
تفاسير «بل هم في لبس من خلق جديد»: .... ٥٩ - ٦٣
الكتاب والسنة يثبتان بقاء قوى الروح: .... ٦٤ - ٦٧
الفصل الرابع: الالتزام بالأحكام: .... ٦٩ - ٨٠
«لا إكراه في الدين»، بل حرية اختياره: ٦٩
فإذا اختار الإسلامَ أطاع اللّه ورسوله: .... ٧٠ - ٧١
جزاء الالتزام في دار الخلود وجزاؤه
في دار الدنيا: ٧١
ألإفتاء دونما كفاية علم بمدارك الأحكام: .... ٧٢ -٧٣
مذاهب السلف والخلف في ذلك: ٧٣- ٧٤
الأحكام هل لها ظواهر وبواطن؟
هل البواطن كالظواهر مبينات في الشريعة؟ .... ٧٥ - ٧٧
ثقافة الصلاة: أعمالها الجسدية الظاهرة
وأعمالها الروحية الباطنة: .... ٧٥ - ٧٦
البواطن من أعمال الروح: .... ٧٦ - ٧٧
زعم التعارض بين الباطن والظاهر
إنخلاع من ربقة الإسلام: .... ٧٨ - ٨٠

الركن الثاني
العلم النافع
٨١ - ١٧٠

الفصل الخامس: الإسلام والعلم: .... ٨٣ - ٩٢

التنزيلة الأولى في غار حراء: ٨٣
العلاقة بين الخالق والمخلوق والإسلام والعلم: ٨٣
العلم عمل روحاني لطيف: .... ٨٣ ـ ٨٤
علاقة العلم بالروح وبالجسد: ٨٤
العلم في الكتاب المجيد: .... ٨٤ ـ ٨٦
العلماء في الكتاب المجيد: ٨٦
العلم والعلماء في السنة الشريفة: .... ٨٧ ـ ٨٨
العلم معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين: .... ٨٩ ـ ٩١
آياته الخالدة: .... ٩١ ـ ٩٢
الفصل السادس: أصناف العلوم: .... ٩٣ ـ ١٠٧
العلم مشمول بأحكام الشريعة: ٩٣
تشعب العلوم ومنهاجه: .... ٩٣ ـ ٩٥
تفصيل أحكام الشريعة في أصناف العلوم: .... ٩٥ ـ ٩٧
حكم الشريعة في علوم الشريعة: ٩٧
علم العامة وعلم الخاصة: .... ٩٧ ـ ٩٨
حكم الشريعة في علوم الذرة: .... ٩٩ ـ ١٠٠
علوم الذرة عند علماء الإسلام: .... ١٠٠ ـ ١٠٣
تفاضل العلوم في الإسلام: .... ١٠٤ ـ ١٠٦
علم الحياة الخالدة: .... ١٠٦ ـ ١٠٧
الفصل السابع: آداب العلم: .... ١٠٩ ـ ١٢٢
عمل الروح أساس العلم في الإسلام: ١٠٩
العمل لوجه الله تعالى: .... ١٠٩ ـ ١١٠

العلم مشاع في الإسلام: .... ١١٠ ـ ١١١
رواتب أهل العلم: ١١١
سيرة العلماء الأعلام في العلم: .... ١١٢ ـ ١١٣
تعليم النساء: .... ١١٣ ـ ١١٥
مجمع النساء والرجال في حضارة الإسلام: ١١٥
ملتقى الخير والتقوى: قطع من الشعر: .... ١١٦ ـ ١١٨
متابعة العلم: ١١٩
الرحلة لتحصيل العلم: ١١٩
مجانبة الإملال: ١٢٠
الرحمة والتوقير: .... ١٢٠ ـ ١٢١
العلم وسيلة إلى الله سبحانه: .... ١٢١ ـ ١٢٢
خاتمة الفصل: ١٢٢
الفصل الثامن: علماء السوء وأعمال التخريب: .... ١٢٣ ـ ١٧٠
النفس الأمارة والنحل الهدامة: ١٢٣
القسطاس المستقيم: ١٢٣
تشرذم المجتمع الإسلامي وأصحاب النحل: ١٢٤
أهل الجماعة أو السواد الأعظم: .... ١٢٥ ـ ١٢٦
خصائص أهل الجماعة: .... ١٢٦ ـ ١٢٧
وجوب التزام الجماعة: .... ١٢٧ ـ ١٢٨
مقياس التمييز من القرآن المجيد: .... ١٢٨ ـ ١٢٩
مقياس التمييز من السنة المطهرة: .... ١٢٩ ـ ١٣٠
نحلة النبذ والانسلاخ: .... ١٣٠ ـ ١٣٨

إماتة القوانين الإسلامية واحياء
القوانين الأوروبية: .... ١٣٠ ـ ١٣٤
كاسرات الحياء: ١٣٢
دعوة لنبذ الخط والهجاء الإسلاميين: .... ١٣٣ ـ ١٣٤
حركة الفرنجة «بالشعر الحر»: .... ١٣٤ ـ ١٣٨
نحلة الشقاق والتكفير: ١٣٨
الفرقة القديمة: ١٣٩
الفرقة المحدثة: .... ١٣٩ ـ ١٤٠
تكفير أمة الإسلام بالشفاعة والوسيلة: .... ١٤٠ ـ ١٤٢
وزيارة القبور: .... ١٤٢ ـ ١٤٤، ١٥٢ ـ ١٥٣
معارضة المذهب الحنبلي: .... ١٤٤ ـ ١٤٥
معارضة مذاهب أهل الجماعة
وصلاة التراويح: .... ١٤٥ ـ ١٤٦
أصحاب الفرقة المحدثة ليسوا من الحنابلة: ١٤٧
حقائق وراء تكفيرهم أهل السنة والجماعة: .... ١٤٧ ـ ١٥٠
ـ الحقيقتان الأولى والثانية .... ١٤٧ ـ ١٤٨
ـ الحقيقتان الثالثة والرابعة ١٤٨
ـ الحقيقتان الخامسة والسادسة ١٤٩
ـ الحقيقة السابعة .... ١٤٩ ـ ١٥٠
هدم الإسلام السلفي: .... ١٥٠ ـ ١٥٢
معارضة صريح الكتاب والسنة: .... ١٥١ ـ ١٥٢
أغرب المتناقضات عند علماء الفرقة المحدثة: .... ١٥٣ ـ ١٥٤

تكفيرهم جمهور علماء المسلمين: ١٥٤
مسار الفكر ومنهاج العلم عند كبار علمائهم: ...... ١٥٥ ـ ١٥٦
معاداة التصوف الإسلامي: .... ١٥٦ ـ ١٥٧
التستر وراء ابن تيمية ومناقضة أهم آرائه: ١٥٨
آراء ابن تيمية في شأن التصوف: .... ١٥٨ ـ ١٦٠
ـ صوفية الحقائق .... ١٥٩ ـ ١٦٠
ـ صوفية الأرزاق ١٥٩
ـ صوفية الرسوم ١٥٩
ـ المقامات والمواجيد ١٥٩
أئمة الحنابلة والتصوف: ١٦٠
التعايش على نفاق غليظ: ١٦١
نحلة الدجل والاستغلال: .... ١٦١ ـ ١٧٠
نهج الغزالي ينتهجه ابن تيمية،
أولهما على تفصيل والثاني على اختصار: .... ١٦٢ ـ ١٦٦
مفسدة «تجديد العهد»: ١٦٦
مفسدة الإنتحال: .... ١٦٦ ـ ١٦٨
ملتقى الارتزاق والتظاهر
بالرسم عند السحر: .... ١٦٧ ـ ١٦٨
مبتدعات من فصيلة الانتحال: .... ١٦٩ ـ ١٧٠

الركن الثالث

الجهاد في سبيل الله تعالى

١٧١ ـ ٢٢٣

الفصل التاسع: الجهاد الأكبر: .... ١٧٣ ـ ١٨٠
حياة المؤمن كلها جهاد والتزام: ١٧٣
الإعداد الروحي: تزكية النفس وتجلية القلب: .... ١٧٣ ـ ١٧٥
الإسلام بين فرقة ووئام: .... ١٧٥ ـ ١٧٩
نقيضان: خيبر وفلسطين: .... ١٧٥ ـ ١٧٨
فقدان القوة العظمى: الثقافة الروحانية: ١٧٨
العلماء وثقافة الروح: ١٨٠
ختام الجهاد الأكبر: ١٨٠
الفصل العاشر: جهاد الإرشاد والدحض: .... ١٨١ ـ ١٨٧
الإرشاد والبيعة: .... ١٨١ ـ ١٨٣
جهاد الإرشاد: ١٨٣
العلم والإرشاد ونشر الإسلام: ١٨٤
طرق الصوفية ونشر الإسلام: .... ١٨٤ ـ ١٨٦
«عمل الروح»، لا «التصوف»: ١٨٥
توحيد الطرق في حضارة الإسلام: ١٨٦
جهاد الدحض: في الغابر والحاضر: ١٨٧
الفصل الحادي عشر: جهاد الرباط: .... ١٨٩ ـ ٢٠٠
مؤمنون من طراز فريد: ١٨٩
جيش مقيم يزود نفسه بنفسه: .... ١٨٩ ـ ١٩٠
الرُّبُط والزهاد:
ـ رباط الزهاد بعبادان.
ـ رباط الفتح بالمغرب.

ـ رباط منستير بتونس .
ـ رباط العباد بتلمسان .
ـ رباط تسكيدلت في جنوب وهران .
ـ الرباط الخانقاه في حلب .
ـ خانقاه الهرشمي بأربيل . . . . ١٩٠ ـ ١٩١
المرابطون هم الروحانيات والروحانيون
الزاهدات والزاهدون : ٩١
سيد الزاهدين هو سيد الخلق أجمعين : ١٩١
والقدوة أهل بيته المكرمون : . . . . ١٩١ ـ ١٩٣
قدوة من كبار الأصحاب والتابعين وعلماء
الأمصار : . . . . ١٩٣ ـ ١٩٩
سلمان الفارسي : ١٩٥
أويس القرني : ١٩٦
الحسن البصري ١٩٧
إبراهيم ابن أدهم : ١٩٨
العلماء الروحانيون في القرن الثالث : . . . . ١٩٨ ـ ١٩٩
ثواب المرابط وأجره عند اللّه جل جلاله : . . . . ١٩٩ ـ ٢٠٠
الفصل الثاني عشر : جهاد الذّب عن الحياض : . . . . ٢٠١ ـ ٢٢٣
الرسول يأبى القتال ويدعو بالحكمة ويتحمل هو وأصحابه
صنوف الأذى والعداوة والبغضاء : ٢٠١
وأخيراً الهجرة : . . . . ٢٠١ ـ ٢٠٢
السرايا وغاياتها : . . . . ٢٠٢ ـ ٢٠٥

أهم السرايا: قوامها وقياداتها: .... ٢٠٣ ـ ٢٠٤
الإذن بالقتال ذباً عن الحياض: ٢٠٤
سرية «نخلة»: ٢٠٦
سرية «بدر الكبرى»: .... ٢٠٧ ـ ٢١٠
القوى الروحانية العظمى في موقعة بدر: .... ٢١١ ـ ٢١٥
الكفار يزدادون كفراً وحرباً على دار الإسلام: ٢١٥
فساد اليهود في دار الإسلام: ٢١٥
الدولتان العظميان الساسانية والرومانية
تكيدان «لدار الإسلام» مكايد السلم والحرب: .... ٢١٥ ـ ٢١٦
حروب الذب عن الحياض والدفاع عن «دار الإسلام»: ... ٢١٦
العرب المسلمون يحررون بلاد الشام: .... ٢١٦ ـ ٢١٧
تهب أوروبا لاستعباد المشرق كرة أخرى: .... ٢١٦ ـ ٢١٧
الأتراك المسلمون يفتحون القسطنطينية ويحررون البلاد ويعيدون
العزة لحضارة الشرق حضارة الإسلام: .... ٢١٦ ـ ٢١٧
صراع الحضارات في العصر الحديث: ٢١٨
استعمار بلاد الإسلام كرة أخرى: ٢١٨
حضارتان متطاردتان: ٢١٨
قوام الحضارة الأوروبية الحديثة:ـ
في العلم، في الاستخراب، في المجتمع والحياة،
في الدولة والكنائس، وفي الدجل. .... ٢١٨ ـ ٢٢٠
السيد المسيح مفخرة الشرق للعالم،
ودول الغرب تعادي شرق المسيح، وكنائس الغرب تستصغر كنائس

المسيح الشرقية الأصيلة وتوالي اليهود والصهيونية والاستعمار
المعادي للمسيحيين والمسلمين أجمعين. ..... ٢٢٠ - ٢٢١
حضارة الإسلام هي لكل الأنام لجميع الملل والأقوام، وقوامها :-
- في العلم: حضارة روحانية عِلمانية.
- في المجتمع والحياة: حضارة المعروف وأخوة الإنسان للإنسان.
- في الدين والدولة: حضارة العمل الصالح الناس فيه سواسية
كأسنان المشط، والحرية في العقيدة حتى
لمن يؤثر الكفر على الإيمان. .... ٢٢١ - ٢٢٢
أيها المسيحيون الشرقيون: إستفيقوا وجاهدوا كأسلافكم؛ وأيها
المسلمون
الشرقيون: إستفيقوا وجاهدوا كأسلافكم: ...... ٢٢٠ - ٢٢١
العصر عصر جهاد بكل صنوف الجهاد: ٢٢٣

الركن الرابع

العمل الصالح

٢٢٥ - ٣١٣

الفصل الثالث عشر: تقسيم الأعمال: .... ٢٢٧ - ٢٣٩
الجسد الفاني والروح الخالد: ٢٢٧
تقسيم أعمال المكلفين: .... ٢٢٧ - ٢٢٨
الأسلوب الأول للتقسيم: ٢٢٨
الأسلوبان الثاني والثالث: ٢٢٩
الأسلوب الرابع: ٢٣٠
إجتث الإسلام دابر الرق

فتركنا أبوابه في التقسيم: .... ٢٣٢ ـ ٢٣٣
الإسلام يسدّ ذريعة الحرب
إلى استعباد الإنسان للإنسان: .... ٢٣٣ ـ ٢٣٤
العودة إلى الاسترقاق في دول الحضارة
الأوروبية المعاصرة: ٢٣٤
منهاج إنتقائي لتقسيم الأعمال فريد: .... ٢٣٥ ـ ٢٣٧
منهاجنا في تقسيم الأعمال لمقاصد هذا الكتاب: .. ٢٣٨ ـ ٢٣٩
الفصل الرابع عشر: أعمال الجوارح: .... ٢٤١ ـ ٢٧١
الأعمال قبل الإسلام، والأعمال في الإسلام: ٢٤١
التوبة: .... ٢٤٢ ـ ٢٤٣
أعمال الإقامة والامتناع: .... ٢٤٣ ـ ٢٤٥
السيئات الباطنة: ٢٤٥
الحسنات الخوالد: .... ٢٤٦ ـ ٢٤٨
رعاية الأعمال: .... ٢٤٨ ـ ٢٤٩
نصف ساعة: .... ٢٤٩ ـ ٢٥١
الختم الشريف: .... ٢٥١ ـ ٢٥٧
فضائل ورذائل: .... ٢٥٧ ـ ٢٦١
نحلة الحلول: .... ٢٦١ ـ ٢٦٤
وحدة الوجود: .... ٢٦٤ ـ ٢٦٧
السمع والقلب: .... ٢٦٨ ـ ٢٧٠
راشد وغويّ: .... ٢٦٩ ـ ٢٧٠
الشعر الصوفي: ٢٧٠

إنابة ومناجاة: قصيدة حميدة: ٢٧١
الفصل الخامس عشر: أعمال القلوب: .... ٢٧٣ ـ ٣١٣
قوى الروح المتمايزات: ٢٧٣
قوة الفكر: .... ٢٧٣ ـ ٢٧٥
قوة النفس: .... ٢٧٥ ـ ٢٧٧
قوة القلب: ٢٧٧
القلب في القرآن المجيد: .... ٢٧٨ ـ ٢٨٠
تفاعل قوى الروح الثلاث: .... ٢٨٠ ـ ٢٨١
القلب في السنة الشريفة: .... ٢٨١ ـ ٢٨٢
العقل: هل هو في القلب أم الرأس؟: ٢٨٤ ـ ٢٨٥
القلب والورع وأخت بشر الحافي: ٢٨٥
حق النفس الأمارة: ٢٨٦
حق الفكر: .... ٢٨٦ ـ ٢٨٧
حق القلب: ٢٨٧
القلب أم الحاسة السادسة: .... ٢٨٧ ـ ٢٨٨
الغاية المثلى والمقصد الأسنى: .... ٢٨٨ ـ ٢٨٩
«منازل الذكر»: .... ٢٨٩ ـ ٢٩١
سنة رسول الله وسنة أصحابه في الذكر: .... ٢٩٢ ـ ٢٩٥
الإسرار بالذكر: .... ٢٩٤ ـ ٢٩٥
المنزل الأعلى في منازل الذكر: .... ٢٩٥ ـ ٢٩٦
«مقام الإحسان»: .... ٢٩٦ ـ ٣٠٢، ٣٠٩ ـ ٣١٠

والمثابة الأولى من النهج : .... ٢٩٧ ـ ٢٩٨
المثابة العليا من النهج البادىء : ٢٩٨
النهج الأقصى والمقصد الأسنى : ... ٢٩٩ ـ ٣٠٢، ٣٠٩ ـ ٣١٠
التعلم والإرشاد : .... ٣٠٢ ـ ٣٠٤
الرابطة الشريفة : .... ٣٠٥ ـ ٣٠٨
ذروة الحضور والشهود : .... ٣٠٨ ـ ٣١٠
مرافقة الصالحين : .... ٣١٠ ـ ٣١٢
حسن الختام : .... ٣١٢ ـ ٣١٣
فهرس المصادر : .... ٣١٥ ـ ٣٢١
الفهرس المفصل : ٣٢٣